ميشيل ويلبيك



28.9.2017 (27)



ترجمة: شكير نصرالدين

منشورات الجمل

رواية


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ميشيل ويلبيك

استسلام

رواية

ترجمة: شكير نصرالدين

منشورات الجمل

ولد ميشيل ويلبيك عام ١٩٥٨ في جزيرة لاريينيون. بدأ اهتمامه بالأدب في العشرين من عمره، وهي الفترة التي بدأ يرتاد فيها دوائر سياسية مختلفة. سنة ١٩٨٥ التقى ميشيل بولتو، مدير مجلة «نوفيل روفي دي باري» التي كانت أول من نشر نصوص ويلبيك. وبوحي من بولتو نشر ويلبيك عام ١٩٩١ بيوغرافيا «هووارد. ب. لوفيكرافت»: «**ضد العالم، ضد الحياة**». وفي السنة نفسها ظهر كتابه «**البقاءُ حيّاً**» عن دار النشر: لاديفيرونس. وعن الدار نفسها صدر في العام التالي أول ديوان له بعنوان: «**مواصلة السعادة**» الذي نال جائزة «تريستان تزارا». لكن موريس نادو، صانع الكثير من الأصوات الإبداعية في فرنسا، يظل أهمّ من دفع بميشيل ويلبيك إلى الأمام، إذْ نشر له روايته الأولى التي رُفضت من قبل العديد من دور النشر: «**توسيع ميدان الصراع**». بعدها نشر العديد من الدواوين والروايات، من أهمها: «**معنى الصراع**» و«**ولادة جديدة**»، و«**المنصة**». صدر له عن منشورات الجمل: «**احتمال جزيرة**»، رواية (٢٠٠٧)؛ **الخريطة والأرض**، رواية (٢٠١٤).

ميشيل ويلبيك: استسلام، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: شكير نصرالدين

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

«أعادته جلَبةٌ إلى سان سُولْبيس؛ فات أوان درس الترتيل؛ توشك الكنيسة على إغلاق أبوابها. لعله كان حري بي أن أصلي، حدَّث نفسه؛ ذلك أفضل من الاستغراق في الحلم دون طائل هكذا جلوساً على كرسي؛ لكن أن أصلي؟ لا رغبة لي في ذلك؛ المسيحية تستحوذ عليَ، تسكرني أجواؤها المفعمة بالبخور والشمع، أطوف حولها، تؤثر فيَ حدَّ ذرف الدموع أدعيتها، تعتصرني حتى النخاع تراتيلها وأناشيدها. لقد سئمت حياتي بشدة، وضجرتُ من نفسي، لكن أن يوصلني ذلك إلى عيش غمار حياة أخرى فهذا شطط. ثم... ثم إنْ اهتز كياني في المعابد، أصير جافاً ولا يبهرني شيء ما إن أغادرها. في الحقيقة، حدَّث نفسه، حينما أنهض وأتبع الناس القلائل الذين كانوا متجهين، يدفعهم الحارس السويسري نحو باب من الأبواب، في الحقيقة، يقسو قلبي ويرتفع دخان غيظه جراء المباهج، وأغدو بلا فائدة».

(ج. ك. ويسمانس. في الطريق).


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



خلال كل سنوات فترة شبابي الحزينة، ظل ويسمانس بالنسبة إليّ رفيقاً، صديقاً وفيّاً؛ لم يساورني شك أبداً، لم يحدث أبداً أن أغراني هجره ولا أن وليتُ وجهي شطر موضوع غيره؛ ثم، ذات ظهيرة من شهر حزيران/يونيو ٢٠٠٧، بعد أن انتظرتُ طويلاً، وماطلتُ كثيراً، بل أكثر مما هو مقبول، دافعتُ بين يدي لجنة تحكيم جامعة باريس الرابعة- السوربون عن أطروحتي لنيل الدكتوراه: *جوريس كارل ويسمانس أو الخروج من النفق*. ومنذ صباح اليوم الموالي (أو ربما منذ المساء عينه، لا يسعني تأكيد الأمر، لأن ليلة مناقشتي للأطروحة كانت وحيدة وضاجّة بالكحول)، أدركتُ أن قِسماً من حياتي قد انتهى، ومن المرجح أنه كان أفضل قسم فيها).

هكذا هي الحال في مجتمعاتنا التي ما زالت غربية واشتراكية - دمقراطية، بالنسبة إلى كل الذين يُكملون دراساتهم، لكن أغلبهم لا يدركون ذلك، أو ربما لا يفعلون على الفور، لأنهم قد ذهلوا بحب المال، أو ربما الاستهلاك عند الأشد بدائية منهم، أولئك الذين استبد بهم أشد أشكال الإدمان عنفاً على بعض المنتجات (هم أقلية، وأغلبهم، الأكثر تعقلاً ورباطة جأش،

استبد بهم افتتان بسيط بالمال، «بروتيوس ذاك الذي لا يكل ولا يمل»). وقد أذهلتهم أكثر الرغبة في إثبات ذواتهم واحتلال مكانة اجتماعية مرموقة في عالم يتصورون ويأملون أن فيه منافسة، وقد غشت قلوبهم عبادة أيقونات متعددة: من رياضيين ومبتكري الموضة أو بوابات الإنترنت، من ممثلين وعارضات أزياء.

ولأسباب نفسية كثيرة لا أملك لا القدرة ولا الرغبة في تحليلها، فقد ابتعدت بشكل محسوس عن مثل هذه الشاكلة. يوم الفاتح من نيسان/أبريل ١٨٦٦، لمّا كان يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة، ابتدأ جوريس كارل ويسمانس حياته المهنية، بصفته مستخدماً من الرتبة السادسة، بوزارة الداخلية والشؤون الدينية. عام ١٨٧٤، نشر على حسابه الخاص أول مجموعة قصائد نثرية، *علبة التوابل*، التي حظيت بالقليل من النقد ما خلا مقالة، تفيض بالإخاء، بقلم ثيودور دو بانفيل. بداياته في الحياة، مثلما نرى، لم تكن مدوّية قطعاً.

مضت حياته الإدارية، وبصفة أعم، حياته. يوم ٣ أيلول/ سبتمبر ١٨٩٣ مُنِح وسام جوقة الشرف عن جدارته في الوظيفة العمومية. عام ١٨٩٨، أحيل على التقاعد، بعد أن صرف ثلاثين سنة من الخدمة النظامية - مع الأخذ في الحسبان الإيداع لدواعٍ شخصية - وخلالها وجد السبيل لتحبير كتب متنوعة جعلتني، بفارق أكثر من قرن من الزمان، أعتبره مثل صديق لي. أشياء عديدة، ربما أشياء كثيرة تمت كتابتها حول الأدب (وباعتباري جامعياً متخصصاً في هذا المجال، أشعر أكثر من غيري بأني مؤهل للحديث عنه). خصوصية الأدب، وهو فن رئيس في غربٍ آفلٍ على مرأى منا، ليست رغم ذلك عصية على التعريف. شأن

الأدب، فإن الموسيقى في وسعها أن تحدِّدَ اضطراباً، انقلاباً عاطفياً، حزناً أو وجداً مطلقاً، وشأن الأدب، قد يولد الرسم انبهاراً، رؤية جديدة للعالم. لكن وحده الأدب يستطيع أن يمنحك ذلك الإحساس بالاتصال مع روح أنسانية أخرى، مع تمام هذه الروح، بمواطن ضعفها وعظمتها، بنواقصها وصغائرها، بأفكارها المتزمتة، بمعتقداتها؛ بمعية كل ما يجيش مشاعرها ويجلب اهتمامها، يثيرها وينفرها. وحده الأدب يستطيع جعلك في اتصال مع روح شخصٍ ميت، بطريقة مباشرة، كاملة، وعميقة، أكثر مما يصنعه حتى الحديث مع صديق - مهما كانت صداقة ما عميقة ودائمة، فإن المرء لا يفصح أبداً عن سريرته، بالقدر الكامل الذي يفعله في حضرة ورقة فارغة، وهو يتوجه إلى متلقٍّ غير معلوم. حينها بالطبع، عندما يتعلق الأمر بالأدب، فإن جمال الأسلوب وموسيقى الجُمل لهما أهميتهما؛ كما لا ينبغي تجاهل عمق تفكير المؤلف وأصالة أفكاره؛ لكن المؤلف هو قبل كل شيء كائن إنساني، حاضر في كتبه، سواء كتب على نحو حسنٍ أو أسوأ منه فإن ذلك لا يهم كثيراً في نهاية المطاف، الأساسي هو أن يكتب ويكون، بالفعل، حاضراً في كتبه (من الغريب أن شرطاً بمثل هذه البساطة، وفي الظاهر ليس فيه تحيز كبير، أن يكون كذلك في حقيقة الأمر، وجراء هذا الواقع البديهي، الملحوظ بسهولة، لم يستفد منه إلا قليلاً الفلاسفة من مختلف المشارب: لأن الكائنات البشرية تمتلك من حيث المبدأ، إذا تعذرت الفضيلة، نفس القدْر من الكينونة، إنها جميعها مبدئياً حاضرة تقريباً أيضاً؛ وليس ذلك هو الانطباع الذي يخلفونه، بفارق بضعة قرون، وفي أغلب الأحيان، وعلى مر الصفحات

التي تشعر بأنها من إملاء روح العصر أكثر مما هي من مداد فرد بعينه، نشهد اندثار كينونة تفتقد اليقين، مثل الشبح ومجهولة الاسم أكثر فأكثر). وبالمثل، فإن كتاباً نحبه، هو قبل كل شيء كتابٌ نحب مؤلفه، تحدونا الرغبة في ملاقاته من جديد، معه نود قضاء أيامنا. وأثناء هذه الأعوام السبعة التي شهدت كتابة أطروحتي، عشت في صحبة ويسمانس، في حضوره شبه الدائم. ولد بزُقاق سِيجير، وقد عاش بزقاق سيفر وزقاق مُسيوه، ومات ويسمانس بزقاق سان بْلاسِيد ثم دفن بمقبرة مونبارناس. حياته كلها تقريباً قد مرت في المجمل بين حدود المقاطعة السادسة من باريس - شأن حياته المهنية، مدة أكثر من ثلاثين سنة، مرت في مكاتب وزارة الداخلية والشؤون الدينية. وقد كنت أقطن بدوري بالمقاطعة السادسة من باريس، داخل غرفة رطبة وباردة، ومظلمة إلى أقصى حد على الأخص - كانت النوافذ تطل على باحة صغيرة جداً، تكاد تكون كالبئر، إذ كان ينبغي تشغيل الأضواء منذ بداية الصباح. كنت أعاني من الفقر، ولو قيِّض لي أن أرد على واحد من استطلاعات الرأي تلك التي كانت تسعى بانتظام إلى «جس نبض الشباب»، لكنت بلا ريب قد عرَّفْتُ ظروف عيشي بأنها «صعبة بالأحرى». ومع ذلك، في الصباح الذي أعقب مناقشة أطروحتي (أو ربما منذ المساء عينه) تمثلتْ أول خاطرة عنَّت لي في أني فقدت للتو شيئاً لا يُقدر بثمن، شيءٌ لن أعثر عليه أبداً من جديد: حريتي. طوال أعوام كثيرة، سمحت لي آخر بقايا الاشتراكية - الديمقراطية المحتضرة (عبر منحة دراسية، نظام موسع للتخفيض ومزايا اجتماعية، وجبات رديئة لكن بسعر رخيص في المطعم الجامعي) بأن أخصص مجموع أيامي لنشاط

كنت قد اخترته: المعاشرة الفكرية الحرة لصديق. ومثلما يلاحظ ذلك أندري بْروتُون عن حق، فإن فكاهة ويسمانس تمثل حالة فريدة من نوعها لتلك الفكاهة السخية، تمنح القارئ دفعة إلى الأمام، تدعو القارئ إلى أن يسخر مسبقاً من المؤلف، من الإفراط في أوصافه المتباكية، القاسية أو المضحكة. ولقد استفدت من هذا السخاء أفضل من أي شخص آخر، مستقبلاً نصيبي من مرق عصيدة الكرفس أو هريسة سمك القد، الموضوعة في مقعرات طبق المستشفى المعدني الذي كان مطعم بُولْيِي الجامعي يوزعه على مرتاديه المعدمين (أولئك الذين من الجلي أنهم لا يملكون أي ملاذ، الذين تم طردهم بلا شك من جميع المطاعم الجامعية المُرْضية، لكن رغم ذلك كانت لديهم بطاقة الطالب، لم يكن في الوسع حرمانهم منها)، حينها أستحضر نُعوتَ ويسمانس، الجُبن *المفجِع*، سمك موسى *البائس*، وكنتُ أتخيل الفائدة التي قد يجنيها ويسمانس من مقعَّرات السجن المعدنية تلك، وأشعر بأني أقل شقاء بعض الشيء، أقل عزلة بعض الشيء، في مطعم بُولْيِي الجامعي. لكن كل ذلك انتهى؛ شبابي، بصفة عامة، انتهى. الآن عما قريب (ولاشك بما يكفي من السرعة)، سوف ينبغي لي الانخراط في عملية اندماج مهني. وما كان لهذا أن يَسُرَّني بتاتاً.

الدراسات الجامعية في مجال الآداب لا تؤدي مثلما نعلم إلى شيء تقريباً، وإلا فإنها تقود الطلاب الأكثر موهبة إلى احتراف التعليم الجامعي في مجال الآداب - لدينا في المجمل وضع هو بالأحرى طريف لنظام لا هدف له سوى إعادة إنتاج نفسه، مقرون بمعدل طرد أعلى من ٩٥٪. وهذه الدراسات غير ضارة مع ذلك، وقد تمثل منفعة هامشية. إن فتاة شابة تطلب الحصول على شغل بصفتها بائعة عند سِيلين أو عند هِرمس يجب عليها بالطبع، وبالدرجة الأولى، أن تولي عناية لمظهرها؛ لكن شهادة إجازة أو ماجستير في الآداب العصرية قد تشكل امتيازاً إضافياً يضمن للمشغِّل، مع انعدام الكفاءات المستعملة، بعضاً من الحركية الفكرية قد تنبئ بإمكانية حصول تطور في الحياة المهنية - الأدب، بالإضافة إلى ذلك، اقترن دائماً بدلالة إيجابية في مجال صناعة الترف.

كنتُ في ما يخصني على وعي بأني من ضمن الفئة القليلة من «الطلاب الأكثر موهبة». لقد كتبتُ أطروحة جيدة، أعرف ذلك، وكنت أتوقع ميزة مشرف؛ بل وأدهشتني على نحو سار *تهاني اللجنة* بالإجماع، وخاصة حينما اكتشفت أن تقرير أطروحتي كان

رائعاً، وكله تقريض، تقريباً: كانت لدي منذئذ حظوظ وافرة للتأهل، إن ابتغيت ذلك، إلى رتبة أستاذ محاضر. وبالجملة، واصلت حياتي، بانتظامها وسطحيتها المتوقعة، شبَهَها بحياة ويسمانس قرناً ونصف القرن من ذي قبل. لقد أمضيت سنوات حياتي الأولى بوصفي راشداً داخل جامعة: ولسوف أمضي فيها على الأرجح سنواتي الأخيرة، ولربما في الجامعة نفسها (وفي الحقيقة لم يكن الحال كذلك بالضبط: إذ حصلت على شهاداتي من جامعة باريس الرابعة - السوربون، وتم تعييني بجامعة باريس الثالثة، التي تقل عنها شهرة بعض الشيء، لكنها تقع بدورها أيضاً في المقاطعة الخامسة، تفصل بينهما مسافة بضعة مئات من الأمتار).

لم يكن لدي أبداً أي ميل إلى التعليم - وبعد ذلك بخمس عشرة سنة، فإن حياتي المهنية لم تفعل شيئاً غير تأكيد غياب الميل البدائي ذاك. بعض الدروس الخصوصية التي أشرفتُ عليها بغية تحسين مستواي المعيشي أقنعتني في وقت مبكر جدا بأن تبليغ المعرفة كان في أغلب الأحيان مستحيلاً؛ وأن تنوع المؤهلات الفكرية شديداً، وبأن لا شيء في وسعه حذف هذا التفاوت الأساسي أو التخفيف من حدته. ربما هناك أفظع من ذلك، لم أحب الشبان في الماضي، ولم يحدث أبداً أن أحببتهم، حتى في الوقت الذي كان في الوسع اعتباري كواحد منهم. وقد بدا لي أن فكرة الشباب تستلزم بعض الحماس تجاه الحياة، أو ربما بعض التمرد، وهما معا مصحوبان بإحساس مبهم على الأقل بالعظمة إزاء الجيل الذي كان مطلوباً منا الحلول مكانه: لم يسبق لي أبداً أن أحسست في داخلي بشيء مشابه لذلك. ومع هذا كان لدي

أصدقاء، في فترة شبابي - أو للدقة أكثر كان هناك بعض زملاء الدراسة الذين كان في وسعي التفكير، من دون نفور، في مرافقتهم لشرب قهوة أو جعة بين حصتين دراسيتين. وعلى الأخص، كان لدي عشيقات - أو بالأحرى، مثلما كان يقال في تلك الحقبة (ومثلما يقال ربما حتى الآن)، كان لدي صُويحِبات - بمعدل واحدة في السنة تقريباً. كانت هذه العلاقات الغرامية تجري حسب خطاطة لا تتغير نسبياً. تنشأ بداية السنة الجامعية بمناسبة عمل تطبيقي، أو تبادل ما نُدَوِّنُه من دروس، إجمالاً خلال واحدة من مناسبات التقاسم، المتواترة بشدة في حياة الطالب، والتي يؤدي اختفاؤها الناجم عن ولوج الحياة المهنية إلى إغراق أغلب الكائنات البشرية في عزلة مذهلة بقدر ما هي جذرية. كن يتابعن دروسهن طوال السنة، ليالي يتم قضاؤها عند هذا أو عند تلك (عموماً عندهن، لأن الجو الكئيب بل وغير الصحي في غرفتي لا يليق كثيراً *بمواعيد التودد*) كانت تجري هناك أفعال مجامعة (أجد متعة في تصور أن الرضى كان متبادلاً). بعد العطل الصيفية، إذن في بداية السنة الجامعية الجديدة تصل العلاقة إلى نهايتها تقريباً بمبادرة من الفتيات. لقد عشن *شيئا ما* خلال الصيف، كان ذلك هو التفسير الذي يقدمنه لي، وفي أغلب الأحيان من دون توضيح إضافي، بعضهن اللائي لا ينشغلن كثيراً بمراعاة مشاعري، يوضحن لي بأنهن صادفن *شخصاً ما*. أجل، وبعد؟ أنا أيضاً كنتُ *شخصاً ما*، ومع الوقت، فإن هذه التفسيرات الواقعية كانت تبدو لي غير كافية: لا أنكر أنهن التقين فعلاً بشخص ما، لكن الذي جعلهن يسبغن على هذا اللقاء وزناً كافياً لقطع علاقتنا، والانخراط في علاقة جديدة لم يكن سوى عمل

بنموذج سلوك غرامي قاهر، لكن مضمر، وبقدر ما كان قاهراً فقد ظل مضمراً.

وفق النموذج الغرامي السائد خلال سنوات شبابي (ولا شيء كان يدفعني للظن بأن الأمور قد تبدلت بشكل ملحوظ)، فإن الشبان والشابات، بعد فترة قصيرة من التشرد الجنسي الموافق لمرحلة ما قبل المراهقة، كان من المفترض فيهم الانخراط في علاقات غرامية مقصورة، مقرونة بأَحَدية زوجية صارمة، حيث تتضافر أنشطة ليست جنسية فحسب وإنما أيضاً اجتماعية (خرجات، نهايات الأسبوع، عُطل). لم يكن في هذه العلاقات أي شيء نهائي، لكن كان ينبغي اعتبارها بمثابة تمارين على العلاقة الغرامية، نوعاً ما مثل تداريب (يعمم العمل بها على المستوى المهني بصفتها سابقة على أول فرصة شغل). علاقات غرامية متغيرة من حيث المدة (إن مدة سنة التي رصدتها فيما يخصني يمكن اعتبارها مقبولة) من حيث العدد (يبدو معدل بين عشرة وعشرين بمثابة تقدير معقول)، كان المفروض فيها أن تتعاقب قبل أن تصل، مثل تتويج، إلى العلاقة المثلى، تلك التي سيكون لها هذه المرة طابع زوجي ونهائي، وتقود، عبر إنجاب أطفال، إلى تكوين أسرة.

لم تتضح لي التفاهة التامة لهذه الخطاطة إلا بعد فوات الأوان كثيرا، منذ مدة قريبة في حقيقة الأمر، حين تسنى لي، بفاصل بضعة أسابيع، لقاء أورِيلي صدفة، ثم ساندرا (لكن، وأنا متأكد من ذلك، لقاء كْلُوِي أو فْيُولِين ما كان له أن يغيّر خلاصاتي على نحو محسوس). ما إن دخلت المطعم الباسكي حيث دعوت أوريلي للعشاء، حتى أدركتُ أني سوف أمضي

أمسية مشؤومة. ورغم قنينَتَي نبيذ إرُولِغِيي الأبيض الذي كنتُ الوحيد تقريباً الذي أقبل على شربه، ألفيت صعوبات متزايدة، أضحت بسرعة عصية على التجاوز، في الحفاظ على مستوى معقول من التواصل الحار. ودون التوصل حقاً إلى تفسير ذلك، بدا لي على الفور أنه من غير اللائق وتقريباً المستبعد استحضار ذكريات مشتركة. أما عن الحاضر، فقد كان بديهياً أن أوريلي لم تفلح بتاتاً في الالتزام بعلاقة زوجية، وأن المغامرات العَرَضية تسبب لها نفوراً متفاقماً، وأن حياتها العاطفية باختصار سائرة نحو مصيبة مستعصية وتامة. لقد حاولتْ رغم ذلك، مرة واحدة على الأقل، وقد أدركتُ ذلك بفضل دلائل عديدة، ولم تبرأ من فشلها، ذِكرُ زملائها الرجال بذلك الأسى وتلك المرارة (لقد وصل بنا الأمر، لأنه لم يكن لدينا أفضل من ذلك، إلى الحديث عن حياتها المهنية - إذ كانت مكلفة بالتواصل في نقابة خمور بوردو المهنية المشتركة، وبالتالي كانت تسافر كثيراً، خاصة إلى آسيا، لترويج الخمور الفرنسية) يظهر ببداهة قاسية أنها تجرعت الكثير من المعاناة. استغربت الأمر مع ذلك، حينما دعتني، بالتحديد قبل مغادرة التاكسي، إلى «شرب كأس أخيرة»، إن عيشتها رُمقة حقاً، حدثت نفسي، وكنت أعرف مسبقاً عندما انغلق باب المصعد علينا أنه لن يحدث شيء يذكر، بل لم يكن لدي حتى الرغبة في رؤيتها عارية، أفضل تحاشي الأمر، إلا أن ذلك حصل رغم ذلك، وأكد لي ما كنت أستشعره مسبقاً، إنها لم تتجرع المعاناة على المستوى العاطفي فحسب، بل إن جسدها تعرض لخسائر لا يمكن تعويضها، ردفاها ونهداها ليسا سوى مساحات من الجلد الهزيلة، المنكمشة، الرخوة والمتدلية، لم

يكن في الوسع أبداً ولن يكون في الوسع أبداً اعتبارها موضوعاً للرغبة.

مرَّ عشائي رفقة سَانْدرا تقريباً وفق الخطاطة نفسها، مع فارق في التنويعات الفردية (مطعم ثمار البحر، عملها كسكرتيرة إدارة في مقاولة متعددة الجنسيات لصناعة الأدوية)، وخاتمته كانت مماثلة مجملاً، مع فارق بسيط هو أن ساندرا، البدينة والمرحة أكثر مما عليه أوريلي خلفت لدي انطباعاً بالإهمال أقل عمقاً. كان حزنها كبيراً، ولا علاج له، وكنت أعرف أنها في آخر المطاف سوف تخفي كل شيء؛ ومثل أوريلي لم تكن في العمق سوى طائر ملوث بالنفط، لكنها حافظت، إذا جاز لي القول، على قدرة عالية على تحريك جناحيها. في غضون عام أو عامين، سوف تكون قد تخلت عن كل طموح للأمومة، وسوف تدفعها شهوانيتها التي لم تنطفئ تماماً إلى البحث عن رفقة فِتية في ريعان الشباب، وسوف تصير ما كنا نسميه في فترة شبابي لبؤة، وسوف يدوم ذلك بلا شك بضع سنوات، عشرة أعوام في أحسن الأحوال، قبل أن يؤدي بها ترهل جسمها المرضي هذه المرة إلى عزلة نهائية.

كان في الوسع وأنا في سن العشرين، حينما يشتد شبقي لأي سبب وأحياناً من دون سبب، عندما يشتد شبقي في الفراغ نوعاً ما، أن تستهويني علاقة من هذا النوع، التي تعود عليّ في الآن معاً بالرضى والنفع أكثر من دروسي الخصوصية، أظن أني قد كنت قادراً على الوفاء بالغرض، لكن الآن بالطبع لم يعد في الوسع ذكر ذلك، شبقي النادر ورهين الصدف صار يتطلب أجساماً صلبة، مرنة ولا عيب فيها.

لم تشهد حياتي الجنسية، في السنوات الأولى التي أعقبت تعييني في منصب أستاذ محاضر بجامعة باريس الثالثة - السوربون، أي تطور ملحوظ. واصلت، سنة تلو أخرى، مضاجعة طالبات الكلية - وحقيقة أني كنت في موقف الأستاذ بالنسبة إليهن لم يغير في الأمر شيئاً يذكر. الفارق في السن بيني وتلك الطالبات كان رغم كل شيء في البداية طفيفاً، وبالتدرج فحسب حصل شيء من الخلل، مرتبط أكثر بتطور وضعي الجامعي منه بشيخوختي الحقيقية أو حتى الظاهرة. كنت أستفيد في المجمل تماماً من هذا التفاوت الأساس الذي يرى أن الشيخوخة عند الرجل لا تفسد إلا ببطء كبير في قدرته الإيروسية، بينما عند المرأة فإن الانهيار يتم بخشونة مذهلة، في بضعة أعوام، أحياناً في شهور معدودة. الفرق الوحيد مقارنة مع سنواتي باعتباري طالباً، يتمثل في كوني أنا بصفة عامة، الآن، مَن يضع نهاية للعلاقة في بداية السنة الجامعية. لم أكن أصنع ذلك بتاتاً بدافع نزعة دونجوانية، ولا عن رغبة في مجون جامح. وخلافاً لزميلي سْتِيف، المكلف مثلي بتدريس أدب القرن التاسع عشر لطلاب السنة الأولى والثانية، لم أكن أندفع بشراهة، منذ اليوم الأول للدخول، من أجل رصد «الوافدات الجديدات» من طالبات السنة الأولى (بقمصانه الرياضية الصوف، وأحذيته الكونْفِرس، وهيئته الكاليفورنية الملتبسة، كان يذكرني دائماً بتييري ليرميت في فيلم المُلوَّحون سُمرة، حينما يخرج من كوخه قصد معاينة وصول مُصيفات الأسبوع إلى النادي). إن كنت أقطع علاقاتي بتلك الفتيات الكواعب، فذلك كان بالأحرى قلة عزم وتضجر: لم أعد أشعر فعلاً أن لدي القدرة على رعاية علاقة غرامية، وكنت آمل

تفادي كل إحباط، كل تخلص من الوهم. كنت أبدل رأيي أثناء السنة الجامعية، بتأثير من عوامل خارجية وطريفة للغاية - عموماً بفعل جُبَّة قصيرة.

ثم توقَّف ذلك أيضاً. كنت قد ودعتُ مريم نهاية شهر أيلول/سبتمبر، وكان الوقت منتصف نيسان/أبريل، والسنة الجامعية تشارف على نهايتها ولم أكن قد استبدلتها بغيرها بعد. كان قد تم تعييني أستاذاً للجامعات، وحياتي المهنية الأكاديمية وصلت بهذا إلى نوع من الإنجاز، لكني لم أظن أنه في الإمكان فعلاً إقامة علاقة. وبخلاف ذلك، بعد فترة وجيزة من انفصالي عن مريم، التقيت أوريلي، ثم ساندرا، وحدث ثمة ترابط مقلق، مزعج وغير مريح. لأنه كان علي إدراك ذلك، بالتفكير فيه من جديد مع مرور الأيام: كنا أشد قرباً إلى بعضنا مما كنا نتصور، أنا وخليلاتي السابقات، وانتهى المطاف بالعلاقات الجنسية العرضية التي لم يكن من ورائها مشروع ثنائي دائم أن ألهمتنا شعوراً مماثلاً بزوال الوهم. لم يكن في وسعي، خلافاً لهن، البوح بذلك لأي أحد، لأن الأحاديث عن الحياة الحميمة لا تدخل ضمن المواضيع التي تعتبر مقبولة في مجتمع الرجال: إنهم يتحدثون عن السياسة، والأدب، والأسواق المالية أو عن الرياضات، تبعاً لطبيعتهم، أما عن حياتهم الغرامية فيلزمون الصمت، وذلك حتى آخر نفَس فيهم.

هل كنت سائراً إلى الشيخوخة، ضحية نوع من سن اليأس؟ كان في الوسع تصديق ذلك، ولذا قررت حتى يطمئن قلبي أن أقضي ليالي على موقع يوبورن youporn، الذي صار على مر السنوات موقعاً إباحياً مرجعياً. ومنذ البداية، كانت النتيجة مطمئنة

جداً. يوبورن يناسب استيهامات الرجال العاديين، الموزعين على سطح البسيطة، وقد تأكد لي منذ الدقائق الأولى أني كنت رجلاً يتمتع بطبيعة سوية تامة. وبعد كل شيء، لم يكن ذلك بديهياً، لقد خصصت قسماً كبيراً من حياتي لدراسة مؤلف تم في الأغلب اعتباره أشبه بالمنحط، وبفعل ذلك لم تكن حياته الجنسية موضوعاً شديد الوضوح. وعليه، خرجت من التجربة مطمئناً تمام الاطمئنان. هذه الفيديوهات الرائعة تارة (المصوّرة على يد فريق من لوس أنجلوس، كان هناك فريق، فنّي إنارة، مكلفون بالآليات ومصور المشاهد) والتافهة تارة أخرى لكنها قديمة الطراز (الهواة الألمان) تقوم على سيناريوهات متماثلة ولطيفة. في واحد من السيناريوهات الأكثر انتشاراً، هناك رجل (شاب؟ شيخ؟ الصيغتان موجودتان معاً) يترك ذكره نائماً ببلاهة في تبان أو سروال قصير. امرأتان، في ريعان الشباب، من عِرْقٍ مختلف، تدركان هذا التناقض، ومنذ ذلك الحين لا شيء يصدّهما عن تخليص العضو من مخبئه المؤقت. ومن أجل إسكاره، كانتا تغدقان عليه أشد المداعبات جنوناً، وكل ذلك يتم بروح الصداقة والتواطؤ النسوي. كان الذَّكَر ينتقل من فم إلى آخر، ويلتقي اللسانان مثلما تلتقي طيور السنونو محلقة، الحائرة بعض الشيء في السماء القاتمة لجنوب مقاطعة لاسِينْ إي مازْن، بينما هي تتأهب لهجرة أوروبا قصد رحلة الشتاء. أما الرجل، الذي أفناه ذلك المعراج، لم يكن ينطق سوى بكلمات واهنة، وهي واهنة بفظاعة عند الفرنسيين («آه، يا للعهر!»، «آه، يا للعهر، إني أجد لذتي!»، هذا تقريباً ما يسعنا توقعه من شعب يقتل مُلوكه) وهي كلمات تغدو أشد جمالاً وقوة عند الأمريكان («آه، يا إلهي!»، «آه يا يسوع

المسيح!»، وهم شهود متشددون، تبدو عندهم وكأنها أمرٌ بعدم إهمال هِبات الرّب (من عمليات مصّ، واستلقاء على الظهر)، ومهما حدث، فقد كان ذَكري ينتصب أنا كذلك خلف شاشتي iMac ذات السبع وعشرين بوصة، كان كل شيء على ما يرام إذاً.

منذ تعييني أستاذاً، سمحت مواقيت دروسي القليلة بأن أجمع كل مهامّي الجامعية في يوم الأربعاء. كان العمل يبتدئ من الثامنة إلى العاشرة بدرس حول أدب القرن التاسع عشر، أقدمه لطلاب السنة الثانية - وفي الوقت نفسه كان سْتيفْ يقدم في مدرج مجاور درساً مماثلاً لطلاب السنة الأولى. ومن الحادية عشرة إلى الواحدة بعد الظهر، كنت أشرِف على درس الماجستيرِ ٢ حول الأدباء المنحطين والرمزيين. ثم بين الثالثة والسادسة، كنتُ أسيِّر ندوة أجيب فيها عن أسئلة طلاب الدكتوراه.

كنت أفضل ركوب ميترو الأنفاق تقريباً بعد الساعة السابعة حتى أشعر بذلك الوهم المنفلت بأني أنتمي إلى «فرنسا التي تستيقظ باكرا»، فرنسا العمّال وأصحاب الحِرَفْ، لكن لعلي كنت الوحيد تقريباً الذي على هذه الحال، إذ إني كنت أقدم دروسي على الساعة الثامنة في قاعة شبه خالية، ما عدا مجموعة متراصة من الصّينيات، يُصيب جِدّهم بالجمود، يحادثن بعضهن قليلاً، ولا يكلّمن أحداً أبداً. ما إن يدخلن حتى يشغلن هواتفهن الذكية لتسجيل درسي بالكامل، ولم يكن ذلك يمنعهن من تدوين رؤوس أقلام في دفاتر كبيرة من الحجم ٢١ × ٢٩,٧ ذات اللولب. لم

يقاطعْنَني أبداً، ولا طرحن أي سؤال، وكانت تمضي الساعتان دون أن تشعراني بأني بدأت العمل بالفعل. بعد الفراغ من درسي ألتقي ستيف الذي كان لديه جمهور مشابه - مع فارق بسيط أن في حاله كان يتم تعويض الصينيات بمجموعة من المغارِبيات المحجَّبات، لكنهن ذوات القدر نفسه من الجدية، والمتكتمات بالمثل. كان يقترح عليَّ دائماً تقريباً الذهاب لتناول كأس - في العموم شاي بالنعناع في المسجد الأكبر بباريس، الواقع على بعد أزقة معدودة من الكلية. لم أكن أستحسب الشاي بالنعناع، ولا المسجد الأكبر بباريس، كما أني لم أكن أستحسب ستيف كثيراً. ومع ذلك كنتُ أرافقه. أظن أنه كان ممتناً لي على القبول، لأنه لم يكن يحظى بالاحترام كثيراً من طرف زملائه في العمل عموماً، بالفعل، يمكن للمرء أن يتساءل عن كيفية وصوله إلى رتبة أستاذ محاضر بينما لم ينشر شيئاً، في أية مجلة مهمة كانت بل حتى في مجلة من الدرجة الثانية، ولم يؤلف سوى أطروحة مبهمة عن رامبو، موضوع فارغ بامتياز، مثلما شرحت لي ذلك ماري فرانسواز تَانُوزْ، واحدة من ضمن زملائي الآخرين، مشهود لها بالتخصص في بلزاك، آلاف الأطروحات تمت كتابتها حول رامبو في كل جامعات فرنسا، والبلدان الفرانكفونية، بل وأبعد من ذلك، ربما كان رامبو على الأرجح هو أكثر مواضيع الأطروحات تداولاً في العالم، باستثناء فلوبير ربما، إذ يكفي المرء البحث في أطروحتين قديمتين أو ثلاث، تمت مناقشتها في جامعات الضواحي، ومزجها على نحو مبهم، ولا سبيل لأحد كما لا رغبة له في الانكباب على مئات الآلاف من الصفحات التي بسطها من دون كلل طلاب عديمو الشخصية عن المتشوف. إن حياة ستيف

المهنية الأكثر من مشرِّفة مردُّها فقط، دائما حسب فرانسواز، إلى أنه كان يلعق فرج الأم دولوز. ذلك ممكن، وإن كان مستغرَباً. بمنكبيها المربعين، وشعرها الرمادي المسنن كالمشط، ومسارها المهني الصارم في *الدراسات الجندرية*، كانت شانتال دولوز رئيسة جامعة باريس الثالثة - السوربون تبدو وكأنها سحاقية قحة متشبهة بالرجال، لكن ربما لم أكن على صواب، ربما كانت تحمل الضغينة للرجال الذين يتفوهون باستيهامات مهيمنة، ربما لأنها تُجْبِرُ ستيف، ذا الوجه الجميل والمسالم، وشعره الطويل بعض الشيء، الملولب والرقيق، على الركوع بين فخديها اللّفَاوَين، مما يمنحها كثيراً نشوة من نوع جديد. سواء كان ذلك الخبر صدقاً أو كذباً، لم أمنع نفسي من التفكير في الأمر، ذلك الصباح، في بهو قاعة الشاي بالمسجد الأكبر لباريس، وأنا أشاهده يرضع نارجيلته الشيشة المقرفة بنكهة التفاح.

كان حديثه، مثل العادة، يدور حول التعيينات وتطورات المسار المهني داخل الجامعة، ولا أظن أنه بادر من تلقاء نفسه أبداً بفتح موضوع غيره. كان الموضوع الذي يشغله ذلك الصباح هو تنصيب شخص يبلغ خمساً وعشرين سنة كأستاذ محاضر، ألّف أطروحةً عن لِيون بْلُوا Léon Bloy، كان على حد قوله «مرتبطاً بحركة التعصب لوحدة الهوية». أشعلت سيجارة لربح الوقت وأنا أريد أن أعرف ما شأنه بذلك. بل راودتني للحظة فكرة أن رجل اليسار الكامن بداخله قد قام من نومته، ثم أقنعت نفسي: رجل اليسار غارق في سباته داخل ستيف. ولن يستطيع حدث عديم القيمة من مثل الانزلاق السياسي للهيئات المسيرة للجامعة الفرنسية إخراجه من سباته. قال مواصلاً كلامه، ربما كانت تلك

إشارة، لاسيما أن عمّار رِزقي، المعروف بكتاباته عن مؤلِفين مناهضين للسامية في بداية القرن العشرين، قد تم تعيينه أستاذاً. ثم زاد بإصرار، إن مؤتمر رؤساء الجامعات انخرط منذ وقت قريب في عملية مقاطعة تبادل الخبرات مع الباحثين الإسرائيليين، وهي مقاطعةٌ بادرتْ إليها زمرة من الجامعات الإنجليزية.

مستغلاً تركيزه على شيشته، التي كانت تجذب بصعوبة، ألقيت نظرة خفية إلى ساعة معصمي ولاحظت أن الساعة لم تكد تتجاوز العاشرة والنصف، كان من الصعب علي أن أحتج باقتراب موعد درسي الثاني للانصراف، ثم خطرت لي فكرة أن أدفع النقاش من دون مجازفة كبيرة: منذ أسابيع قليلة عاد الحديث عن مشروع قديم بما لا يقل عن أربع أو خمس سنوات يخص بناء نسخة للسوربون في دبي (أو في البحرين؟ أو في قطر؟ كانت تلتبس عليَّ جميعاً). وهناك مشروع مشابه قيد الدرس مع أكسفورد، لعل قِدَم جامعتَيْنا أغرى ملكيةً بترولية ما. وفي هذا الأفق، الواعد حتماً بالفرص المالية الحقيقية بالنسبة إلى أستاذ محاضر شاب، ربما يعتزم المنافسة بإظهار مواقف معادية للسامية؟ وهل كان يظن أن من مصلحتي إعلان الموقف ذاته؟

صوبتُ نحو ستيف نظرة استفسار فيها قسوة - هذا الولد ينقصه الكثير من الذكاء، كان من السهل زعزعته ولنظرتي أثر سريع. «باعتبارك مختصاً في بْلوا»، قال متمتماً، «أنت تعرف بالتأكيد أشياء كثيرة عن هذا التيار المتعصب لوحدة الهوية، المعادي للسامية...» زفرتُ من تعبي: لم يكن بْلوا معادياً للسامية، ولستُ قطعاً مختصاً في بْلوا. طبعاً دعتني الظروف للحديث عنه، بمناسبة أبحاثي حول ويسمانس، وعقد مقارنة بين

استخدامهما للغة، في كتابي المنشور الوحيد، **دُوار الألفاظ المولَّدة.** - وهو بدون شك قمة جهودي الفكرية على هذه الأرض. والذي حظي في كل الأحوال بنقد رائع بمجلتَي شعرية ورومنسية، والذي أدين له على الأرجح بحصولي على درجة الأستاذية. وفي حقيقة الأمر، جزء كبير من الكلمات الغريبة التي نجدها عند ويسمانس ليست ألفاظاً مولدة، بل هي كلمات نادرة مأخوذة من المعجم الخاص ببعض التجمعات الحِرفية، أو من بعض اللهجات الجِهوية. لقد ظل ويسمانس، وتلك كانت أطروحتي، وفيّاً حتى النهاية لنزعته الطبيعية، مهتماً بإدماج الكلام المنطوق الحقيقي للشعب في كتاباته، وبل ربما ظل بمعنى ما ذلك الاشتراكي الذي كان يحضر في شبابه ليالي مِيدان عند زولا، واحتقاره المتزايد لليسار لم يحجب أبداً مقته البدائي للرأسمالية، والمال، وكل ما يمكن أن يقترن بالقيم البرجوازية، وبالجملة، كان ذلك الممثل الفريد لل-**طبيعوي المسيحي**، بينما كان بْلُوا متعطشاً على الدوام للنجاح التجاري أو وسط المجتمع، ولم يكن يسعى من وراء ألفاظه المولدة المطردة سوى إلى التفرد، وجعل نفسه بمثابة النور الروحاني المضطهَد، الذي لا يصل إليه الناس، لقد اختار انتداب موقع زهدي نخبوي في مجتمعه الأدبي إبان وقته، ولم يتوقف لاحقاً عن الاستغراب من فشله، ومن اللامبالاة المشروعة رغم ذلك التي كانت تلاقيها شتائمه. وكتب ويسمانس: «لقد كان رجلاً تعساً، واعتداده بنفسه جهنمياً بحق، وحقده لا يقدر ولا يحصى». من الوهلة الأولى، بدا لي بْلُوا كأنه النموذج المثالي **للكاثوليكي الرديء**، لا يزداد إيمانه ويتّقد حماسه حقاً إلا حينما يستطيع اعتبار مخاطبيه بأنهم مَلاعِين. ومع ذلك، حينما

كنت أكتب أطروحتي، تواصلتُ مع العديد من الدوائر الكاثوليكية - الملكية اليسارية، كانت ترفع بْلوا وبِرْنانُوس إلى مرتبة الإله، وتعدني بهذه الرسالة المخطوطة أو تلك، قبل أن أدرك أنها لم تكن تملك شيئاً، ولم يكن لديها قطعاً ما تمنحني، ولا وثيقة من تلك التي أستطيع الوصول إليها بنفسي بسهولة في الأرشيفات المفتوحة عادة في وجه الجمهور الجامعي.

«من المؤكد أنك تترصد شيئاً ما، اقرأ دْرِيمُون من جديد»، قلتُ مخاطباً ستيف، رغم ذلك، جبراً لخاطره في غالب الظن. نظر نحوي نظرة خاضعة وساذجة لطفل انتهازي. أمام باب قاعة دروسي - في ذلك اليوم الذي عزمت فيه الحديث عن جَانْ لُوران - كان هناك ثلاثة أشخاص في سن العشرين، عربيان وأفريقي أسود، يسدّون المدخل، هذا اليوم لم يكونوا مسلّحين، وبدا عليهم الهدوء أغلب الظن، لم يكن في موقفهم أدنى تهديد، ومع ذلك فإنهم كانوا يجبرون المرء على المرور عبر مجموعتهم لولوج القاعة، توجَّب عليَ حينها التدخل. توقفتُ قبالتهم: لابد أن لديهم بكل تأكيد أمراً بتفادي الاستفزازات، والتعامل باحترام مع أساتذة الكلية. هذا على الأقل ما تمنيته.

«أنا أستاذ بهذه الجامعة، يجب أن أقدم درسي الآن»، قلتُ بنبرة حازمة، مخاطباً الجماعة. كان الأسود هو الذي انبرى للرد عليَ، بابتسامة عريضة. «لا مشكلة، سيدي، لقد جئنا فقط لزيارة أخواتنا»، قال وهو يلوح صوب المدرج بإشارة مهدئة. وبخصوص الأخوات، لم يكن هناك سوى فتاتين تنحدران من المغرب العربي، تجلسان جنباً إلى جنب، في الجهة الأعلى من يسار المدرج، تلبس كل منهما برقعاً أسود، والعينان يحميهما

سياج، إجمالاً، لا تشوبهما أدنى شائبة. هذا ما ظهر لي. «وعليه، طيِّب، ها قد تمكنتم من رؤيتهما...»، ختمتُ بلطف، «الآن في وسعكم الانصراف»، قلتُ بإصرار. «لا مشكلة، سيدي»، أجابني بابتسامة عريضة أكثر من المرة الأولى، ثم دار على عقبيه، يتبعه الآخران اللذان لم ينبسا بكلمة واحدة. حينما ابتعد بثلاث خطوات، التفت نحوي. «السلام عليكم، سيدي...». قال وهو ينحني قليلاً. «مرت الأمور بسلام هذه المرة...» حدثتُ نفسي وأنا أغلق باب القاعة. لم أكن أعرف ما الذي ينتظرني بالضبط، إذ هناك شائعات بالاعتداء على أساتذة في كل من ميلوز، ستراسبورغ، إيكس مارسيليا وسانْ دُوني، لكن لم يحدث أبداً أن صادفتُ زميلاً تعرض للاعتداء، وفي الأصل، لم أصدق ذلك حقاً، وحسب ما قاله ستيف، فقد أُبرم اتفاق بين حركات السلفيين الشباب والسلطات الجامعية، دليله في ذلك أن الفتيان الأنذال وتجار المخدرات قد اختفوا تماماً، منذ عامين، من جوار الكلية. هل كان في الاتفاق بند يحرم دخول الكلية على المنظمات اليهودية؟ هنا أيضا كان الأمر مجرد خبر، يصعب التحقق منه، لكن الواقع أن اتحاد الطلبة اليهود في فرنسا لم تعد له تمثيلية، منذ الدخول الجامعي الفارط، في أي من مجمّعات الجهة الباريسية، بينما قطاع شبيبة الأخوة المسلمة قد تكاثرت فروعه، في كل مكان تقريباً.

(ما الذي قد يثير اهتمام العذراوين اللتين تلتحفان البرقع بخصوص جان لوران، ذلك اللوطي المقزز، الذي كان يعلن بنفسه أنه يحب أن يُحتوى؟ هل كان والد كل منهما على علم بما تتضمنه دراساتهما على وجه الضبط؟ كم يتحمل الأدب من أوزار!) عند خروجي من الدرس صادفتُ ماري فرانسواز التي أبدت فكرة أن نتناول وجبة الغذاء معاً. سوف يكون يومي بالتأكيد يوماً اجتماعياً.

كنتُ معجباً بسليطة اللسان العجوز المسلّية تلك، المتعطشة للنميمة حد التطرف؛ أقدميتها بصفتها أستاذة وموقعها داخل بعض المجالس الاستشارية، يزيدان من وزن ومحتوى نميمتها، أكثر من تلك الأخبار الشائعة التي قد تصل إلى ستيف التافه. اختارت مطعماً مغربياً يقع في زقاق مُونْج - وسوف يكون كذلك يوماً للأكل الحلال.

الأم دولوز تجلس على كرسي قابل للقذف، تصدّت تقول حينما كان النادل قادما يحمل أطباقنا. من المرجح جداً أن مجلس الجامعات الوطني، الذي سينعقد بداية شهر حزيران/ يونيو، هو مقدِم على تعيين روبير رديجير مكانها.

ألقيت نظرة خاطفة نحو طاجين الخروف بالخرشوف قبل أن أقدِم، من باب الحيطة، على الومأ بالحواجب عجباً. «أجل، أعرف» قالت، «قد يبدو الخطب جللاً، لم تعد مجرد إشاعات، لقد وصلتني أصداء دقيقة للغاية.»

اعتذرت للذهاب إلى المرحاض للتحقق من هاتفي الذكي، إن المرء ليجد حقاً أي شيء الآن على الإنترنت، وقادني بحث استغرق بالكاد دقيقتين إلى أن روبير رديجير بات مشهوراً بفضل مواقفه المساندة لفلسطين، وأنه كان من أبرز صناع قرار مقاطعة الجامعيين الإسرائيليين؛ غسلتُ يدي وعدت أدراجي حيث زميلتي.

لقد سمح الوقت لطاجيني بأن يبرد بعض الشيء، يا للأسف. «لن ينتظروا الانتخابات للقيام بذلك؟» سألتها بعد أن تذوقتُ أول لقمة، بدا لي ذلك سؤالاً وجيهاً.

«الانتخابات؟ الانتخابات، وما الداعي إليها؟ وهل قد تغير في الأمر شيئاً؟ الظاهر أن سؤالي لم يكن وجيهاً بكل ذلك القدر.

- طيّب، لا أدري، مع ذلك الانتخابات الرئاسية سوف تجري في غضون ثلاثة أسابيع...

- تعرف جيداً أن الأمر محتوم، الأمر سيكون أشبه بما حدث عام ٢٠١٧، وسوف تصل الجبهة الوطنية للدور الثاني وتتم إعادة انتخاب اليسار، لا أرى حقاً السبب الذي سيجعل ال-مجلس الوطني للجامعات يتكبد عناء انتظار الانتخابات.

- هناك نتيجة الأخُوة المسلمة، مهما يكن، التي تبقى طي المجهول، إذا تجاوزوا حاجز ٢٠٪ الرمزي، قد يؤثر ذلك في موازين القوى...» بالطبع كان هذا القول هراء، لأن ناخبي

الأخوة المسلمة سوف يصوتون بنسبة ٩٩٪ لصالح الحزب الاشتراكي، ولن يغير ذلك النتيجة بأي حال من الأحوال، لكن عبارة موازين القوى لها دائماً وزن في الأحاديث، ذلك يجعل من المرء يبدو وكأنه قارئ دؤوب لكْلُوسيفتش وصَانْ تْزوه، ثم لقد كنت سعيداً على قدر كاف بعبارة الحاجز الرمزي أيضاً وفي كل الأحوال، فإن ماري فرانسواز أومأت برأسها كما لو أني عبرت عن فكرة، ثم استغرقت طويلاً في عواقب المشاركة المحتملة للأخوة المسلمة في الحكومة على تركيبة الهيئات الجامعية المسيِّرة. ذكاؤها الجامع كان يعمل، لم أكن أنصت إليها حقاً بل كنتُ أتابع تعاقب الفرضيات على وجهها الحادّ والهرِم، يجب أن يهتم المرء بشيء ما في هذه الحياة، قلتُ محدّثاً نفسي، وتساءلتُ عمّا يسعني الاهتمام به إذا تحقق خروجي من الحياة الغرامية، أستطيع ربما متابعة دروس في علم صناعة الخمور أو جمع نماذج الطائرات المصغرة.

كانت الظهيرة المخصصة للأعمال التطبيقية متعِبة، وطلاب الدكتوراه متعِبون على العموم، بالنسبة إليهم كان ذلك يدل على بداية وجود رهان ما وبالنسبة إلي، لم يكن هناك قطعاً أي رهان، اللهم اختيار الطبق الهندي الذي سوف أسخنه عند المساء في الميكروويف (دجاج بيرياني؟ دجاج تيكامسالا؟ دجاج روغان جوش؟) وأنا أتابع السجال السياسي على قناة فرنسا الثانية.

ذلك المساء، تمثل الضيف في مرشحة الجبهة الوطنية، التي أكدت حبها لفرنسا (لكن أية فرنسا؟ يعارضها من دون أهمية تذكر معلقون من يسار الوسط)، كنت أتساءل إن كانت حياتي الغرامية

قد انتهت فعلاً، لم يكن ذلك مؤكداً في حقيقة الأمر، ارتأيت خلال قسط كبير من الليل مهاتفة مريم، كان يخيل إلي أنها لم تجد عني بديلاً، مرات كثيرة صادفتها في الكلية، وسددت نحوي نظرة يمكن وصفها بالنافذة، لكنها كانت دائماً تتمتع بنظرة نافذة في الحقيقة، حتى حينما كان يتعلق الأمر بالاتفاق على توقيت ظهيرة التسوق، ما كان ينبغي لي أن أركب رأسي، وربما من الأفضل الانخراط على الصعيد السياسي، لأن مناضلي التشكيلات المختلفة كانوا يحيون خلال هذه الفترة الانتخابية أوقاتاً مفعمة بالنشاط بينما كنتُ أذوي، بلا منازع.

«طوبى لمن هم راضون بما تهبهم الحياة، مَن يمرحون، من هُم سعداء»، هكذا يستهل مُوبّاسَان المقال الذي كتبه عن «القهقرى» في صحيفة جِيلْ بْلا. كان التاريخ الأدبي عموماً قاسياً تجاه المدرسة الطبيعية، وتم الترحيب بِويسمانس لأنه تخلص من سطوتها، ومع ذلك فإن مقال موباسان كان أشد عمقاً وبالغ الدقة من ذلك الذي كتبه بْلُوَا في الفترة نفسها بصحيفة القط الأسود. بل حتى اعتراضات زُولاَ، عندما نعيد قراءتها، تبدو بالأحرى معقولة؛ صحيح أن دِيزيسَانْت يظل من الناحية النفسية هو نفسه من أول صفحة إلى آخر صفحة في الرواية، إذ لا شيء يقع ولا يسعه أن يقع في هذا الكتاب، وأن سيْر الأحداث فيه منعدمٌ، بمعنى من المعاني؛ كما يصح أن ويسمانس لم يكن في وسعه بأي حال من الأحوال مواصلة كتابة القهقرى، وبأن هذا الكتاب - الرائعة كان بمثابة طريق مسدود؛ لكن أليست هذه حال كل الروائع؟ لم يكن في وسع ويسمانس، بعد كتاب من هذا القبيل، أن يظل طبيعوياً، وهذا ما أدركه زولا على وجه الخصوص، بينما

موباسان، الفنان بجرعة زائدة، كان يُقَدِّر بالدرجة الأولى الكتاب - الرائعة. بسطتُ هذه الأفكار في مقال موجز كتبتُه لأجل يومية أشياع القرن التاسع عشر، وقد جلب لي ذلك تسلية دامت أياماً معدودة، تسلية تفوق بكثير ما صنعته الحملة الانتخابية، إلا أنها لم تحجب عني إطلاقاً التفكير مجدداً في مريم.

لعلها كانت قوطية فاتنة صغيرة، أيام مراهقتها غير البعيدة، قبل أن تصير فتاة شابة رفيعة بالأحرى، شعرها الأسود ذو القصة القصيرة، بشرتها الناصعة البياض، وعيناها الدكناوتان؛ رفيعة لكنها شَهْوى باعتدال؛ وعلى الأخص، فإن بشائر شبقها المستتر كانت أكثر من واعدة. الحب عند الرجل لا يعدو كونه اعترافاً باللذة الممنوحة، ولم يسبق لأحد أبداً أن منحني ذلك القدر من اللذة مثلما فعلت مريم. كان في وسعها أن تقبض فرجها متى شاءت (تارة بلطف، بِضغط بطيء لا يقاوَم، وتارة أخرى بهزات خفيفة حيوية متمردة)؛ كانت تلوي إستها الصغير بأناقة لاحد لها قبل أن تهبه لي. أما مَصْمَصَتُها، فلم أشهد لها نظيراً أبداً. كانت تقبل على كل مصَّة كما لو كانت الأولى، وبأنها ستكون آخر واحدة في حياتها. كل مصمصة عندها كافية لتبرير حياة رجل.

انتهى بي المطاف أن اتصلت بها بعدما ترددتُ بضعة أيام مرة أخرى؛ اتفقنا على أن نلتقي المساء نفسه.

نواصل مخاطبة صويحباتنا القديمات برفع الكلفة، إنها العادة، لكننا نستبدل القُبلة بالبوسة. كانت مريم تلبس جُبَّة سوداء قصيرة وسروالاً لاصقاً، أسود أيضاً. دعوتها إلى البيت، لم أكن أرغب في الذهاب إلى المطعم، ألقت نظرة عُجب نحو الحجرة قبل أن تستقر في جلستها على الأريكة. كانت جبتها قصيرة حقاً كما أنها زيَّنت وجهها، سألتها إن كانت تستحب شرب شيء معين، كأس بُورْبُون إن كان لديك منه، قالت.

«لقد غيرتَ شيئاً ما. . .»، ابتلعت جرعة، «لكن لا أدري ما هو.

- الستائر.» كنتُ قد وضعتُ ستائر مبطنة بلون البرتقال والمغرة، ذات زخارف عِرقية شيئاً ما، واقتنيتُ كذلك قطعة قماش مناسبة للون، رميتها على الأريكة. استدارت، مقتعدة بركبتيها على الأريكة كي تفحص الستائر. «إنها ظريفة»، ختمتْ قائلة في آخر المطاف. »كنتَ دائماً صاحب ذوق. أقصد، بالنسبة لرجل ذكوري النزعة»، قالت ملاطِفة. وجلست من جديد على الأريكة حتى تواجهني.

- «لن تنزعج لو قلتُ إنك ذكوري النزعة؟

- لا أدري، ربما هذا صحيح، لعلي ذكوري النزعة بالتقريب؛ وفي الواقع، لم أقتنع أبداً بأنها فكرة صائبة تلك المتمثلة في أن تتمكن النساء من الانتخاب ومتابعة الدراسة أسوة بالرجال، والوصول إلى الوظائف نفسها، إلخ. أقصد، تعودنا على الأمر، لكن هل تلك فكرة صائبة، أصلاً؟».

زوت بين عينيها من دهشتها، ولبضع ثوانٍ خلت أنها كانت تتساءل بحق، وتبعاً لذلك، أنا أيضاً طرحت السؤال على نفسي لحظة وجيزة قبل أن أدرك أني لا أملك جواباً لهذا السؤال، كما لا أملكه لغيره.

«أنت مع عودة السلطة الأبوية، هو ذاك؟

- أنا لست مع أي شيء بتاتاً، تعلمين ذلك جيداً، لكن السلطة الأبوية كانت لها على الأقل ميزة الوجود، أقصد القول بصفتها نظاماً اجتماعياً كانت مثابِرة في كينونتها، كانت هناك أُسَر لها أطفال، تعيد في المجمل إنتاج الخطاطة نفسها، باختصار، كانت الأمور تسير؛ هنا لم يعد ما يكفي من الأطفال، إذاً الأمر محسوم.

- أجل، نظرياً أنت ذكوري النزعة، لاشك في ذلك. لكن ذوقك الأدبي رفيع: ملارمي، ويسمانس، بالطبع هذا ينأى بك عن الرجل ذي النزعة الذكورية المتأصل فيك. أضيف إلى ذلك إحساس أنثوي مرهف، غير عادي، نحو أثواب الأثاث. خلافاً لهذا، فإن لباسك يشبه دائماً لباس رجل أخرق، إن شخصية من شخصيات النزعة الذكورية الغرونج قد يكون لها قدر من المصداقية؛ لكنك لا تحب ZZ TOP، إذ كنتَ تفضل دوماً نيك دْراك Nick Drake. باختصار، أنت شخصية متناقضة».

سكبتُ لنفسي كأس بوربون من جديد قبل الرد عليها. غالباً ما يخفي الهجوم رغبةً في الإغراء، قرأت هذا عند بوريس سِريلْنِيك، إنه من العيار الثقيل، وبوريس سريلنيك شخص لا يمكن التحايل عليه، من الناحية النفسية، هو رجل على عِلم، إنه بمثابة كونراد لورنز بني البشر إلى حد ما. بالمناسبة، لقد فرجت قليلا ما بين فخذيها في انتظار جوابي، تلك كانت لغة الجسد، وكنا في صلب الواقع.

«ليس هناك أدنى تناقض، ذلك أنك تستعملين فحسب سيكولوجيا المجلات النسائية، وهي ليست سوى تصنيف للمستهلكين: السيد محب للبيئة المسؤول، السيدة المحبة للمظاهر، المترددة على النوادي المنفتحة على الشواذ، المهووس بالشيطان، المحب لفلسفة التكنو - زن، وفي المجمل، إنها تبتكر أسماء جديدة كل أسبوع. وأنا لا أتناسب على الفور مع صورة مصنفة للمستهلك، هذا كل ما في الأمر.

- هل من الممكن... بمناسبة ليلة لقائنا المتجدد، هل من الممكن أن نحاول قول أشياء لطيفة لبعضنا، ألا تعتقد ذلك؟»، هذه المرة كان في صوتها انكسارٌ أحرجني. «هل تشعرين بالجوع؟» سألتها بغية تبديد الضّيق، كلا، لم تكن جوعى لكن ينتهي المطاف بالمرء إلى أن يشعر بالجوع. «هل تريدين السوشي؟»، وافقت بالطبع، إن الناس يقبلون دائماً حينما يعرض عليهم السوشي، سواء منهم الذواقة الأشد تطلباً أو النساء اللائي يشغلهن هاجس الحرص على رشاقتهن، هناك ما يشبه إجماعاً عالمياً على هذا الجمع الفاقد للشكل بين السمك النيء والأرز الأبيض، كان في حوزتي طيّة موزِّع للسوشي وقراءتها مملة

أصلاً، إذ لا أفقه شيئاً في الواسابي الماكي والسلمون رُول، لا رغبة لدي في أن أفقه فيها شيئاً يذكر، اخترتُ قائمة وجبة طعام جامعة B3 واتصلتُ هاتفياً للطلب، ربما كان يجدر بي الذهاب إلى المطعم بعد إمعان تفكير، بعد ان أقفلت السّمّاعة، شغلت موسيقى نيك دراك. عقب ذلك صمت طويل قطعته بسذاجة حينما سألتها عن أحوال دراستها. نظرت نحوي معاتبة قبل الرد بأنها على ما يرام، وبأنها تفكر في إعداد رسالة ماجستير حول مجال النشر. بارتياح استطعت تغيير دفة الحديث نحو موضوع ذي طابع عام، وهو بالمناسبة يتماشى ومشروعها المهني: بينما يواصل الاقتصاد الفرنسي انهياره في قطاعات كاملة، فإن سوق النشر كانت مزدهرة، وتذر أرباحاً متنامية، بل وهذا مثير للدهشة، كأن الناس من شدة يأسهم لم يفضل لهم سوى القراءة.

«أنت أيضاً، لا يبدو أن الأمور عندك على ما يرام. هذا هو الشعور الذي خلفته لدي عنك دوماً، بكل صدق...» قالت دون عداء، وإنما بأسى. ليس في الوسع الرد على الأمر. من الصعب غلب ذلك بالحجة.

«هل كنتُ أبدو مكتئباً بكل ذلك القدر؟» سألتها بعد أن خيّم الصمت من جديد.

- كلا، مكتئب كلا، لكن بمعنى ما الأمر أسوأ من ذلك، لطالما تميزت بنوع من الصدق غير المعتاد، وعجز عن تقديم تلك التنازلات التي تسمح للناس بالعيش، في نهاية المطاف. مثلاً، لنفترض أنك على صواب في ما يخص الحكم الأبوي، وبأنه الصيغة الوحيدة القابلة للتطبيق. لكن هذا لا يمنع أني تابعت

دراساتي، وأني تعودت على اعتبار نفسي شخصاً فرداً، يتمتع بالقدرة على التفكير واتخاذ القرار مساوية للتي عند الرجل، إذاً ماذا يجب أن يُصنع بي الآن؟ هل أنا صالحة للنبذ فقط؟».

الجواب السليم كان على الأرجح هو «نعم»، إلا أني لزمتُ الصمت. لم أكن بكل ذلك القدر من الصدق إن حقق امرؤ. ما زال السوشي لم يصل بعد. سكبتُ لنفسي كأساً من البوربون، وهي الكأس الثالثة أصلاً. واصل نِيك دْراك ذكر الفتيات الكواعب الطاهرات، أميرات الزمن الغابر. لم تراودني الرغبة في جعلها تحمل مني، ولا اقتسام المَهام، ولا اقتناء حمَّالة الرُضّع الكنغرية، بل لم تكن لدي حتى الرغبة في مضاجعتها، أقصد، كانت لدي رغبة قليلة في مضاجعتها، مع رغبة قليلة في الموت أيضاً، في الوقت نفسه، لم أعد أعرف بالتحديد في مجمل الأمر، أخذت أشعر بالغثيان يغمرني شيئاً فشيئاً، ماذا يفعلون في سوشي السريع الخراء ذاك؟ كان يجب علي أن أطلب منها أن تمص ذكري، في تلك اللحظة بالضبط، ربما منح ذلك فرصة جديدة لعلاقتنا الثنائية، لكني تركتُ القلق يستقر ويتصاعد ثانية تلو أخرى.

«طيّب، ربما من الأفضل أن أنصرف. . .» قالت بعد صمتٍ دام ثلاث دقائق على الأقل. كان نيك دراك قد أنهى للتو بكائياته، ويكاد ينتقل إلى شطحات النِّرْفانا، قطعت حبل الصوت قبل أن أرد عليها: «لو أحببتِ. . .»

«أنا متأسفة، متأسفة حقاً أنك بلغتَ هذا الحد، فرانسوا»، قالت لي عند المدخل، كانت قد لبست معطفها أصلاً، «كان في نيتي أن أصنع شيئاً، لكني لا أدري ما هو، إنك لا تترك لي أدنى

فرصة»، تبادلنا قبلة على الخد من جديد، لم تخامرني فكرة أننا سوف نستطيع تجاوز الأمر.

وصل السوشي دقائق معدودة بعد انصرافها. كان هناك الكثير منه.

II

بعد انصراف مريم، بقيت وحيداً لأكثر من أسبوع: للمرة الأولى منذ تنصيبي أستاذاً شعرتُ أني عاجز عن إلقاء دروسي الموافقة ليوم الأربعاء. تمثل أوج عطائي الفكري في كتابة أطروحتي ونشر كتابي؛ كل ذلك يرقى أصلاً إلى أكثر من عشرة أعوام. أوج عطائي الفكري؟ أوج فحسب؟ في ذلك الإبّان، كنت أشعر أن هناك ما يبرر وجودي. في تلك الفترة اكتفيتُ بكتابة مقالات موجزة ليومية أشياع القرن التاسع عشر، وأحياناً، وذلك نادر جداً، للمجلة الأدبية، عندما كان الحدث يناسب مجال خبرتي. كانت مقالاتي منقحة، جازمة وساطعة؛ وكانت تلقى استحساناً، على العموم، لا سيما أني لم أتأخر أبداً عن مواعيد التسليم. لكن هل كان ذلك كافياً لتبرير حياة المرء؟ وما الذي يجعل حياة ما في حاجة إلى تبرير؟ إن الحيوانات كافة، والغالبية العظمى من بني البشر يعيشون دون الإحساس أبداً بأدنى حاجة إلى تبرير. إنهم يعيشون لأنهم يعيشون، وهذا كل ما في الأمر. هكذا يفكرون؛ ثم أظن أنهم يموتون لأنهم يموتون، وأن ذلك في نظرهم، يضع نهاية للتحليل. على الأقل بصفتي مختصاً في

ويسمانس، كنتُ أشعر أني مجبَر على القيام بأكثر من هذا ولو بقليل.

حينما يسألني طلاب الدكتوراه عن الترتيب الذي ينبغي اتباعه عند مقاربة أعمال مؤلف ما عقدوا العزم على أن يخصوه بأطروحتهم، جوابي لهم في كل مرة هو الأخذ بالترتيب الزمني، ليس لأن حياة المؤلف لها أهمية حقيقية، بل بالأحرى لأن تسلسل كتبه هو الذي رسم لنا ما يشبه السيرة الذهنية التي تمتلك منطقها الخاص. في حال جوريس كارل ويسمانس، كان من البديهي أن يطرح المشكل بحدة بالغة، في ما يخص **القهقرى**، كيف يسع المرء، حينما يكون قد ألّف كتاباً بذلك القدر من الفرادة، الذي لا مثيل له في الأدب العالمي، كيف يسعه مواصلة الكتابة؟

أول جواب يتبادر إلى الذهن هو بالتأكيد: بأقصى صعوبة ممكنة. وهذا بالفعل ما نرصده في حال ويسمانس، إذ إن كتاب **المنبوذ** الذي يلي **القهقرى** هو كتاب مخيّب للآمال، وليس في وسعه أن يكون غير ذلك؛ إذا كان الانطباع السلبي والإحساس بالثبات، والانحسار البطيء لا تقصي تماماً لذة القراءة، فذلك لأن المؤلف استعان بفكرة نيّرة: أن يقص، في كتاب محكوم عليه بأن يكون مخيباً للآمال، قصةَ خيبة أمل. هكذا، فإن الانسجام بين الموضوع وبسطه حظي بالقبول الجمالي، باختصار، إن المرء يتضجر قليلاً، لكنه يواصل القراءة بينما ندرك ملياً أن الشخصيات ليست وحدها المنبوذة أثناء مقامها المفجع في الرّيف، وإنما ويسمانس بدوره يشعر بذلك. ونكاد نشعر بأنه يريد العودة إلى النزعة الطبيعية (نزعة الريف الطبيعية المنفّرة، حيث يبدو

المزارعون أشد دناءة وشرَهاً من الباريسيين) لولا حكايات الأحلام تلك التي تتخلل الحكاية وتجعلها غير قابلة للتصنيف وبشعة نهائياً.

وما يسمح لويسمانس، في نهاية المطاف، بأن يخرج من الطريق المسدود، بداية من الرواية التالية، هو تلك الصيغة البسيطة المجرَّبة: اعتماد شخصية مركزية ناطقة باسم المؤلف، سوف يتابع القراء تطورها عبر كتبٍ عديدة. لقد بسطتُ كل هذا بوضوح في أطروحتي؛ الصعوبات التي اعترضتني بدأت في ما بعد، لأن المحور المركزي في تطور دُورال (وتطور ويسمانس نفسه) من رواية **هنالك**، حيث بصفحاتها الأولى أعلن فراقه مع النزعة الطبيعية إلى رواية **السّادن** مرورا بكتابه **في الطريق والكاتدرائية**، كان ذلك يعبّر عن اعتناقه للكاثوليكية.

ليس من السهل بداهة، بالنسبة إلى شخص ملحد، الحديث عن مجموعة من الكتب موضوعها الرئيسي هو اعتناق معتقد جديد؛ وبالمثل، لو افترضنا شخصاً لم يسبق له أبداً أن عشق امرأة في حياته، وأن هذا الإحساس أمر غريب بالنسبة إليه تماماً، فإنه سيكون من الصعب عليه بكل تأكيد الاهتمام برواية موضوعها يدور حول هذا الشغف. في غياب التزام عاطفي حقيقي، فإن الشعور الذي فرض نفسه شيئاً فشيئاً على الملحد في مواجهة مغامرات دُورال الروحية، ومواجهة تلك الحركات المتعاقبة بين مدّ وجزر للمغفرة التي تشكل حبكة روايات ويسمانس الثلاث الأخيرة، ذلك الشعور هو الضجر، مع الأسف.

في هذه اللحظة من تأملاتي (كنتُ قد استيقظت للتو ومستغرقاً في شرب فنجان القهوة بانتظار أن يطلع النهار)، خطرت بذهني

فكرة قبيحة للغاية: مثلما أن القهقرى شكّلت أوج حياة ويسمانس الأدبية، فإن مريم كانت دون شك هي أوج حياتي الغرامية. كيف لي أن أتجاوز فقدان محبوبتي؟ الواضح أن الجواب هو أن لا سبيل إلى ذلك.

في انتظار الموت، بقي لي يومية أشباع القرن التاسع عشر، الاجتماع الموالي كان سوف يعقد في غضون أقل من أسبوع. كانت هناك أيضاً الحملة الانتخابية. الكثير من الرجال يهتم بالسياسة وبالحرب، لكني لم أكن أستحسن كثيراً مصادر التسلية هذه، وأشعر أن درايتي بالسياسة تعادل دراية مِنْظَفَة. وتلك خسارة من دون شك. صحيح أن الانتخابات في فترة شبابي كانت لا تثير الاهتمام بكل ذلك القدر؛ بل إن رداءة «العرض السياسي» كان فيها ما يصيب بالدهشة. يجري انتخاب مرشح من اليسار الوسط، لفترة انتخابية أو اثنتين حسب كارزميته الفردية، وتمنعه أسباب غامضة من خوض فترة ثالثة؛ ثم تتضجر الساكنة من هذا المرشح وبصفة عامة من اليسار الوسط، وتبرز للعيان ظاهرة التناوب الديمقراطي، ويقوم الناخبون بحمل مرشح من اليسار الوسط إلى الحكم، هو كذلك لفترة أو فترتين، حسب طبعه الخاص. والعجيب أن البلدان الغربية كانت تفتخر كثيراً بهذا النظام الانتخابي الذي لم يكن البتة سوى اقتسام للسلطة بين عصابتين متناحرتين، بل كان يصل بهما الحد إلى إشعال فتيل الحروب بغية فرضه على بلدان لا تقاسمهم حماسهم له.

لقد جعل تقدم اليمين منذ ذلك الحين الأمر أشد إثارة بعد أن دبَّت في النقاشات رعشة الفاشية المنسية؛ لكن لم تشرع الأمور

في التغير حقاً إلا في العام ٢٠١٧، مع الدور الثاني من الرئاسية.
لقد قُدِّر للصحافة العالمية، ذاهلة، أن تعاين هذا المشهد المخزي، لكن الذي لا مفر منه حسابياً، مشهد إعادة انتخاب رئيس من اليسار في بلد يميني أكثر فأكثر بكل صراحة. خلال الأسابيع المعدودة التي أعقبت الاقتراع عمَّ في البلاد جوٌّ غريب، قاهر. كان أشبه بيأس خانق، قاطع، لكن تتخلله هنا وهناك بوارقُ عصيانٍ، كثيرون هم الذين اختاروا حينها الترحال، بعد انصرام شهر على نتائج الدور الثاني، أعلن محمد بن عباس عن ميلاد الأخوة المسلمة، ولقد فشلت بسرعة أول محاولة لإرساء إسلام سياسي، حزب مسلمي فرنسا، بسبب الموقف المعادي للسامية المحرج المتبنى من طرف زعيمه، الذي قاده إلى عقد صلاتٍ مع اليمين المتطرف. بعد استخلاص العِبَر من هذا الفشل، حرص الأخوة المسلمة على التشبث بموقع معتدل، حيث كان يساند القضية الفلسطينية باعتدال، وربط علاقات ودية مع السلطات الدينية اليهودية. وعلى غرار الأحزاب الإسلامية النشيطة في البلدان العربية، وهذا نموذج صار عليه في ما قبل الحزب الشيوعي بفرنسا، فإن العمل السياسي المحض كانت تشرف عليه شبكة كثيفة من حركات الشبيبة والمؤسسات والجمعيات الخيرية.
في بلد يزداد فيه بؤس الجماهير على نحو محتوم، عاماً بعد عام، فإن سياسة التشبيك هذه قد أتت أُكلها، وسمحت للأخوة المسلمة بتوسيع قاعدة جمهورها أبعد من الإطار الدعوي الصرف، بل إن النجاح كان كاسحاً. في الاستطلاعات الأخيرة، هذا الحزب الذي خرج للوجود منذ خمس سنوات فقط حاز ٢١٪ من نوايا التصويت، وهو بذلك يسير في أثر الحزب الاشتراكي، الحائز

على ٢٣٪، أما اليمين التقليدي فقد تمثل أقصى ما سجله في ١٤٪، والجبهة الفرنسية التي ظلت وبكثير الحزب الفرنسي الأول، بحصيلة ٣٢٪.

منذ سنوات معدودة صار دافيد بُوجَاداسْ بمثابة أيقونة، فهو لم يكتف بولوج «الحلقة الضيقة» للصحافيين السياسيين (كوطا، القباج، ديهاميل وآخرين) الذين تم اعتبارهم في تاريخ الإعلام أصحاب مستوى كافٍ لتحكيم مناظرة رئاسية تجرى بين دَوْرَين. لقد فاق كل سابقيه بفضل صرامته الحذقة، وهدوئه، وخاصة قدرته على تجاهل الشتائم، وإعادة المواجهات التي تنحرف إلى مجراها الطبيعي، وجعلها تظهر بمظهر مجابهة جديرة بالاحترام وديمقراطية. وقد أوكلته مرشحة الجبهة الوطنية، وكذلك مرشح الأخوة المسلمة، أمر إدارة حوارهما، وهو بالتأكيد الحوار المنتظر أكثر من كل الحوارات التي سبقت الدور الأول، إذ لو أن مرشح الأخوة المسلمة، المتقدم بثبات في الاستطلاعات منذ بدئه الحملة، توصل إلى تجاوز مرشح الحزب الاشتراكي، سوف نكون أمام دور ثانٍ غير مسبوق على الإطلاق، والذي لم تُحسَم نتيجته. إن المتعاطفين مع اليسار، رغم نداءات متكررة بنبرة متوعدة أكثر فأكثر، من خلال صحفهم اليومية والأسبوعية، لزموا التحفظ في منح أصواتهم لمرشح مسلم، أما المتعاطفون مع اليمين، وهم في كثرة مزايدة، فقد بدا أنهم رغم المطالب الصارمة لزعمائهم، كانوا مستعدين لتخطي العقبة، والتصويت في الدور الثاني للمرشحة «الوطنية». وبالتالي كانت هذه الأخيرة تجازف بقسط كبير - لا ريب أنه أكبر قسط في حياتها.

جرت المناظرة ذات أربعاء. وزاد ذلك من صعوبة الأمر؛ عشية ذلك اليوم، كنتُ قد اقتنيتُ مجموعة متنوعة من الأطباق الهندية القابلة للميكرووايف وثلاث زجاجات من النبيذ الأحمر العادي. استقرت كتل هوائية من الضغط الجوي المرتفع لمدة طويلة بين المَجَر وبُولُونيا، مانعة المنخفض المتجه صوب الجزر البريطانية من التقدم نحو الجنوب؛ واستقر في عموم أوروبا القارية جوّ بارد وجافّ على غير العادة. ولم يتوقف طلابي في قسم الدكتوراه عن إزعاجي أثناء النهار بطرح أسئلة تبعث على الكسل من قبيل: لماذا تم اعتبار الشعراء الصغار (موريباس، كوربيير، إلخ) صغاراً، وما الذي كان يمنع من النظر إليهم على أنهم كبار (بودلير، رامبو، ملارمي، للإيجاز؛ بعد ذلك يتم القفز إلى بروتون). لم تكن أسئلتهم غير ذات أهمية، على العكس تماماً، الأمر يتعلق بطالبين اثنين في قسم الدكتوراه، هزيلان، فظّان، أحدهما كان ينوي تقديم أطروحة عن كروس، والثاني عن كوربيير، لكن في الوقت نفسه، لم تكن لديهما، الرغبة في الاستعجال، إذ لحظتُ ذلك جيداً، كانا ينتظران جوابي بصفتي ممثلاً للمؤسسة. وللتخلص منهما، نصحتهما بالشاعر لافورغ، صاحب المرتبة الوسط.

أثناء المناظرة، تعثرت كثيراً، أقصد أن الميكرووايف هو ما تعثر على الخصوص، لقد أدمج وظيفة جديدة (حيث دار بكل ما فيه من سرعة، لا يكاد يسمع له صوت، ومع ذلك لم يسخن الطعام) مما جعلني أكمل طهي معلباتي الهندية في المقلاة، ولم أتابع قسطاً كبيراً من الحُجج المتبادلة. لكن بالنسبة لما قُيِّض لي متابعته فقد مرَّت الأمور على وجه حسن مبالغ فيه تقريباً.

فالمرشحان الاثنان لمنصب الرئاسة أكثرا من علامات التقدير المتبادل وعبّرا تباعاً عن حبهما الكبير لفرنسا، وكانا يُشعران المرء أنهما تقريباً على وفاق في ما يخص كل شيء. ورغم ذلك، في الوقت نفسه، اندلعت مواجهات في مُونْفِرمَاي بين نشطاء من اليمين المتطرف ومجموعة من الشباب الأفارقة الذين لم يكن لهم أي انتماء سياسي - وقبل ذلك بأسبوع وقعت أحداث متفرقة فوق تراب البلدية. وفي اليوم الموالي، أعلن موقع إلكتروني متعصب للهوية الواحدة أن المواجهات اتسمت بعنف شديد، وتم إحصاء الكثير من القتلى - لكن وزارة الداخلية كذّبت الخبر على الفور. ومثل كل مرة، قامت زعيمة الجبهة الوطنية وزعيم الأخوة المسلمة، كلٌ على حدة، بنشر بيان صحافي يعلنان فيه عن إدانتهما الشديدة لهذه الانزلاقات الإجرامية. وكانت وسائل الإعلام قد قامت، قبل عامين، بعرض بعض التحقيقات الصادمة، حينما اندلعت أول مواجهات مسلّحة، لكن الآن خفّ الحديث عنها أكثر فأكثر، وبدا أن كل ذلك صار مبتذلاً. خلال أعوام كثيرة، ولاشك خلال عشرات الأعوام، فإن صحيفة لوموند، وبصفة عامة أكثر من صحف اليسار الوسط، أي في حقيقة الأمر كل الصحف، ندّدت ب-«المنذرين» الذين يتنبؤون بنشوب حرب أهلية بين المهاجرين المسلمين وسكان أوروبا الغربية الأصليين. ومثلما فسّر لي ذلك واحد من زملائي الذي يدرس الأدب اليوناني، فإن استعمال أسطورة كاسَانْدرا المنذرة استعمال مثير للاستغراب حقيقة. في علم الأساطير اليونانية، تبدو كاساندرا أول الأمر بوصفها فتاة جميلة جداً تشبه «أفروديت التفاحة الذهبيّة» مثلما كتب هوميروس ذلك. حينما أُغرِمَ أبُولُون بها، وَهَبها القدرة

على التنبؤ، مقابل أن يلهو معها مستقبلاً. وافقت كاساندرا على الهِبة لكنها أعرضت عن الإله أبولون الذي بصق في فمها من شدة غضبه عليها، وقد منعها ذلك طول الدهر من أن يفهم الناس قصدها ومن أن يصدق كلامها أي كان. وهكذا تنبأت على التوالي باختطاف هيلانة من طرف باريس ثم اندلاع حرب طروادة، كذلك حذرت أبناء وطنها من الخدعة اليونانية («حصان طروادة» الذائع الصيت)، التي سمحت بالظفر بالمدينة. وقد لقيت حتفها على يد كُليتَمْنِستْر، بعد أن تنبأت بمقتله وكذا مقتل أغاممنون الذي رفض تصديقها. وبالجملة، فإن كاساندرا كانت تعد مثالاً للتنبؤات المتشائمة التي تتحقق على الدوام، وظهر ملياً، بالنظر إلى الوقائع، أن صحافيي يسار الوسط لا يفعلون شيئاً سوى تكرار غباوة أهل طروادة. ومثل هده الغباوة لم تكن غير مسبوقة من منظور تاريخي: وفي استطاعتنا أن نجد الغباوة نفسها عند أهل الثقافة والسياسة والصحافة في الثلاثينيات من القرن العشرين الذين أجمعوا في اعتقادهم بأن هتلر سوف «ينتهي به المطاف إلى العودة لجادة الصواب». من المستحيل، على نحو راجح، بالنسبة لأشخاص عاشوا وتكاثروا داخل نظام اجتماعي معيّن، تصوُّرُ وجهة نظر مَن لم يتوقعوا أي شيء أبداً من ذلك النظام، ويسعون إلى تدميره من دون أية خشية.

لكن بكل صدق، منذ أشْهُر معدودة، تبَدَّل موقف وسائل إعلام يسار الوسط: كفَّ الحديث تماماً عن العنف في الضواحي، والمواجهات العِرقية، وصار المشكل مسكوتاً عنه بكل بساطة، بل تم التوقف عن التنديد بـ«شبيهات كاساندرا» التي انتهى بها المطاف إلى التزام الصمت هي الأخرى، ويبدو بصفة

عامة أن الناس ضجروا من سماع تداول هذا الموضوع؛ وفي الوسط الذي كنتُ أرتاده، تسرب الضجر مبكراً أكثر منه في أي مكان غيره؛ سوف يقع «ما هو مقدر له أن يقع»، هذا ما يمكن أن نلخص به الشعور العام. وحينما ذهبت في اليوم الموالي بغية حضور الكوكتيل الدوري ليومية أشباع القرن التاسع عشر، كنتُ أعرف أصلاً أن مواجهات مونفرماي لن تثير تعليقات كثيرة، والأمر كذلك بالنسبة للنقاشات الأخيرة التي تسبق الدور الأول من الرئاسيات، وبدرجة أقل بكثير التعيينات الجامعية الحديثة العهد. لقد جرت ليلة السّمر بزقاق شابتال، بمتحف الحياة الرومنسية، الذي تم استئجاره للمناسبة.

أحببت على الدوام ساحة سان جورج، وواجهاتها المنتسبة بلطف إلى «الزمن الجميل» مطلع القرن العشرين، وكنتُ أقف لحظات معدودة قبالة تمثال كفارني النصفي، ثم أصعد زقاق نوتردام دولوريت، ثم زقاق شابتال. بالرقم ١٦ ينفتح ممر معبَّد قصير، تحفُّه الأشجار، يؤدي إلى المتحف.

كان الجو لطيفاً، وقد فتح البابان واسعاً على الحديقة، تناولت كأس شمبانيا، قبل التجول بين شجيرات الزيزفون، وبسرعة لمحتُ أَلِيسْ، أستاذة محاضرة بجامعة ليون الثالثة، متخصصة في الشاعر نِرْفال، لَبْسَتُها ذات النسيج الخفيف، مزيَّنة بأزهار ناصعة، كانت من دون شك ما يسمى لبسة الكوكتيل، والفروق بين لبسة الكوكتيل ولبسة ليل السَّهر تغيب عني شيئاً ما في الحقيقة، لكني كنتُ على يقين بأن أَلِيس في جميع الظروف ترتدي اللبسة المناسبة، وبصفة عامة تأتي السلوك المناسب، كانت رُفْقَتُها تبعث على الارتياح، لذلك لم أتردد في توجيه التحية إليها وإن كانت حينها في حديث مع شخص شاب له وجه حاد التقاسيم، وبشرة شديدة البياض، يلبس سترة بليزر زرقاء يغطي بها قميصاً قصيراً لفريق باريس سان جرمان، ينتعل خُفّاً أحمر قانياً،

وكان في مجمل لباسه ما يكفي من الأناقة على نحو مستغرَب: عرَّف نفسه إلي بأنه يسمى كودفرا لومبرور.

«أنا واحد من زملائك الجدد. . .» قال وهو يستدير نحوي، لحظتُ أنه يمسك كأس ويسكي خالص، «تم تعييني للتو بجامعة باريس الثالثة.

- أجل، لقد علمت بخبر تعيينك، أنت مختص في بْلُوا، أليس كذلك؟

- إن فرانسوا يكره بْلُوا على الدوام» قالت أليس باستخفاف، «أقصد بوصفه مختصا في ويسمانس، فهو مساند للطرف الأخر طبعاً.»

التفت لومبرور صوبي مبتسماً بحرارة مباغتة، قائلاً بسرعة: «أنا أعرفك بالطبع. . . إني أقدر كثيراً عملك حول ويسمانس»، ثم خيَّمت لحظة من الصمت، وهو يبحث عن الكلمات المناسبة، دون أن يكف عن النظر إلي بشدة، ومن شدة ما أبّد بصره، عنَّ لي أنه لا بد واضع مساحيق على وجهه، أو على الأقل أبرز أهدابه بمسحة من صبغة المَاسْكارا، وشعرتُ في تلك اللحظة أنه سوف يخبرني بأشياء مهمة. كانت أليس تصوب نحونا تلك النظرة العطوف والساخرة شيئاً ما في نفس الآن التي توجهها النساء وهن يتابعن حديثاً يدور بين رجلين، ذلك الشيء الغريب الذي يبدو أنه يتأرجح دائماً بين اللّواط والمبارزة. هبَّت ريح قوية بما يكفي تحركت لها أغصان شجرة الزيزفون فوق رؤوسنا. في تلك الآونة، تناهى إلى سمعي من بعيد، وعلى نحو ملتبس، صوت مكتوم، يشبه صوت انفجار.

«إنه أمر عجِيب»، قال لومبرور في نهاية المطاف، «كم أن

المرء يبقى على مقربة من الكُتّاب الذين شُغِل بهم بداية حياته. قد نظن، بعد قرن أو قرنين من الزمان، أن الأهواء قد خبت نيرانها، وأننا بوصفنا جامعيين نصل إلى نوع من الموضوعية الأدبية، إلخ. ويا للعجب، لا شيء يحدث من ذلك بتاتاً. ويسمانس، زولا، بارِبِي، بْلُوا، كل هؤلاء عرفوا بعضهم، كانت بينهم علاقات صداقة أو حقد، تحالفوا، وتخاصموا، إن تاريخ علاقاتهم هو تاريخ الأدب الفرنسي؛ ونحن بفارق أكثر من قرن، نعيد إنتاج العلاقات نفسها، نظل دائماً أوفياء للبطل الذي كان بطلنا، ونظل من أجله على استعداد لأن نحب أو نخاصم بعضنا، وأن نتعارك فيما بيننا، سلاحنا في ذلك مقالاتنا.

- أنتم على صواب، لكن هذا أمر مستحسن. يبيّن على الأقل أن الأدب شأن جادّ.

- لم يخاصم أحدٌ نرفال المسكين أبداً. . . » قالت أليس، لكن أعتقد أن لومبرور لم يسمعها حتى، وتابع تحديقه فيَّ بشدة، وكأنه غارق في خطابه الذي يخصه.

«لطالما كنتَ شخصاً جادّاً»، قال مستأنفاً كلامه، «لقد قرأتُ جميع مقالاتك في اليومية. وهذه ليست حالي، كنتُ مفتوناً بالكاتب بْلُوا وأنا في سن العشرين، مفتون بعناده، وعنفه، وبراعته في الإذلال وفي الشتيمة؛ لكن كان الأمر كذلك، وبكثير، ظاهرة تتعلق بما درج عليه الناس. بْلُوا، كان هو السلاح المطلق ضد القرن العشرين برداءته وسخفه الملتزم، ونزعته الإنسانوية اللَّزجة؛ ضد سارتر، ضد كامي، ضد جميع مهرجي الالتزام؛ وضد أولئك الشكلانيين أيضاً الذين يبعثون على الغثيان، والرواية الجديدة، كل هذه السخافات التي لا طائل تحتها. طيب، أبلغ

من العمر خمسة وعشرين عاماً الآن: وما أزال لا أحب سارتر، وكامي، ولا أي شيء كيفما كان جنسه يشبه الرواية الجديدة؛ لكن براعة بْلُوا أضحت شاقة، وعلي الإقرار أن البعد الروحي والقدسي الذي يتلذذ به لم يعد يذكرني بأي شيء تقريباً. الآن أجد متعة أكبر في إعادة قراءة موباسان أو فلوبير - بل حتى زولا، أقصد بعض الصفحات عنده. وبطبيعة الحال، ويسمانس المُعْجِب...».

كان لديه طابَع مثقف يميني مُغري بما فيه الكفاية، وهذا سيضمن له ميزة صغيرة في الكلية. يمكن أن نترك الناس يتحدثون طويلاً بما لا يزيد عن السعة، إلا أن اهتمامهم يظل منصبّاً على خطابهم هم، لكن ينبغي مع ذلك بين الفينة والأخرى الدفع بالحديث إلى الأمام، قليلاً ما. ألقيت نظرة لا أوهام فيها صوب أليس، كنتُ أعلم أن تلك الحقبة لا تعنيها بتاتاً، لأنها كانت إلى حد أقصى Frühromantik (ما قبل رومانسية). كدتُ أسأل لومبرور: «هل أنت بالأحرى مناصر للكاثوليكية؟ للفاشية؟ أو خليط من الاثنين؟» لكني أحجمت عن الأمر. الظاهر أن حبل التواصل انقطع بيني وبين مثقفي اليمين، لم أعد أعرف بتاتاً كيف ينبغي لي التصرف. من بعيد، تناهى إلى مسامعنا بغتة ما يشبه فرقعة ممتدة. «ما هذا، هل تظنان ما أظن؟» سألتْ أليس. «كأنها طلقات نارية...»، أضافت بنبرة مترددة. لزمنا الصمت في الحال، وأدركتُ أن كل الأحاديث في الحديقة قد توقفت، ومن جديد يُسمع حفيف الريح في الأوراق، وخطى خفية على الحصى، الكثير من الضيوف كانوا يغادرون القاعة حيث الكوكتيل ويتقدمون بتؤدة بين الأشجار، منتظرين. مرَّ بالقرب مني أستاذان بجامعة مونبليي، قام كل منهما بتشغيل هاتفه الذكي ممسكاً به

على نحو غريب، موجهاً شاشته أفقياً، كأنها عصا ساحر. «أليس هناك شيء. . .» همس أحدهما برعب. «إنهم يتابعون دائماً قمة العشرين G20». إن كان يخيل إليهما أن القنوات الإخبارية سوف تقوم بتغطية الحدث، فإنهما واهمان، قلت محدثاً نفسي، لا اليوم ولا أمس في مونفرماي، التعتيم الشامل.

«إنها المرة الأولى التي تسمع فيها فرقعة في باريس»، لاحظ لومبرور بنبرة محايدة. في الآن نفسه، سُمع من جديد أصوات إطلاق نار، هذه المرة واضحة جداً، وكانت تبدو قريبة، ثم انفجار قوي جداً. التفت الضيوف جميعهم نحو ذلك الاتجاه. كان عمود من دخان يعلو في السماء فوق البنايات؛ لا بد أن ذلك آت تقريباً من ساحة كليشي.

«طيب، أظن أن حفلنا الصغير سوف ينتهي مبكراً. . .» قالت أليس باستخفاف. وبالفعل، الكثير من الضيوف كان يحاول الاتصال عبر الهاتف؛ وشرع بعضهم في التوجه نحو المخرج، لكن ببطء، في دُفُعَات متفرقة، وكأنهم يظهرون رباطة جأشهم، وأنهم لا يستسلمون بتاتاً لِهبَّة ذعر.

تفضّل علينا لومبرور بأن قال: «يمكن لنا مواصلة الحديث في بيتي، إن أحببتما. أنا أقيم بزقاق الكاردينال ميرسيي، الذي يقع على بعد خطوات من مكاننا هذا.

– لديَّ درس غداً بمدينة ليون، سوف أستقل التِّي جِي فِي عند الساعة السادسة» قالت أليس، «أظن أني سأعود إلى البيت.

– هل أنت متأكدة؟

– نعم، هذا عجب، لستُ خائفة قطعاً.»

نظرتُ إليها، وأنا أسأل نفسي إن كان ينبغي الإلحاح عليها،

لكن يا للعجب لم أكن خائفاً كذلك، وكنتُ من دون سبب يذكر مقتنعاً بأن المواجهات محصورة في شارع كْليشي.

كانت سيارة أليس التوينغو مركونة عند زاوية الزقاق بلانش. «لستُ متأكداً أنه من الحكمة ما تصنعينه» قلتُ بعد أن قبّلتها، «هاتِفيني مهما حدث، ما إن تصلي إلى مقصدك». أمّنَت على كلامي ثم انطلقتْ. «إنها امرأة رائعة...» قال لومبرور. وافقت على كلامه محدثاً نفسي بأني لا أعرف في الأصل شيئاً يستحق الذكر عن أليس. إضافة إلى الجوائز الشرفية وتطور المسار المهني، فإن المجاهرات الجنسية كانت تقريباً هي مدار الحديث بيننا بصفتنا زملاء عمل. وفي ما يخصها، لم يسبق أبداً أن تناهى إلى علمي خبر عنها. كانت ذكية، أنيقة - كم كانت تبلغ من العمر؟ إنها تقريبا سَنيتني، بين أربعين وخمسة وأربعين - ووفقاً للمظهر، كانت تعيش لوحدها. مع ذلك كان من المبكر الانسحاب، حدثت نفسي، لكنني تذكرت أني كنتُ في الليلة السابقة أتوقع حدوث الأمر نفسه. «رائعة!» قلتُ مؤكداً وأنا أسعى إلى طرد الفكرة عن ذهني.

توقف إطلاق النار. حينما ولجنا زقاق بَالُو، الذي يكون فارغا تلك الساعة، وجدنا أنفسنا بالضبط في الحقبة التي عاشها الكاتب المفضل عند كلينا، هذا ما أثرت إليه انتباه لومبرور؛ تقريباً كل البنايات، التي تم حِفظ هيئتها الأصلية بشكل رائع، يعود تاريخها إلى الإمبراطورية الثانية أو بداية الجمهورية الثالثة. «هذا صحيح، حتى لقاءات ملارمي المنعقدة أيام الثلاثاء كانت تتم بالقرب من هنا، بزقاق روما...» أجابني. «وأنت، أين تقيم؟

- شارع شْوازِي. يعود بالأحرى للسبعينيات. وهي حقبة أقل إثارة من سابقتها على المستوى الأدبي طبعاً.

- ويحمل اسم شايناتاون (الحي الصيني)؟

- بالضبط. أقيم في قلب الحي الصيني.

- لعله اختيار موفق»، قال مستغرقاً، بعد وقت طويل من التأمل. في تلك اللحظة وصلنا زاوية زقاق كليشي. توقفت، مبهوتاً. على بعد مئات من الأمتار ناحية الشمال، كانت النيران تكتسح ساحة كليشي بالكامل، ويمكن للمرء أن يميز بقايا سيارات وحافلة نقل منفحمة. نصبُ الماريشال مونسيي المهيب والمسودّ، كان بادياً وسط الحريق. لم يكن هناك أحد على مدى البصر. كان الصمت قد خيَّم على المشهد، الذي لا يرجه سوى العواء المتكرر لصفارة إنذار. «هل تعرف مسار الماريشال مونسيي المهني؟

- كلا.

- كان من جنود نابليون. وقد سطع نجمه بدفاعه عن حاجز كليشي ضد الغزاة الروس عام ١٨١٤. لو قيِّض للمواجهات العرقية أن تمتد إلى داخل أسوار باريس»، تابع لومبرور كلامه بالنبرة ذاتها، «فإن الجالية الصينية ستبقى في الخارج، ويصير الحي الصيني الوحيد بين أحياء باريس التي يعمها الأمن تماماً.

- أوتعتقد أن ذلك ممكن؟».

هزَّ كتفيه وما أحار بكلمة. في تلك اللحظة، رأيت باندهاش عنصرين من فرقة الأمن الجمهوري (السي إير إس)، يحمل كل منهما سلاحاً رشاشاً، يرتديان اللباس كيفلار، يهبطان بهدوء عبر

زقاق كليشي في اتجاه محطة سان لازار، كانا يثرثران بحماس، ولم يلقيا ولو نظرة صوبنا.

«إنهما. . .» من شدة ما كنتُ منبهراً، شقَّ عليَّ النطق، «إنهما يتصرفان وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

- أجل». توقف لومبرور، كان يفرك ذقنه بتفكر. «ها أنت ترى، من الصعب القول في هذا الأوان ما هو ممكن أو غير ممكن، وإذا جاءك أحد مدعياً خلاف ذلك، فهو إما معتوه أو كذاب؛ لا أحد في نظري يمكنه ادعاء معرفة ما سوف يقع في غضون الأسابيع المقبلة. حسناً». استأنف كلامه بعد مرة أخرى من التفكير. «نحن على مقربة من منزلي الآن. أتمنى أن تجري الأمور على وجه حسن بالنسبة لصديقتك».

كان زقاق الكاردينال ميرسيي، الهادئ والقَفْر، يؤدي عند طرفه المسدود إلى نافورة تحيطها أعمدة. في الجانبين، هناك أروقة ضخمة تعلوها كاميرات المراقبة تطل على أفنية غُرست أشجاراً. ضغط لومبرور بسبابته على لوحة صغيرة من الألمنيوم، لعله جهاز بيومتري للتحقق من الهوية؛ في الحال ارتفع ستار معدني أمامنا. في أقصى الفِناء، أبصرتُ قصراً خاصاً صغيراً، تكاد تحجبه الأغراس، قصرٌ فاخر وأنيق، من طراز حقبة الإمبراطورية الثانية. سألتُ نفسي: المؤكد أن أجره كأستاذ محاضر من الرتبة الأولى ليس هو ما يسمح له بالإقامة في مكان مماثل؛ وعليه، ما ذاك؟

لا أدري لماذا كنتُ أتخيل زميلي الشاب مقيماً وسط بيت بسيط الزينة إلى حد أقصى، منقّى، يعمه بياض كثير. وخلافاً لذلك كان الأثاث يناسب تماماً أسلوب البناية: الصالون، المنجَّد بالحرير والمخمل، يعج بالمقاعد المريحة، والموائد المزينة بالخشب المخرَّز وبالصدف؛ لوحة كبيرة ذات أسلوب أكاديمي، ربما كانت أصلية بريشة بوغرو Bouguereau، تعلو مستوقداً

شديد الزخارف. اقتعدتُ أريكة عثمانية منجَّدة بثوب حرير، أخضر فاتح، ثم قبلتُ كحولاً من عصير الإجاص.

«نستطيع الاستخبار عما يقع، إن أحبَبْتَ...» هذا ما اقترحه علي وهو يسقيني الشراب.

- لا، أعلم جيداً أنه لن يُعرض شيء على قنوات الأخبار. ربما على قناة ال- سي إن إن، إن كان لديك طبقٌ لاقط.

- لقد حاولت في الأيام الأخيرة؛ لا شيء على السي إن إن، ولا شيء على يوتوب كذلك، لكني كنتُ أتوقع ذلك. على موقع روتوب أحياناً يعرضون بعض الصور، أناس يصورون بكاميرا هاتفهم؛ لكن ذلك رهين الصدفة، وهناك لم أعثر على شيء.

- لا أفهم لماذا قرروا التعتيم الشامل، لا أفهم نيَّة الحكومة.

- ذاك أمر واضح، في نظري. إنهم يخافون حقاً من فوز الجبهة الوطنية بالانتخابات. وكل صورة من صور العنف والتخريب في المدن، هي أصوات إضافية لصالح الجبهة الوطنية. إن اليمين المتطرف، الآن، هو الذي يسعى إلى التصعيد من درجة الضغط. من البديهي، أن الناس يتفاعلون بسرعة في الضواحي؛ لكن إن أمعنت النظر، كلما وقعت انحرافات في الأشهر الأخيرة، كان وراءها استفزاز مناوئ للإسلام: تدنيس مسجد، إرغام امرأة على خلع نقابها بالتهديد، أو أي شيء من هذا القبيل

- وتظن أن الجبهة الوطنية هي المحرِّضة؟

- كلا، كلا، لا يستطيعون إباحة ذلك لأنفسهم. إن الأمور لا تجري على هذا النحو. فَلْنَقُل... فلنقل إن هناك قنوات.»

أكمل كأسه، وسقانا من جديد ثم صمتَ. لوحة بوغرو التي

تعلو المستوقد تمثل خمس نساء في حديقة - بعضهن يرتدي لباساً أبيض، والأخريات عاريات تقريباً - يحطن طفلاً عارياً، شعره مجعد. واحدة من النساء العاريات تخفي نهديها بيديها؛ وأخرى منهن لم يكن في وسعها فعل ذلك، إذ كانت تمسك باقة ورود برية. كان لها نهدان جميلان، وقد نجح الفنان تماماً في رسم ملتحفاته العاريات. يعود تاريخها إلى أكثر من قرن وبدا لي ذلك بعيداً جداً، أول رد فعل كان هو أن أبقى مشدوهاً قبالة هذا الموضوع الذي يشق على الفهم. ببطء، وبالتدرج، قد نستطيع تقمص شخصية واحد من العامة في القرن ١٩، واحد من الأعيان بمعطفه الطويل، الذي التمس رسم هذه اللوحة؛ في وسعنا، مثلهم، أن يثير فينا هذا العري اليوناني بوادر إحساس شهواني؛ لكنه كان صعوداً شاقاً وصعباً للزمن. كان من اليسير أكثر فهم موباسان وزولا، بل حتى ويسمانس. الراجح أنه كان ينبغي لي الحديث عنه، عن قوة الأدب الغريبة تلك، لكنني قررت رغم هذا مواصلة الكلام عن السياسة، كنتُ أريد معرفة المزيد، ويبدا أنه يعرف الكثير، أقصد ذاك هو الأثر الذي يتركه لدى سامعه.

«أعتقد أنك كنتَ مقرباً من الحركات المتعصبة للهوية الواحدة؟» كانت نبرة صوتي على أتمها، نبرة رجل من الصفوة، مهتم، دافعه الفضول ليس أكثر، حياد مهذب فيه شيء من الأناقة. ابتسم صراحة، من دون تحفظ.

«أجل، أعرف أن الخبر ذاع في الكلية... فعلاً، لقد انتسبتُ ذات سنوات معدودة لحركة متعصبة للهوية الواحدة، حينما كنتُ أهيئ أطروحتي. كانوا من الكاثوليك، وفي الغالب مَلَكيين، يحنون إلى الماضي، رومنطيقيين في حقيقة الأمر -

مدمنون على الكحول، في أغلب الحالات أيضاً. لكن كل شيء تغير، لقد انقطعت صلتي بهم، وأظن لو أني ذهبتُ لحضور مجلس من مجالسهم، لَمَا تعرّفتُ على شيء أبداً».

سكتُّ على نحو ممنهَج: حينما يسكت المرء على نحو ممنهج وينظر إلى الناس في أعينهم، ونعطيهم الانطباع بأننا نعبُّ كلامهم، فإنهم يتكلمون. يستلذون كوننا ننصت إليهم، كل المحققين يعرفون ذلك؛ كل المحققين، كل الكتَّاب، وكل الجواسيس.

«اعلم أن...» قال مستأنفاً كلامه، «الكتلة المتعصبة للهوية الواحدة هي في الحقيقة كل شيء إلا كتلة، لقد كانت موزعة إلى فصائل كثيرة لم يكن بينها تفاهم أو وفاق تام: فيها كاثوليك، ووحدويون قريبون من «الطريق الثالث»، وملكيون، ووثنيون جدد، وعَلمانيون خلص متشددون قادمون من اليسار المتطرف... لكن كل ذلك تغير عندما تم إحداث «سكان أصليون أوروبيون». في البداية استلهموا فكرتهم من «سكان الجمهورية الأصليين»، لكن بالسير على خلافهم، وقد نجحوا في توصيل رسالة واضحة وجامعة: نحن سكان أوروبا الأصليون، أول من استوطن هذه الأرض، ونرفض الاستعمار الإسلامي؛ كما نرفض الشركات الأمريكية، واشتراء تراثنا من قبل الرأسماليين الجدد القادمين من الهند والصين، إلخ. وقد كانوا يقتبسون من جيرونيمو، وكوشيز، وسيتينغ بول، وكان هذا تصرفاً حذقاً بالأحرى؛ وبالأخص موقعهم على الإنترنت كان مبتكراً جداً من الناحية الفنية، بصوره المتحركة المثيرة، وموسيقى بإيقاع جيد، مما جذب إليهم جمهوراً جديداً، جمهوراً من الشباب.

- هل تظن حقاً أنهم يريدون إشعال فتيل حرب أهلية؟

- ليس في ذلك أدنى شك. سوف أريك نصاً تم نشره على النت...».

قام من مكانه، دخل الحجرة المجاورة. منذ أن دخلنا غرفة الضيوف، بدا أن أصوات الطلقات قد همدت - لكنني لم أكن متأكداً من القدرة على سماعها من بيته، كان الدرب المسدود هادئاً جداً.

عاد وناولني قرابة عشر ورقات مُشبَّكَة، مطبوعة بحروف صغيرة؛ وبالفعل، كان للوثيقة عنوان واضح جداً: «إعداد الحرب الأهلية».

«طيب، هناك الكثير من الوثائق من النوع نفسه، لكن هذه الوثيقة من أشدها تلخيصاً، وتضم إحصائيات موثوقاً بها جداً. هناك عدد لا يستهان به من الأرقام، لأنها تبسط حال اثنين وعشرين بلداً في الاتحاد الأوروبي، لكن خلاصاتها هي ذاتها في كل مكان. وتتلخص أطروحتهم في أن التعالي ميزة انتقائية: إن الأزواج الذين ينتسبون لواحد من أديان الكتاب الثلاثة، التي تم فيها الحفاظ على قيم السلطة الأبوية، لهم ما يزيد من الأبناء على ما عند الأزواج الملاحدة أو الذين هم يعمهون؛ نساؤهم أقل تعليماً، كما أن الميل إلى ملذات الحياة والنزعة الفردية لا تهيمن عندهم بالدرجة نفسها. إن التعالي، فضلاً عن ذلك، وإلى حد كبير، طبعٌ متوارثٌ: أما الارتداد عن الدين أو نبذ القيم الأسرية، فإنها ليست ذات أهمية تذكر؛ الناس يظلون أوفياء، في جل الحالات، للنظام الميتافيزيقي الذي نشأوا داخله. النزعة الإنسانية الملحدة، التي ينبني عليها «العيش معاً» العَلماني، محكوم عليها

إذن بالاندثار في المدى القصير، إن نسبة الساكنة التوحيدية مدعوة للارتفاع بسرعة، وهذه على الأخص حال الساكنة المسلمة - حتى دون أن نأخذ الهجرة في الحسبان، التي ستزيد من استفحال الظاهرة. بالنسبة للمتعصبين الأوروبيين لوحدة الهوية، من المُسَلَّم به بداية أنه سوف تندلع بالضرورة حرب أهلية بين المسلمين وبقية الساكنة إن عاجلاً أو آجلاً. ويخلصون من ذلك إلى أنهم إذا أرادوا أن يكون لهم حظ في ربح هذه الحرب، فمن الأفضل أن تنشب في أقرب أجل ممكن - في أي حال قبل عام ٢٠٥٠، ومن الأحسن قبل ذلك بكثير.

- يبدو لي ذلك منطقياً...

- أجل، بديهي أنهم على صواب، من المنظور السياسي والعسكري. لكن يجب معرفة هل قرروا التصرف الآن - وفي أي بلاد. نبذ المسلمين هو تقريباً بنفس القوة في كل البلدان الأوروبية؛ لكن فرنسا حالة خاصة تماماً، نظراً لجيشها. يعتبر الجيش الفرنسي من ضمن أعلى الجيوش العالمية مرتبة، وقد تم الحفاظ على هذا الخط، رغم القيود على الميزانية التي سلكتها الحكومات المتعاقبة؛ وهذا يعني أنه لا حظ لأي حركة تمرد في السعي للمنافسة إن عزمت الحكومة حقاً على تدخل الجيش. وتبعاً لذلك، فإن الاستراتيجية تختلف بالضرورة.

- والمقصود؟

- المسارات المهنية العسكرية مسارات قصيرة. في الوقت الحالي، الجيش الفرنسي - جيوش برية وبحرية وجوية مجتمعة - قوامه ٣٣٠٠٠٠ رجل، إن نحن احتسبنا الدَّرك. يتم سنوياً تجنيد ٢٠٠٠٠ شخص تقريباً؛ مما يعني أنه في غضون خمس عشرة سنة

تقريباً فإنه سوف يتم تجديد مجموع عدد الجيش الفرنسي بالكامل. وإذا تقدَّم النشطاء الشباب المتعصبون لوحدة الهوية - وهم تقريبا شباب كلهم - للتسجيل بكثرة في مباريات التوظيف بالقوات المسلحة، فإنهم سوف يستطيعون أخذ زمام التحكم الأيديولوجي في وقت وجيز نسبياً. وهذا هو الخط الذي يدعمه منذ البداية الجناح السياسي للحركة؛ مما أدى إلى القطيعة مع الجناح العسكري منذ عامين، المؤيد للمرور الفوري للمقاومة المسلحة. أظن أن الجناح العسكري سوف يحافظ على هذا التحكم، وأن الجناح العسكري لن يجذب إلا بعض المهمشين الوافدين من العصابات المنحرفة والذين تفتنهم الأسلحة؛ لكن الوضع قد يكون مغايرا في بلدان مختلفة، خاصة في البلاد الإسكندنافية. إن أيديولوجيا تعددية الثقافات ما يزال لها وزن أكثر في فرنسا منها في اسكندنافيا؛ فالنشطاء المتعصبون لوحدة الهوية كثيرون ومجربون؛ ومن جهة أخرى فإن الجيش لا يتوفر على أعداد لها بال، وقد يعجز عن مواجهة أعمال شغب جدية. أجل، لو اندلعت قريباً انتفاضة عامة، فإنها قد تأتي من النرويج أو من الدنمارك؛ بلجيكا وهولندا أيضاً مناطق يرجح أنها غير مستقرة.

حوالي الساعة الثانية صباحاً، بدا أن كل شيء عاد إلى هدوئه، وعثرت بسهولة على تاكسي. شكرتُ لومبرور على جودة كحوله بعصير الإجاص - لقد أتينا على القنِّينة بالكامل. طبعاً، مثل الجميع، لقد مرت أعوام، بل عشرات الأعوام، وأنا أسمع الناس يتحدثون في هذه المواضيع. إن العبارة «أنا وبعدي الطوفان» أحياناً يتم نسبها إلى لويس الخامس عشر، وتارة إلى عشيقته مدام دو بومبادور. إنها عبارة تلخص جيداً مزاجي، لكن

كانت تلك هي المرة الأولى التي تخطر ببالي فكرة مقلقة: الطوفان، في نهاية المطاف، قد يحدث قبل مماتي. من البديهي أني لم أكن أتوقع نهاية حياة سعيدة، لم يكن هناك مبرر أن أكون بنأي عن الحِداد، والعجز والمعاناة؛ لكن أستطيع من الآن إلى ذلك الحين العيش على أمل مغادرة هذه الدنيا من دون عنف مبالغ فيه.

هل هو مفرط في تَخَوُّفِه؟ لم أعتقد ذلك للأسف؛ لأن هذا الفتى أشعرني كثيراً بجديته. صباح اليوم الموالي، أجريت بحثاً على روتوب، لكن لم يكن هناك شيء بخصوص ساحة كليشي. وعثرت فحسب على فيديو مخيف بما فيه الكفاية، ولو أنه لم يتضمن أي عنصر عنيف: قرابة خمسة عشر شخصاً يلبسون السواد بالكامل، بأقنعة وأغطية تخفي وجوههم، مسلحون برشاشات، انتشروا حسب تشكيلة اتخذت حرف V، وتقدموا ببطء وسط مشهد حضري يذكر بساحة آرجونتوي. من المؤكد أن الفيديو لم يتم تسجيله بوساطة هاتف محمول: كان التقاط التفاصيل ممتازاً، مع إضافة مؤثرات التصوير البطيء. هذا الفيديو الثابت، المهيب، الذي تم إخراجه من زاوية تصوير متجهة من أسفل نحو الأعلى شيئاً ما، كان له هدف واحد هو إثباتُ حضورٍ معين، استيلاء على حيز ترابي. في حال نشوب صراع عرقي، سوف أُصنَّف ضمن معسكر البِيض، وللمرة الأولى، حينما خرجت لقضاء بعض الحوائج، امتدحتُ الصينيين لأنهم نجحوا منذ نشأة الحي في استبعاد أن يقيم فيه السود أو العرب كلياً - وبصفة عامة إقامة غير الصينيين، باستثناء بعض الفيتناميين.

مع ذلك، من باب الحيطة أكثر، كان عليَّ التفكير في موقع

ألوذ به، في خال تدهورت الأمور بسرعة. كان أبي يقطن بشَالِيه في هضبة لِيزِيكْرَان، لقد عثر منذ مدة قليلة على رفيقة جديدة (أقصد، علمتُ بالخبر منذ مدة قليلة). أمي كانت مصابة بالكآبة في نُفِيزْ، ولم يكن لها من عشيرة سوى كلبها البولدوغ الفرنسي. لقد مرت الآن عشرة أعوام تقريباً لم أسمع لهما فيها خبراً. لطالما قدَّم هذان المولودان عقب الحرب العالمية الثانية الدليل على أنانية لا يضاهى عنادُها، ولا شيء كان يحملني على الاعتقاد بأنهما سوف يستقبلاني بلطف. لقد كانت تخطر بذهني أحياناً فكرة هل سوف ألتقي والِدَيَّ من جديد قبل مماتهما، لكن الجواب كان سلبياً في كل مرة، ولم أظن أن حتى قيام حرب أهلية قد يكون قادراً على تسوية المسألة، كانا يجدان عذراً يرفضان به إيوائي؛ لم يحدث أبداً في ما يخص هذه المسألة، أن نقصتهم الأعذار. بعدها أصبح لدي أصدقاء، أشخاص كثيرون، أقصد في حقيقة الأمر، ليس بتلك الكثرة، إذ انقطعت عنهم قليلاً؛ وكانت هناك أَلِيس، أستطيع من دون شك اعتبار أليس صديقة. وفي المجمل، منذ انفصالي عن مريم، كنتُ وحيداً إلى أقصى حد.

الأحد ١٥ أيار/مايو

أحب منذ الأبد أمسيات الانتخابات الرئاسية؛ بل أعتقد أنه باستثناء نهائيات كأس العالم لكرة القدم، فقد كانت بمثابة برنامجي التلفزي المفضل. بديهي أن التشويق كان أقل حدة، ما دامت الانتخابات تخضع لبناءٍ سردِيٍ مفردٍ تُعْرَف حبكةُ قصته منذ الدقيقة الأولى؛ لكن تنوع المداخلات الشديد (خبراء في السياسة، مدراء تحرير مختصون في الشؤون السياسية «من الدرجة الأولى»، حشود النشطاء المبتهجين أو الذين يبكون بمقرات أحزابهم. . . وأخيراً رجال السياسة، تصريحاتهم الطازجة، الرزينة أو العاطفية)، وهيجان المشاركين العام، جميعها تخلف ذلك الأثر النادر جداً والقيِّم والجذاب عبر التلفاز بأن المرء يعيش لحظة تاريخية على المباشر.

بعد الإحباط جراء النقاش السابق الذي منعني الميكروويف تماماً من متابعته، اشتريتُ هذه المرة بعضاً من خِلْطِ التَّراما والحمص، وفطائر البْلِينِي، وبيض السمك؛ كما أني وضعتُ منذ الليلة السابقة قنينتين من نبيذ الرُّولِي في البرَّاد. ما إن أطل دافيد

بوجاداس عند الساعة السابعة وخمسين دقيقة مساء، حتى أدركتُ أن السهرة الانتخابية سوف تكون أشبه بنبيذ عتيق رفيع، وأني سوف أمضي وقتاً تلفزياً استثنائياً. بالطبع، ظل بوجاداس محافظاً على حِرَفِيته، لكن بريق عينيه ما كان له أن يُؤوَّل بالخطأ: النتائج التي كان على علم مسبق بها، والتي سيكون من حقه الإعلان عنها في غضون عشر دقائق، كانت بمثابة مفاجأة عظيمة؛ المشهد السياسي الفرنسي سوف ينقلب رأساً على عقب.

«هذا زلزال»، بادر إلى القول في الوقت الذي كانت تُعْرَضُ فيه الأرقام الأولية. الجبهة الوطنية في الصدارة بـ ٣٤,١٪ من الأصوات المعبر عنها؛ وذلك أمر عادي تقريباً، فذلك ما أعلنته الاستطلاعات منذ شهور، لأن مرشحة اليمين المتطرف أحرزت تقدماً قليلاً فحسب خلال الأسابيع الأخيرة من الحملة. وخلفها، مرشح الحزب الاشتراكي بنسبة ٢١,٨٪، ومرشح الأُخُوَّة المسلمة بنسبة ٢١,٧٪، اللذان كانا يتدافعان، إذ تفصلهما أصوات قليلة، وقد ينقلب الوضع، بل المرجح أنه سوف ينقلب لمرات كثيرة أثناء الأمسية، تبعاً لوصول النتائج من مكاتب التصويت في المدن الكبرى وفي باريس. وبحصوله على نسبة ١٢٪ من الأصوات، كان مرشح اليمين خارج السباق نهائياً.

لم يظهر جان فرانسوا كُوبِي على شاشات التلفزة إلا عند الساعة التاسعة وخمسين دقيقة. شاحب الوجه، لحيته غير حليقة، وربطة عنقه عوجاء، كان يُشعر المرء أكثر من أي وقت مضى بأنه خضع للحراسة النظرية خلال الساعات الأخيرة.

بذِلَّة مفجعة، أقرَّ أن الأمر يتعلق بنكسة، نكسة كبرى، يتحمل

مسؤوليتها كاملة؛ لكنه لم يبلغ مبلغ ليونيل جوسبان عام ٢٠٠٢ الذي فكَّر في الانسحاب من الحياة السياسية. أما عن التعليمات المتعلقة بالتصويت في الدور الثاني، فإنه لم يُصدِر بشأنها شيئاً؛ لأن المكتب السياسي لحزب التجمع من أجل حركة شعبية سوف يلتئم خلال الأسبوع لاتخاذ القرار المناسب.

عند الساعة العاشرة ليلاً لم يتم الحسم بعد في الفارق بين المرشحين، لأن آخر الأرقام كانت توفر تقديرات متطابقة تماماً - وهذه الحيرة جعلت المرشح الاشتراكي في حلٍ من تقديم تصريح صعب كما هو متوقع. هل الحزبان اللذان كانا يشكلان بنيان الحياة السياسية الفرنسية منذ بداية الجمهورية الخامسة سوف تتم إزاحتهما؟ من شدة ما كانت الفرضية مبعثاً للدهشة كان يسود الشعور بأن المعلقين الذين يتلاحقون على البلاطو بسرعة - بمن فيهم دافيد بوجاداس، الذي تحوم حوله كثيراً شبهة التعاطف مع الإسلام، والمعروف بقربه من مانويل فالس - قد كانت لديهم رغبة خفية في حدوث ذلك. متنقلاً من قناة إلى أخرى بسرعة شديدة، إذ بدا كأنه يستمتع بالقدرة على الوجود في كل الأمكنة دفعة واحدة، بنجاحه حتى ساعة متأخرة من الليل في لفت الانتباه على نحو مبهر، فقد كان كريستوف باربيي من دون منازع أحد ملوك هذه السهرة الانتخابية، إذ حجب الأنظار بسهولة عن رونو ديلي، الذي كان مكتئباً وكدر لونه جراء نتيجة لم تتوقعها مديرية أخباره، بل حجب أيضاً إيف ثريار، الذي يتمتع في العادة بروح قتالية.

وبعد منتصف الليل بقليل فقط حينما أتيتُ على قنينَة الرّولي الثانية حطَّت النتائج النهائية: حلَّ محمد بن عباس، مرشح الأخوة

المسلمة، في المرتبة الثانية برصيد ٢٢,٣٪ من الأصوات. أما المرشح الاشتراكي، بحصوله على ٢١,٩٪، فقد تم إقصاؤه. قدّم مانويل فالس تصريحاً موجزاً جداً، ومشذّباً جداً، وجّه فيه التحية للمرشحَيْن اللذين وصلا إلى القمة، وأرجأ الحسم في أي قرار إلى غاية انعقاد اجتماع اللجنة المسيّرة للحزب الاشتراكي.

الأربعاء ١٨ أيار/ مايو

حينما رجعتُ إلى الكلية لتقديم دروسي شعرتُ، وكانت تلك المرة الأولى، بأن أمراً ما قد يحدث، بأن النظام السياسي الذي اعتدت العيش فيه منذ طفولتي، والذي أخذ منذ وقت غير قليل في التصدع بشكل ظاهر للعيان، قد ينفجر دفعة واحدة. لا أدري بالضبط ما الذي ولَّد عندي ذلك الانطباع، ربما هو موقف طلبتي في سلك الماجستير: رغم فتورهم وجهلهم السياسي المعتاد، فقد بدا عليهم ذلك اليوم التوتر والقلق، والظاهر أنهم كانوا يسعون إلى التقاط نتف من الأخبار بوساطة هواتفهم الذكية ولوحاتهم الملموسة؛ وفي كل الأحوال كانوا غير مبالين بدرسي أكثر من أي وقت مضى. ربما أيضاً مشية الفتيات ذوات البرقع، المطمئنة والوئيدة أكثر من المعتاد، كنَّ يسرن ثلاثتهن جبهة في الممرات، من دون محاذاة الحيطان، وكأنهن أصبحن أصلاً سيدات المكان.

وخلافاً لذلك، أدهشني تخاذل زملائي. بدا الأمر وكأن لا مشكلة هناك، لم يخالجهم بتاتاً شعور بأن الأمر يعنيهم، مما عزز ما آمنتُ به منذ أعوام: أولئك الذين يظفرون بمقام أستاذ جامعي

لا يتصورون أن تطوراً سياسياً معيَّناً قد يكون له أدنى أثر على مسارهم المهني؛ يشعرون أنهم معصومون.

في العشيّ رأيتُ ماري فرانسواز، بينما كنت أعبر منعطفَ زقاقِ صانتوي لأتجه نحو الميترو. كنتُ أمشي مسرعاً، بل أكاد أركض للحاق بها، وعندما حاذيتها، بعد تحية مسرعة، سألتها مباشرة: «هل تعتقدين أن زملاءنا على حق لكونهم بكل ذلك القدر من الهدوء؟ هل تظنين أننا بمأمن حقّاً؟

- آه! . . .» صاحت وقد صغَّرت خدها كالعفريت، فصارت أقبح مما هي عليه، ثم أشعلتْ سيجارة من نوع جِيتَانْ، «كنتُ أتساءل هل سوف يصحو أحد ما في هذه الكلية العاهرة. كلا، لسنا بمأمن البتة، وأرجو أن تظن ذلك، ولدَيَّ كل المؤهلات للحديث عن ذلك. . .»

انتظرتْ مرور بضع ثوان ثم أوضحَتْ: «زوجي يعمل في الـ DGSI[1]». نظرتُ إليها باندهاش: كانت تلك المرة الأولى التي أدرك فيها على امتداد عشرة أعوام من لقائي بها أنها كانت امرأة، بل وبمعنى ما أنها ما تزال كذلك، وبأن رجلاً كان في وسعه ذات يوم أن يشعر بالرغبة في هذه السيدة الدحداحة والسَّمينة، الأشبه بالضفدعة أو تكاد. من حسن الحظ أنها أخطأت تأويل تعابير وجهي. «أعرف» قالت وعلامات الرضا بادية عليها، «هذا أمر يثير العجب دوماً. أقصد، إنك تعرف ما تدل عليه، الـ DGSI؟

---

(١) DGSI: المديرية العامة للاستخبارات الداخلية.

- إنها مخابرات سرية؟ تشبه قليلاً الـ DST[1]؟

- الديستي لم تعد موجودة. لقد اندمجت مع الاستعلامات العامة من أجل تشكيل الـ DCRI[2]، التي أصبحت في ما بعد الـ DGSI.

- هل زوجك يعمل جاسوساً؟

- ليس تماماً، الجواسيس هم بالحري ضمن الـ DGSE[3]، ويتبعون لوزارة الدفاع. أما الـ DGSI فهي من اختصاص وزارة الداخلية.

- إذاً بوليس سياسي؟».

تبسمَتْ من جديد، بخفية أشد، ولم يجعلها ذلك قبيحة جداً. «رسمياً، بالطبع إنهم يستبعدون اللفظ، لكن في نهاية الأمر، أجل، الحال تقريباً كذلك. إنهم يراقبون الحركات المتطرفة، تلك التي قد تجنح نحو الإرهاب، هذا من اختصاصاتهم الرئيسية. يمكنُك المجيء لاحتساء كأس عندنا بالبيت، وسوف يشرح لك زوجي كل هذه الأمور. أقصد، سيشرح لك ما له الحق في شرحه، لا أدري بالضبط، الأمر يتغير في كل حين، وفق تطور الملفّات. لكن في كل الأحوال، سوف تحدث تغيرات حقيقية بعد الانتخابات، والتي تخص مباشرة الكلية».

كانا يقيمان بميدان فِيرْمُنُوزْ، على بعد خمس دقائق مشياً على الأقدام من سُونْسْيِي. لم يكن زوجها يشبه بتاتاً عضواً في

(١) DST: مديرية حماية التراب الوطني.

(٢) DCRI: المديرية المركزية للاستعلام الداخلي.

(٣) DGSE: المديرية العامة للاستخبارات الخارجية.

المخابرات السرية مثلما كنتُ أتخيله (ما الذي كنتُ أتخيله حقاً؟ على الأرجح كورسيكي، خليط من قاطع طريق وبائع مقبلات كحولية). مبتسم ونقي، من شدة ما كان قحف رأسه أملس فقد بدا متوهجاً، كان يلبس معطفاً داخلياً بزخارف اسكتلندية، لكني أتصور أنه خلال أوقات العمل، كان يطوق عنقه بعقدة الفراشة كبيرة، وربما يرتدي صداراً، كل شيء كان فيه ينضح أناقة عتيقة بعض الشيء. لقد أشعرني منذ الوهلة الأولى بأنه كان يمتلك سرعة بديهة غير عادية؛ المرجح أنه كان التلميذ الوحيد من بين قدماء مدرسة زقاق أولم Ulm الذي اختار بعد حصوله على شهادة التبريز اجتياز مباراة ولوج المدرسة الوطنية العليا للشرطة.

«مباشرة بعد تعييني عميداً للشرطة» قال لي وهو يقدم لي كأس بورتو، «التمستُ التحاقي بالاستعلامات العامة؛ كان ذلك بمثابة موهبة...»، أضاف قائلاً بابتسامة خفية، وكأن ميله إلى المخابرات السرية ليس سوى هوَس بريء.

كفَّ عن الكلام وقتاً طويلاً بما فيه الكفاية، شرب جرعة أولى من البُورتُو، فثانية، ثم تابع قائلاً:

«المفاوضات بين الحزب الاشتراكي والأخوة المسلمة أصعب مما كان متوقعاً. ومع ذلك، الإسلاميون على استعداد لمنح نصف عدد الوزارات لليسار - بما فيها وزارات أساسية مثل المالية والداخلية. ليس لديهم خلاف في شأن الاقتصاد ولا حول السياسة الضريبية؛ ولا حول الأمن - بل لديهم، عكس شركائهم الاشتراكيين، الوسيلة لاستتباب الأمن في الأحياء. هناك بعض الخلافات حول السياسة الخارجية، فهم يأملون من فرنسا إدانة أشد حزماً لإسرائيل، وهذا أمر سوف يوافقهم عليه اليسار من دون

مشكل. لكن الصعوبة الحقيقية، حجر عثرة المفاوضات، تتمثل في التربية الوطنية. العناية بالتربية تقليد اشتراكي قديم، والوسط التعليمي هو الوحيد الذي تشبث بالحزب الاشتراكي، واستمر في دعمه حتى عندما شارف على الهاوية؛ لكن في هذا الصدد، إنهم يتعاملون مع مخاطَب أشد تحمُّساً منهم، ولن يتراجع مهما كانت الذريعة. الأخوة المسلمة حزب فريد من نوعه، مثلما تعلم: إنهم لا يبالون تقريباً بالكثير من الرهانات السياسية الآنية؛ وعلى الأخص، إنهم لا يجعلون الاقتصاد في صلب كل الأمور. بالنسبة إليهم، الديمغرافية هي الأساس، والتربية؛ إن العينة السكانية التي تمتلك أعلى معدل إنجاب، والتي تنجح في توريث قيمها هي التي تتفوق؛ في نظرهم، الأمر بهذا القدر من السهولة، الاقتصاد، وحتى الجيو سياسة، ليسا إلا ذراً للرماد في العيون: من يتحكم في الأطفال يتحكم في المستقبل، وبه الختام. وعليه، فإن المسألة الرئيسية الوحيدة، المسألة الوحيدة التي يبتغون إرضاءهم فيها على الإطلاق هي تربية الأطفال.

- وماذا يبتغون؟

- وعليه، بالنسبة للأخوة المسلمة، يجب أن يحظى كل طفل فرنسي، من بداية مساره الدراسي إلى نهايته، بتعليم إسلامي. والتعليم الإسلامي، مختلف عن التعليم العلماني، من كل النواحي. بداية، ليس له بأي حال من الأحوال أن يكون تعليماً مختلطاً. ولا تفتح في وجه النساء سوى مسالك معينة، وما يأملونه في الأصل هو أن يتم توجيه أغلب النساء، بعد مرحلة المدرسة الابتدائية، إلى التربية المنزلية - وأن يقبلن على الزواج بأسرع ما يمكن وأقلية صغيرة تستطيع مواصلة دراسات أدبية أو

فنية قبل الزواج - ذلك هو مصير نموذج المجتمع المثالي عندهم. علاوة على ذلك، يجب أن يكون جميع الأساتذة مسلمين، من دون استثناء. كما يجب احترام القواعد الخاصة بالنظام الغذائي في المطاعم المدرسية، والوقت المخصص للصلوات الخمس اليومية؛ لكن على الأخص، يجب أن يناسب البرنامج المدرسي في حد ذاته تعاليم القرآن.

- هل تعتقد أن المحادثات الثنائية قد تصل إلى حل؟

- لا خيار لديهم، إن فشلوا في الوصول إلى اتفاق، فإن الجبهة الوطنية متأكدة من الفوز بالانتخابات، حتى ولو وصلا إلى اتفاق، إذ لها كل الحظوظ، لقد قرأتَ الاستطلاعات مثلي. رغم أن كوبي صرَّح بأنه سيمتنع بصفته الشخصية، فإن ٨٥٪ من الناخبين في التجمع من أجل حركة شعبية ستذهب لصالح الجبهة الوطنية. سوف يكون الصراع محتدماً، إلى الحد الأقصى من الاحتدام: النصف لكل واحد منهما، حقاً.»

«كلا، الحل الوحيد المتبقي لديهم، قال متابعاً كلامه، هو إجراء فصل منتظم للتعلمات المدرسية. وكذلك بالنسبة لتعدد الزوجات، لقد وصلوا مسبقاً إلى اتفاق، والذي قد يستعملونه بمثابة النموذج. ولن يطرأ أي تغيير على الزواج الجمهوري، ارتباط بين شخصين، رجلين أو امرأتين. ولن يكون للزواج الإسلامي أية عواقب على الحالة المدنية، لكن سوف يتم الاعتراف بمصداقيته، وتكون له تبعات متعلقة بالحقوق، لدى مراكز الضمان الاجتماعي والخدمات الضريبية.

- هل أنت متأكد؟ يبدو لي فادحاً...

- تماماً، لقد تم التعاقد مسبقاً على ذلك في المفاوضات،

ثم إن هذا موافق تماماً لنظرية شريعة الأقلية التي تدعمها منذ زمن بعيد حركة الإخوان المسلمين. وعليه، بالنسبة إلى التربية، قد يكون الأمر سواء تقريباً. وستظل المدرسة الجمهورية على حالها، مفتوحة في وجه الجميع - لكن بما يقل من المال، لأن ميزانية التربية الوطنية سيتم تقسيمها على ثلاثة، وهذه المرة لن يستطيع الأساتذة إنقاذ شيء، نظراً للسياق الاقتصادي الحالي من المؤكد أن كل تخفيض في الميزانية سيحظى بإجماع واسع. ثم، موازاة مع ذلك، سيتم إنشاء نظام مدارس إسلامية تستفيد من معادلة الشهادات - والتي سوف يسعها التوصل بمساعدات خاصة. من البديهي، وبسرعة كبيرة، ستصير المدرسة العمومية مدرسة في الحضيض، وكل الآباء الذين يهمهم قليلاً مستقبل أبنائهم، سيعمدون إلى تسجيلهم في التعليم الإسلامي.

- والشأن كذلك بالنسبة إلى الجامعة» قالت زوجته. السوربون بالخصوص تجعلهم يتوهمون إلى حد لا يُصَدَّق - العربية السعودية مستعدة لتقديم منحة غير محدودة تقريباً؛ وستصبح واحدة من ضمن أكثر الجامعات ثراء.

- وسيتم تعيين رُدِيجِير رئيساً لها؟ قلتُ سائلاً، إذ تذكرتُ حديثنا السابق.

- أجل، ذلك مؤكد، لا نقاش في ذلك أكثر من أي وقت مضى؛ إن مواقفه المساندة للإسلام ثابتة، على الأقل منذ عشرين سنة.

- بل لقد اعتنق الإسلام، إن أسعفتني الذاكرة. . .» قال زوجها.

أفرغت كأسي دفعة واحدة، سقاني من جديد؛ فعلا، سوف يجدُّ جديد.

«أظن أن ذلك سرّي للغاية...» قلتُ مستأنفاً كلامي بعد لحظة تفكير. «لا أفهم ما يدفعك للحديث عن الأمر.

- في الظروف العادية، كنتُ سألزم الصمت. لكن ها هنا، افتُضِح الأمر مسبقاً - وهذا ما يقلقنا في الوقت الحالي. كل ما أخبرتك به، بل والأكثر من ذلك، تيسرت لي قراءته، كما هو، في مدوَّنات بعض النشطاء المتعصبين لوحدة الهوية - أولئك الذين استطعنا اختراقهم.» هزَّ رأسه غير مصدِّقٍ. «لو أنهم نجحوا في وضع ميكروفونات داخل القاعات الأشد حماية في وزارة الداخلية، ما علِموا أكثر من ذلك. والأسوأ من كل هذا، أنهم حتى اللحظة، لم يفعلوا شيئاً بهذه الأخبار القابلة للانفجار: لا بيان صحافي، ولا كشف موجه للجمهور العريض؛ إنهم ينتظرون، بكل بساطة. وهذا وضعٌ غير مسبوقٍ - ومرعبٍ على وجه التمام.»

سعيتُ إلى معرفة المزيد حول حركة التعصب لوحدة الهوية، لكنه كان يوصد الأبواب على نفسه بشكل ظاهر. أعلنت قائلاً، لدي زميل في الكلية، كان قريباً منها، قبل أن يبتعد عنها تماماً. «أجل، هذا ما يقوله الجميع...»، تلفظ مستهزئاً. حينما طرقت مسألة السلاح الذي تمتلكه بعض تلك الجماعات وفق ما هو متداول، اكتفى برشف كأسه البورتو، ثم غمغم قائلاً: «أجل راجت أخبار عن تمويل من طرف مليارديرات روس... لكن لم يتم التثبت من أي شيء» ثم سكت تماماً. انصرفتُ بعد ذلك بقليل.

الخميس ١٩ أيار/ مايو.

في اليوم الموالي ذهبتُ إلى الكلية، وما كانت لي حاجة أقضيها هناك، ثم اتصلتُ برقم لومبرور. وفق حساباتي، لابد أنها كانت تقريباً الساعة التي ينتهي فيها من درسه؛ بالفعل، أجابني. اقترحت عليه أن نشرب كأساً معاً؛ لم يكن يستجب كثيراً المقاهي القريبة من الكلية، فاقترح علي اللقاء عند ديلماس، بساحة لاكنتريسكاب.

وأنا أصعد زقاق موفتار، استحضرتُ ما قاله زوج ماري فرانسواز: هل كان الفتى زميلي على علم بأكثر مما باح لي به طوعاً؟ هل ما يزال متورطاً في الحركة بشكل مباشر؟

بمقاعده الجلدية الوثيرة، وبلاطه الخشبي الدَّاكن، وستائره الحمر، كان الديلماس مناسباً له تماماً. لم يكن ليذهب أبداً إلى المقهى المقابل، الكنتريسكاب، بخزاناته المنفرة المزيفة؛ فهو امرؤ ذو ذوق. طلب كوباً من الشامبانيا، اكتفيتُ بعصارة جعة نوع Leffe، انشق شيء ما في داخلي، شعرت بغتة أني متعب جداً من لطافتي واعتدالي، فتصديتُ مباشرة، حتى قبل أن يعود النادل:

«يبدو أن الوضع السياسي غير مستقر... بصراحة، ما أنت فاعل لو كنتَ مكاني؟».

تبسم من صراحتي، لكنه أجاب بالنبرة ذاتها: «أولاً، أظن أني سوف أبدأ بتغيير حسابي البنكي.

- الحساب البنكي؟ ولماذا؟...» أدركتُ أني صرختُ حينها تقريباً، لابد أني كنتُ متوتر الأعصاب، دون أن أفطن لذلك. عاد النادل حاملاً كأسينا. توقف لومبرور ثم أجاب: «الحاصل أن التطورات الأخيرة التي عرفها الحزب الاشتراكي لا يُنْظَر إليها بعين الرضا من طرف قاعدته الانتخابية... »، وفي هذه اللحظة أدركتُ أنه كان على علم مسبق، وبأنه ما يزال يضطلع بدوره داخل الحركة، وعلى الأرجح دور حاسم: كل تلك الأخبار الخفية التي افتضحت وسط هذه المجموعة الملتبسة المتعصبة لوحدة الهوية، تَبيَّنَ أنه كان على علم تام بها، وربما كان هو من اتخذ القرار بالحفاظ على سرِّيتها حتى الوقت الحالي.

«في ظل هذه الظروف...» قال متابعاً كلامه بلطف، «لقد أضحى فوز الجبهة الوطنية في الدور الثاني ممكناً بالكامل. إنهم مجبَرون، بصفة مطلقة هم مجبَرون، إذ تعهدوا على نحو كبير جداً في هذا الاتجاه أمام قاعدتهم الانتخابية، التي هي قاعدة سيادية على نحو وازن - بالخروج من الاتحاد الأوروبي، ومن النظام النقدي الأوروبي. وعلى المدى البعيد من المرجح أن عواقب ذلك على الاقتصاد الفرنسي ستكون ذات فائدة؛ لكن في مرحلة أولى، سوف نشهد اضطرابات مالية جسيمة؛ ليس من المؤكد أن تقاوم البنوك الفرنسية ذلك، حتى الأشد رسوخاً من بينها. وعليه،

أنصحك بأن تفتح حساباً في بنك أجنبي - وبالحري بنك إنجليزي، مثلاً Barclays أو HSBC.

- و. . . هذا كل ما في الأمر؟

- بل إن ذلك كثير أصلاً. وإلّا. . . هل لديك مكان في البادية تستطيع اللجوء إليه لبعض الوقت؟

- كلا، ليس حقاً.

- سأكون ناصحاً لك مهما كان الأمر بالرحيل من دون الانتظار كثيراً؛ جد لك فندقاً صغيراً، في الريف. أنت تسكن في الحي الصيني، أليس كذلك؟ هناك فرص ضئيلة بحدوث عمليات نهب أو مواجهات عنيفة في هذا الحي؛ لكن مع ذلك سوف أرحل، لو كنتُ مكانك. خذ لك إجازة، انتظر قليلاً، ريثما تتضح الأمور.

- أشعر شيئاً ما وكأني فأر يهرب من السفينة.

- الفئران ثدييات ذكية»، أجابني بنبرة هادئة، مازحة تقريباً. «من المرجح أن الفئران سوف تبقى على قيد الحياة بعد فناء الإنسان؛ وفي كل الأحوال، إن نظامها الاجتماعي أشد صلابة بقدر كبير.

- لم تصل السنة الجامعية إلى نهايتها تماماً؛ ما يزال لدي أسبوعان من الدروس.

- يا هذا!. . .» هذه المرة، تبسم صراحة، مبتهجاً يكاد. «قد تحدث أمور كثيرة، من المستبعد التكهن بالوضع، لكن ما يبدو مستحيلا على التقريب، هو أن تُختَم السنة الجامعية في ظروف عادية!»

ثم سكتَ، وأخذ يرشف كوبه الشامبانيا بهدوء، وفهمت أنه لن يزيد عما قاله؛ وعلى شفتيه كانت ما تزال تطفو ابتسامة فيها شيء من الهزء، والمستغرب رغم ذلك أني أخذتُ أجد له في نفسي مودّة أو أكاد. طلبتُ جعة ثانية، بنكهة التُّوت هذه المرة؛ لم تكن لدي رغبة في العودة إلى البيت، لا شيء ولا أحد ينتظرني فيه. تساءلتُ إن كانت لديه صاحبة، أو رفيقة معينة؛ المرجح، أجل. لقد كان بمثابة القائد القابع في الظل، الزعيم السياسي داخل حركة سرية بهذا القدر أو ذاك؛ هناك من الفتيات من يجذبهن ذلك، وهذا أمر معروف. هناك فتيات يجذبهن المتخصصون في ويسمانس، في حقيقة الأمر. لقد سبق لي أن تكلمتُ مع فتاة شابة، ظريفة، جذابة، كانت تنسج أوهاماً حول جان فرانسوا كوبي؛ وقد استغرقت أياماً كثيرة للحسم في ذلك. الحقيقة أننا نصادف أيامنا هذه ما اتفق من الفتيات.

الجمعة ٢٠ أيار/مايو.

في اليوم الموالي، فتحت حساباً بفرع بنك باركليز الواقع بشارع ليغوبلان. لن يستغرق نقل الاعتمادات سوى يوم عملٍ واحد، ذاك ما أخبرني به المستخدَم؛ وكم كانت مفاجأتي عظيمة حينما حصلتُ على بطاقتي الفيزا فوراً.

قررتُ العودة إلى البيت مشياً، لقد أنجزتُ إجراءات تحويل الحساب بشكل آلي، في حال من هو مسلوب الإرادة، كنتُ في حاجة إلى التفكير. حينما وصلتُ ساحة إيطاليا، فجأة غمرني الإحساس بأن كل شيء قد يندثر. تلك الفتاة السوداء ذات الشعر المجعد، والرّدف المصبوب في سروال الجينز، التي كانت تنتظر الحافلة رقم ٢١، قد تندثر؛ من المؤكد أنها سائرة إلى الاندثار؛ أو على الأقل سوف تتم إعادة تربيتها بشكل جاد. في الفِناء قبالة مركز إيطاليا ٢، مثلما جرت العادة هناك جماعة من المحتجين، كانوا هذا اليوم من أجل السلام الأخضر، هم أيضاً سيندثرون، طرفتُ بعيني حينما كان فتى ذو لحية كستنائية يدنو مني حاملاً رزمته من المنشورات الدعائية، وكأنه اندثر مسبقاً، مررتُ أمامه

من دون رؤيته ثم ولجت الأبواب الزجاجية المؤدية إلى الطابق السفلي من الرواق التجاري.

داخل المركز، كانت الحصيلة أشد تفاوتاً. بْرِيكُومَا لا منازع لها، لكن أيام جِنِيفر مما لاشك فيه باتت معدودة، لا يعرضون شيئاً قد يناسب مراهقة مسلمة. وخلافاً لذلك فإن متجر سُكْرِيتْ سْتُورِيز الذي كان يبيع الملابس الداخلية من النوع الرفيع بأسعار مخفضة من دون علاماتها الأصلية، لم يكن يعبأ أبداً بأي شيء: لأن المتاجر المماثلة له في الأروقة التجارية بالرياض أو أبو ظبي كانت تعرف نجاحاً لم يتعرض أبداً لأي نكسة، كما أن شانتال طوماس ولابيرلا لم يكن لديهما ما يخشيانه من إقامة نظام إسلامي. إن كانت النساء السعوديات الثريات يلبسن في النهار البراقع السود الحاجِبة، فقد كنَّ يتحولن في المساء إلى طيور الجنة، ويتزيَّين بمشدات، وحمالات الصدر المخرمة، وتبابين مقدارها شبر تكسوها خيوط الدّانتيلا الموشّاة وأحجار كريمة. وخلافاً لذلك تماماً، فإن النسوة الغربيات، الرفيعات والمثيرات أطراف النهار لأن وضعهن الاجتماعي كان على المحك، اللائي كن يتهاوين آناء الليل عند العودة إلى بيوتهن، مستبعدات من شدة تعبهن كل فكرة إغراء، إذ يرتدين ملابس مريحة لا ملامح لها.

بغتة، قبالة متجر رابيد جي (الذي كان يعرض مشروبات ممزوجة أكثر فأكثر: جوز الهند - ثمرة زهرة الآلام - جوافة، مانغو - ليتشي - غوارانا، كان هناك أكثر من عشرة أنواع، محمَّلة بالفيتامينات المذهلة)، تذكرتُ برينو ديلاند. لم أره منذ عشرين سنة تقريباً، كما لم يسبق لي أن تذكرته من قبل. كان من بين رفاقي في سلك الدكتوراه، وفي الوسع الزعم أنه كانت تجمعنا

علاقات صداقة تقريباً، كان بحثه يدور حول لافورغ، إذ كتب أطروحة مشرفة ليس أكثر، ومباشرة بعد ذلك اجتاز مباراة مفتش الضرائب ثم تزوج ب-آنليز، فتاة كان قد صادفها قبل ذلك في سهرة طلابية معينة. وبدورها كانت تعمل في قطاع تسويق تابع لفاعل في الهواتف المحمولة، كان دخلها الشهري يفوق دخله لكنه كان يتمتع بوظيفة مأمونة مثلما يقال، كان قد اشتريا بيتاً صغيراً في مونتيني لوبرتنوه، لديهما طفلان، ولد وبنت، كان هو الوحيد من بين زملاء الدراسة القدامى الذي انخرط في حياة أسرية عادية. أما الآخرون فقد كانوا يهيمون على نحو ملتبس بين قليل مما يوفره موقع ميتيك Meetic، وقليل من سبيد داتينغ speed-dating، والكثير من العزلة، التقيته صدفة بقطار الضاحية RER، دعاني إلى بيته مساء الجمعة الموالية لمائدة شواء، كان الوقت نهاية شهر حزيران/يونيو، لديه حديقة معشوشبة وفي الإمكان تنظيم موائد شواء، حضر بعض الجيران، «ولا أحد من الكلية»، هذا ما أعلمني به قبلاً.

كان من الخطأ تنظيم ذلك مساء يوم جمعة، ذلك ما أدركته ما إن وصلتُ إلى الحديقة ولثمتُ خد زوجته، لقد عمِلت النهار كله وعادت إلى بيتها مرهقة، علاوة على ذلك فقد أزعجت نفسها من شدة مشاهدتها مرات عديدة برنامج عشاء موصوف بالكمال تقريباً على قناة إم ٦ وأعدت أشياء مفرطة الكلفة، السوفليه بالفطر كان مخيباً للآمال لكن لمّا تبيّن أن لَوِيطَةُ الأفوكادو سائرة إلى الفشل ظننتُ أنها ستجهش بالبكاء، شرع ولدها ذو الثلاثة أعوام في الصراخ، وبرينو الذي سار الشراب في رأسه سوْراً منذ وصول أول الوافدين، ما كان في وسعه أن يعينها في شيء لقلب النقانق

ظهراً على بطن، حينذاك ذهبت لنجدتها، ومن أعماق يأسها، رمتني بنظرة عرفان متحيّرة، لقد كان أشد تعقيداً مما كنت أتصور ذاك الشواء، كانت طبقة مفحمة، ضاربة إلى السواد وعلى الأرجح قد تسبب السرطان، تغطي لحم أضلاع الضأن بسرعة فائقة، لابد أن النار كانت مسعورة لكنني لا علم لي بذلك الأمر، لو أدخلت يدي في آلة الشواية، ربما كنتُ سأخاطر بتفجير قنينة البوتان، كنا وحيدين في مواجهة ركام من اللحم المفحم وباقي الضيوف يفرغون زجاجات الخمر الكُميت، ولا يعيروننا أدنى انتباه. بانشراح رأيت هبوب العاصفة، سقط علينا أول الغيث قطرات مائلة، صقيعية، وتم الانسحاب فوراً نحو غرفة الجلوس، وباتت السهرة سائرة نحو مائدة طعام بارد. وفي الوقت الذي تهاوت فيه على الأريكة، وقد رمت التَّبُّولة بنظرة عُدوان، ذهب فكري إلى حياة آنليز وحياة كل النساء الغربيات. الراجح أنها في الصباح، عمدت إلى تجفيف شعرها ثم ارتدت لباسها بعناية، تبعاً لوضعها المهني الاعتباري، وأعتقد أنها في حالها كانت أنيقة أكثر مما هي جذابة، أقصد كان القَدْر معقداً، لابد أنها كانت تقضي الكثير من الوقت لأجل ذلك قبل الذهاب بالطفلين إلى الروضة، ويمضي يومها في إرسال الإيميلات والهاتف، والمواعيد المختلفة ثم كانت ترجع إلى البيت في الساعة التاسعة ليلاً، وقد هدَّها التعب. (كان برينو هو من يتكفل بإحضار الطفلين مع حلول المساء، من يطعمهما وجبة العشاء، إذ كانت مواعيد عمله مواعيد موظف)، كانت تَنهار، تلبس سترة قطنية وجوارب العَدْو، هكذا كانت تستقبل مولاها وسيدها ولابد أنه، وبالضرورة لابد ويشعر بأنه تعرض للخداع بخصوص أمرٍ ما، وهي بنفسها كانت تشعر

بأنها تعرضت للخداع بخصوص أمرٍ ما، وأن الوضع لن يتحسن مع مرور السنوات، والطفلان اللذان سوف يكبران والمسؤوليات المهنية المتعاظمة بصورة كأنها آلية، دون أن يؤخذ في الحسبان رَهَل الأجساد.

كنتُ من بين آخر المنصرفين، بل إني ساعدتُ آنليز في ترتيب البيت، لم تكن لدي أي نية في ركوب مغامرة ما معها - وذلك أمر كان ممكناً - كل شيء بدا ممكناً في وضعها. كنتُ أريد لها فحسب أن تشعر بشيء من التضامن، تضامن لا طائل فيه.

من المؤكد أن برينو وآنليز مطلقان الآن، هكذا تتم الأمور في أيامنا هذه؛ مائة عام من ذي قبل، في عصر ويسمانس، كان من المحتمل أن يظلا معاً، وما كان لهما أن يعيشا حينذاك بكل ذلك القدر من التعاسة، في نهاية المطاف. لمّا رجعتُ إلى البيت، سكبت لنفسي كأساً كبيرة من الشراب، وأقبلتُ من جديد على رواية «حياة الزوجية»، كانت لدي ذكرى عنها بوصفها من أفضل روايات ويسمانس، ومنذ الوهلة الأولى، وجدتُ أن لذة القراءة لم تتغير على نحو عجيب، بعد عشرين عاماً تقريباً هنا أيضاً. ربما لم يسبق أبداً أن تم التعبير بهذا القدر من اللطف عن دفء السعادة بين زوجين عجوزين: «بعد حين لم يتبق لهما سوى بعض المودة الجذلى، ورضا الأمهات بالاستلقاء أحياناً جنباً إلى جنب، والتمدد بكل بساطة حتى يكون الواحد قرب الآخر، لتبادل الحديث قبل أن يكمُنا ظهراً لظهر ويناما.» كان ذلك جميلاً، لكن هل كان قابلاً للتحقق؟ هل كان ممكناً توقع هذا الأفق اليوم؟ لقد كان بكل بداهة مقروناً بملذات المائدة: «دخل النَّهم بيتهما بصفته

مصلحة جديدة، أتى بها فتور حواسهما المتعاظم، مثلَ هوى رهبان، حرِّمت عليهم السعادة الجسدية، يصهلان في حضرة أطعمة شهية وخمرة عتيقة.» المؤكد أنه لما كانت المرأة تشتري الخضر بنفسها وتقشرها، وتعد لحومها وتطبخ خلطاتها طُول ساعات، حينها كان ممكنا أن تنشأ علاقة حنان وعطف؛ إن أشكال تطور العادات الغذائية قد جعلت طي النسيان ذلك الإحساس، الذي يعترف ويسمانس بكل صراحة أنه لم يكن سوى تعويض هيِّن عن فقدان الملذات الجسدية، وهو بنفسه، في حياته الشخصية، لم يسكن بتاتاً إلى إحدى تلك النساء «القُذُور» [أي العاهرات اللائي كان يتعيش منهن القوّادون]، اللائي، وفق بودلير، بمعية «البنات»، يلائمن حياة «الأديب» - وهذه الملاحظة صحيحة لا سيما أن البنت قد تتحول تماماً مع مرور الأعوام إلى امرأة قِذْر، بل إن تلك هي رغبته الخفية وميله الطبيعي. وخلافا لذلك، بعد فترة من «الفجور» النسبي بكل تأكيد، مال نحو حياة الرهبانية، وهذا كان فراق بيني وبينه. تناولتُ في الطريق، وحاولت قراءة صفحات منه ثم أكببت على «حياة الزوجية»، كان الحس الروحي شبه غائب تقريباً داخلي وتلك خسارة لأن الحياة الرهبانية موجودة على الدوام، لم تتبدل منذ قرون، بينما النساء القُذُور، أين نجدهن الآن؟ في عصر ويسمانس كانت ما تزال موجودة بكل تأكيد، لكن الوسط الأدبي الذي كان يتحرك فيه لم يتح له اللقاء بهن. ولم تكن الكلية مكاناً مناسباً لذلك أيضاً، في حقيقة الأمر. هل كان في وسع مريم مثلاً، مع مرور الأعوام، أن تصير بمثابة امرأة قِذْر؟ كنت منهمكاً في التساؤل حينما رنَّ هاتفي النقال، ويا للعجب، كانت هي المتصل، تلعثم لساني من

دهشتني، لم أكن أتوقع بتاتا أن تعاود الاتصال بي، في الحقيقة. ألقيت نظرة خاطفة على المنبه: كانت الساعة تشير أصلاً إلى العاشرة ليلاً، لقد غرقتُ تماماً في القراءة، حتى إني أغفلتُ الأكل. وخلاف ذلك، أدركتُ أيضاً أني أنهيتُ تقريباً زجاجتي الثانية من الخمر.

« في وسعنا. . . ، تردَّدَتْ، عنَّ لي أنه في وسعنا اللقاء غداً مساء.

- نعم؟. . .

- يحل عيد ميلادك غداً. ربما نسيته؟

- أجل، أجل، لقد نسيتُ تماماً، بكل صدق.

- ثم. . . ، اعترتها من جديد لحظة تردّد، عندي شيء آخر أريد إخبارك به، كذلك. أقصد، سوف يكون من الأحسن أن نرى بعضنا. »

السبت ٢١ أيار/ مايو.

صحوت من النوم على الساعة الرابعة صباحاً، بعد مكالمة مريم، كنتُ قد أنهيت «حياة الزوجية»، هذا الكتاب كان لا محالة تحفة رائعة، لم أنعم بأكثر من ثلاث ساعات من النوم إلا قليلاً. المرأة التي سعى ويسمانس خلفها طول حياته، كان قد سبق له وصفها لما كان يبلغ السابعة ة أو الثامنة عشرة في روايته الأولى «مارث»، المنشورة في بروكسيل عام ١٨٧٦. امرأة قِذر في أغلب الأحيان، كان لابد لها من أن تظل قادرة على التحول إلى فتاة، في ساعات معلومة، وفق ما قاله على وجه الضبط. وظهر جلياً أن التحول إلى فتاة أسهل جداً بالأحرى من طبخ مرّقة بِيَارْنِيزِيّة؛ ومع ذلك، فقد فتّش عن هذه المرأة، دون جدوى. كما أني، إلى حد الآن، لم أفلح في الأمر بدوري. في حد ذاتها، حقيقة أني أبلغ من العمر أربعة وأربعين عاما، لم يكن لها بالغ الأثر عليّ، كان ذلك عيد ميلاد عادي جداً؛ لكن لما بلغ ويسمانس سن أربعة وأربعين عاماً بالتدقيق عاد إلى جادّة الإيمان. من يوم ١٢ تموز إلى ٢٠ منه، قام بأول زيارة لمَخبِس إِنْيِي، في منطقة المازن.

وفي الرابع عشر من تموز، قام بطقوس سرّ الاعتراف، بعد تردد عظيم دوَّنه بدقة في رواية في الطريق. ويوم ١٥ منه، مُنِح سرّ المناولة، للمرة الأولى منذ كان طفلاً.

حينما كنتُ أكتب أطروحتي عن ويسمانس، أمضيتُ أسبوعاً في دير لِيغُوجِي، هناك حيث تلقى نذور الخدمة، سنوات معدودة بعد ذلك، وأسبوعاً ثانياً في دير إِنْيِي. وقد دُمِّر هذا الأخير تماماً إبان الحرب العالمية الأولى، لكن إقامتي هناك أفادتني كثيراً رغم ذلك. لقد حافظ التزيين والأثاث، المحدثان بالطبع، على تلك البساطة والعري اللذين سُلِّطا على ويسمانس؛ وظل توقيت الصلوات العديدة والشعائر اليومية هو نفسه، بداية من صلاة التبشير في الساعة الرابعة صباحاً حتى صلاة المساء «السلام عليك أيتها الملكة». وكان يتم تناول وجبات الطعام في صمت، وكان ذلك مريحاً جداً، مقارنة مع المطعم الجامعي؛ أتذكر أيضاً أن الراهبات كن يحضِّرن الشوكولا وحلويات الماكارون - ومنتجاتهن تلك يتم توزيعها في كل أرجاء فرنسا، وينصح بها الدليل السياحي le Petit Futé.

لم أكن أجد صعوبة في أن ينجذب المرء نحو حياة الرهبانية - مع أن وجهة نظري - وأنا على وعي تام بذلك - كانت تختلف تماماً عن وجهة نظر ويسمانس. لكن لم أفلح بتاتاً في الإحساس بنفوره الظاهر من الملذات الجسدية، ولا استطعتُ تمثله. بصفة عامة كان جسدي موطناً لمختلف الإصابات المؤلمة - أوجاع الرأس، أمراض جلدية، آلام الأسنان، بواسير - التي كانت تتلاحق دون انقطاع، ولا كانت تتركني أبداً بسلام - وما جاوزتُ بعدُ أربعة وأربعين عاماً من العمر! كيف سيكون حالي حينما أبلغ

من العمر خمسين سنة، ستين سنة، وأكثر! لن أصير حينذاك سوى كومة من الأعضاء السائرة في بطء إلى تفسخها، وتصير حياتي عذاباً دائماً، كئيبة، مفتقدة الفرح، وضيعة. قضيبي في الأصل كان هو الوحيد من بين أعضائي ما لم يدركه وعيي بوساطة الألم، وإنما عبر الاستمتاع. متواضع لكنه صلب، فقد خدمني دوماً بتفان - أقصد، ربما أنا، من كان في خدمته، خلافا للأمر، يمكن دعم هذه الفكرة، لكن سطوته كانت لطيفة جداً: لم يأمرني أبداً، كان يدفعني أحياناً، بكل تواضع، دون فظاظة أو غضب، إلى الاختلاط أكثر بالحياة الاجتماعية. كنتُ أعرف أنه ذلك المساء سوف يتدخل لمصلحة مريم، لقد كانت لديه دوماً علاقات جيدة مع مريم، ولطالما تعاملت معه مريم بعطف واحترام، وقد منحني ذلك الكثير من اللذة. أما عن منابع اللذة، بصفة عامة، فإني لم أظفر بها إلا قليلاً. كما قلَّ اهتمامي بالحياة الفكرية كثيراً؛ لم يعد وجودي الاجتماعي مُرْضِياً أكثر من وجودي الجسدي، إذ بدا هو أيضاً وكأنه سلسلة متلاحقة من المتاعب التافهة: مِغسل مسدود، عطب في الإنترنت، خسارة نقط رخصة السياقة، خادمة نظافة غير أمينة، خطأ في التصريح بالضرائب - والتي كانت تتلاحق هي الأخرى دون انقطاع، ولا تتركني بتاتاً أنعم بالسلام. في الدِّير، أتصور أن المرء كان يفلت من معظم هذه الهموم؛ حيث يضع مِن على كاهله وزر الوجود الفردي. كما يزهد المرء في الملذات؛ لكن هذا اختيار قد يجد من يدعمه. إنها لخسارة، قلتُ محدثاً نفسي وأنا أكمل قراءتي، إن ويسمانس أصر بكل ذلك القدر، في الطريق، على نفوره من مجونه في الماضي؛ ربما لم يكن صادقاً بذلك الخصوص كل الصدق. إن ما كان يجذبه نحو الدير، وهذا

أمر حامت حوله شكوكي، ليس قبل كل شيء هو إفلات المرء فيه من السعي وراء الملذات الجسدية؛ وإنما بالحري أنه في الإمكان هناك التخلص من التلاحق المتعِب والكئيب لمشاغل الحياة اليومية التافهة، ومن كل ما وصفه ببراعة في روايته طوع مسيل الماء. في الدير على الأقل، يُضمن للمرء المسكن والمأكل - وعلاوة على ذلك، حياة الخلد في أفضل الأحوال.

دقت مريم جرس بابي نحو الساعة السابعة ليلاً. «ميلاد سعيد، فرانسوا...» قالت لي في الحال عند عتبة الباب، بصوت هامس إلى آخره، ثم انقضت علي وقبّلت فمي، كانت قبلة طويلة، عذبة، امتزجت الشفاه واللسانان. وأنا عائد صحبتها نحو الصالون، أدركت أنها كانت مثيرة للشهوة أكثر من المرة الفارطة. لقد لبست جبّة قصيرة سوداء مغايرة، أقصر جداً، وكانت عليها جوارب تحتية، ولما جلست على الأريكة، تبينتُ ربطة حزام الجوارب، تلك الربطة السوداء أعلى فخذها شديد البياض. وقميصها، الأسود أيضاً، كان شفافاً بالكامل، إذ يرى نهداها جيداً وهما يتحركان - وأدركتُ أن أصابعي تحفظ ذكرى ملمس الثألولَين. بدرت منها ابتسامة مترددة، في تلك اللحظة كان ثمة شيء غامض ومحتوم.

«جئتني بهديّة؟» قلتُ بنبرةٍ أردتُ لها أن تكون مازحة، محاولة مني لتلطيف الجو.

- «كلا»، أجابت بحزم، «لم أجد شيئاً يعجبني حقاً.»

بعد لحظة صمت جديدة، ودفعة واحدة، فرجت ما بين فخذيها بما يزيد عن السعة؛ لم تكن تلبس تبّاناً، ومن شدة ما

كانت جبّتها قصيرة فقد بدا شفر فرْجها حليقاً وغريراً. «سوف أقوم لك بمصمصة...»، قالت «مصمصة رائعة جداً. اقترب، اجلس على الأريكة.»

ائتمرتُ لها، وتركتها تجردني من لباسي. ركعتْ قبالتي وابتدأتْ بلحس السُّرّم، لحساً مديداً ولطيفاً، ثم أمسكتني من يدي وأنهضتني. سندتُ ظهري إلى الحائط. ركعتْ من جديد وبدأت تلحس الخصيتين وهي ترهزني رهزاً خفيفاً سريعاً.

«حينما تريد، أمرُّ إلى القضيب...» قالت، وقد توقفت هنيهة. انتظرتُ بعض الوقت، إلى أن صارت الرغبة لا تقاوم، ثم قلتُ: «الآن».

حدَّقتُ في عينيها بالضبط قبل أن يقع لسانها على ذكري، مشاهدتها تصنع ذلك كانت تزيد من هياجي؛ كانت في حال غريبة، مزيج من التركيز والتهيّج، لسانها يدور حول كمرتي، تارة سريعاً، وأخرى ملحاحاً وبطيئاً؛ يدها اليُسرى تقبض قاعدة قضيبي بينما أصابع يدها اليمنى تربت على خصيتَيّ، موجات الرغبة تجتاحني وتكنس وعيي، بالكاد تحملني ساقَيَّ، قاب قوسين من أن يغشى علي. وبالتحديد قبل أن أنفجر صارخاً، استطعت التوسل إليها: «كفى... كفى...»، بالكاد تعرفتُ على صوتي - المشوه، غير المسموع تقريباً.

«ألا تريد أن تبلغ متعتك في فمي؟

- ليس الآن.

- طيّب... آمل أن القصد من ذلك يعني أن الرغبة سوف تراودك لمضاجعتي فيما بعد. سنتناول الطعام، أليس كذلك؟»

هذه المرة، كنتُ قد طلبتُ السوشي مسبقا، كان في الانتظار

منذ منتصف الظهيرة في الثلاجة، كما وضعتُ زجاجتين من الشامبانيا في البرّاد.

«أنت تعرف، يا فرانسوا. . .» قالت بعد أن شربت جرعة أولى، «أنا لستُ عاهرة، كما أني لستُ شبقة. إن كنتُ أمصُّك مثلما أفعل، فذلك لأني أحبك. لأني أحبك حقا. تعرف ذلك؟»

نعم، كنتُ أعرف. كنتُ أعرف أن هناك أمراً آخر، لم تستطع الإفصاح لي عنه. حدّق-تُ فيها طويلاً، وأنا أبحث، دون جدوى، عن كيفية لمقاربة الموضوع. أتمت كوبها من الشامبانيا، زفرت، صبّت لنفسها كوباً ثانياً ثم لفظتْ: «لقد قرر والدي هجر فرنسا».

أخرسني الخبر. شربتْ كوبها، سكبتْ لنفسها كأساً ثالثة ثم تابعتْ:

«إنهما يهاجران إلى اسرائيل. نستقل الطائرة نحو تل أبيب الأربعاء القادم. إنهما لا ينتظران حتى الدور الثاني من الرئاسيات. وهذا تصرف أحمق تماماً، ذلك أنهما أعدا الأمر خلسة عنا، دون إخبارنا بأدنى شيء. لقد فتحا حساباً بنكياً في إسرائيل، كما أنهما تصرفا من أجل كراء شقة عن بعد؛ عمل أبي على تصفية حصيلة تقاعده، وعرضا البيت للبيع، وكل هذا دون محادثتنا في الأمر. إلى حد ما، أتفهم أن أختي الصغرى وأخي الأصغر هما في فتاء السن قليلا، أما أنا فأبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، ويضعاني هكذا أمام الأمر الواقع!. . . إنهما لا يُكرِهاني على الرحيل، إذا أصررت حقاً فإنهما على استعداد لكراء شقة من أجلي في باريس؛ لكن صحيح أن العطلة الجامعية على الأبواب، ولدي إحساس قوي بأني لن أستطيع تركهما،

أقصد ليس الآن، سوف يستبد بهما القلق. لم أدرك الأمر حينها لكن منذ بضعة أشهر فقد تغيرت وجوه معارفهما، إذ لا يلتقيان إلا بيهود آخرين. لقد قضوا الليالي صحبتهم، وشجع بعضهم بعضاً، ليسا وحدهما مَن هما على أهبة الرحيل، بل هناك على الأقل أربعة أو خمسة من بين أصدقائهما قاموا بتصفية كل شيء للاستقرار في إسرائيل. لقد حادثتهما ليلة كاملة، دون الظفر بشيء من اصرارهما، لديهما يقين أكيد أن أمراً جللاً سوف يقع في فرنسا بالنسبة إلى اليهود، من الغريب أن هذا الشيء أصابهما على نحو متأخر، بعد مضي خمسين عاماً، قلت لهما إن ذلك لا يُصَّدق تماماً، وإن الجبهة الوطنية لم تعد منذ زمن بعيد معادية للسامية!...

- ليس لكل هذا الأمد الطويل. أنت أصغر من أن تكون لديك معرفة به، لكن الأب، جان ماري لوبين، كان ما يزال يعقد الصلة بالتقليد القديم لليمين الفرنسي المتطرف. لقد كان مخبولاً، وجاهلاً تماماً على التقريب، المؤكد أنه لم يقرأ دريمون ولا مُورا، لكن أعتقد أنه سمع بهما، وأن ذلك كان جزءاً من أفقه الذهني. بالنسبة إلى الابنة، من البديهي أن ذلك لم يعد له معنى بتاتاً. ومع قول هذا، حتى لو أن المسلم هو من سيفوز، لا أعتقد أن عليك الخشية من وقوع شيء ذي بال. إنه مهما كان متحالفاً مع الحزب الاشتراكي، لن يستطيع الإقدام على أي شيء كان.

- هنا... »، هزَّت رأسها، بارتياب، «هنا، أنا أقل تفاؤلاً منك. حينما يصل حزب إسلامي إلى الحكم، فذلك ليس أمراً جيداً بالنسبة إلى اليهود أبداً. لا أرى أمثلة تخالف هذا الواقع...».

لزمني الصمت؛ في الأصل لم أكن أحفظ التاريخ جيداً، في الثانوية، كنت تلميذاً غافلاً، وفيما بعد لم أفلح أبداً في قراءة كتاب عن التاريخ، في قراءته حتى النهاية.

صبّت لنفسها من جديد. الأكيد أن ذلك هو الشيء الواجب فعله، أن تسكر قليلاً، نظراً للظروف؛ علاوة على ذلك، كان شراب الشامبانيا طيّباً.

«يستطيع أخي وأختي استكمال دروسهما في الثانوية؛ وأنا أيضاً يمكن أن ألتحق بجامعة تل أبيب، ويكون لدي معادِل جزئي. لكن ماذا سأصنع في إسرائيل؟ إني لا أنطق كلمة واحدة بالعبرية. فرنسا هي بلادي».

تغيرت نبرة صوتها قليلاً، شعرتُ أنها تشارف على البكاء.

«إني أحب فرنسا!...» قالت بصوت يزداد اختناقاً، «أحب، لا أدري... أحب الجُبْن!

- عندي منه!» نهضتُ بوثبةٍ بهلوانية سعياً مني تلطيف الجو، فتّشتُ في المجمّد: بالفعل، لقد سبق لي أن اشتريت بعضاً من السّان مارسُلان، من الكُونْتِي، ومن أزرق الكُوس. فتحتُ أيضاً زجاجة نبيذ أبيض؛ لم تعر لذلك أي اهتمام.

«ثم... ثم لا أريد أن تنقطع الصلة بيننا»، قالت، ثم أجهشت بالبكاء. نهضتُ، ضممتها بين ذراعيّ؛ لم أجد جواباً معقولاً أرده إليها. رافقتها حتى الغرفة، ضممتها من جديد. واصلت البكاء بهدوء.

صحوتُ من النوم حوالي الساعة الرابعة صباحاً؛ كانت ليلة بدْرها في أتمه، حيث الرؤية جيدة في الغرفة. كانت مريم ممددة

على بطنها، تلبس فحسب قميصاً قصيراً. حركة المرور في الشارع كانت منعدمة تماماً. بعد مضي دقيقتين أو ثلاث، وصلت سيارة مصلحة من نوع رونو ترافيك بسرعة بطيئة، توقفت بمحاذاة البرج. خرج منها صينيان بغية تدخين سيجارة، وبدا أنهما يفحصان الأرجاء؛ ثم دون سبب ظاهر، ركبا السيارة، التي ابتعدت في اتجاه باب إيطاليا. عدتُ نحو السرير، لامستُ ردفيها؛ تجمَّعتْ ملتصقة بي دون أن تستيقظ.

أدرْتها، فرَّجْتُ ما بين فخديها وأخذتُ أداعبها؛ وفي الحال تقريباً سال ماؤها، ثم أتيتُها. لطالما أحبَّت هذه الوضعية البسيطة. رفعتُ فخديها حتى أرطمها رطماً وشرعتُ في الحركة ذهاباً وإياباً. يقال غالباً إن لذة الأنثى معقدة، تكتنفها الأسرار؛ لكن بالنسبة إلي، فقد كنتُ أجهل أكثر كيفية عمل لذتي الخاصة. شعرتُ بسرعة هذه المرة أني سوف أستطيع التحكم في نفسي أطول مدة لازمة، وأن في وسعي أن أوقف متى شئتُ اكتساح اللذة لي. كانت خاصرتَيَّ تتحركان بليونة، دون كلل، وبعد دقائق معدودة أخذتْ تئن، ثم تصرخ، تابعتُ دعضها، بل تابعتُ حتى حينما بدأتْ تقبض فرجها حول قضيبي، تنفستُ بتؤدة، دون مجهود، شعرتُ وكأني خالد، ثم أنَّت طويلاً، سقطتُ عليها وأحطتها بذراعي، كانت تردد: «حبيبي... حبيبي...» وهي تبكي.

الأحد ٢٢ أيار/مايو.

صحوت من جديد نحو الساعة الثامنة، هيأتُ آلة القهوة، ثم استلقيت من جديد على الفراش؛ كانت مريم تتنفس بانتظام، نَفَسها يرافق بإيقاع متراخ شديد صوتَ الرَّشح المكتوم. ركام صغير منتفخ من الغيوم يطفو في السماء، لقد كانت دوماً بالنسبة إلي سحب السعادة، سحبٌ الغرض من وجود بياضها الناصع هناك هو إبراز زرقة السماء، تلك الغيوم التي يمثلها الأطفال حينما يرسمون كوخ الأحلام، بمدخنة ثائرة، وأرض معشوشبة وأزهار. لا أدري حقاً ما الذي جعلني أشغِّل التلفزيون الموصول iTélé، ما إن سكبتُ لنفسي فنجاناً أولاً من القهوة. كان مقياس الصوت مرتفعاً جداً، وقد استغرقت وقتاً طويلاً للعثور على آلة التحكم عن بعد للضغط على رز الإسكات. بعد فوات الأوان، لقد استيقظَتْ؛ دائماً بالقميص القصير، جاءت وتكومت فوق أريكة الصالون. لقد انتهت لحظة السلام الوجيزة التي جمعتنا؛ شغلتُ زر الصوت. الأخبار عن المفاوضات السرّية بين الحزب الاشتراكي والأخوة المسلمة كانت قد راجت على النت أثناء

الليل. وسواء على iTélé، BFM أو LCI، لا حديث إلا عن ذلك، لقد كانت نشرة خاصة متواصلة. وحتى تلك اللحظة لم يصدر أي رد فعل عن مانويل فالس. لكن كان من المتوقع أن يعقد محمد بن عباس ندوة صحافية عند الساعة الحادية عشرة.

دحداح ولعوب، محتال على الدوام في أجوبته على أسئلة الصحافيين، كان المرشح المسلم يُنسي الناس تماماً أنه فيما قبل كان من بين أصغر خريجي مدرسة البوليتكنيك في فرنسا التي التحق بعدها بالمدرسة الوطنية للإدارة، دفعة نيلسون مانديلا - وهي نفس دفعة لوران فوكيي. لقد كان يذكر بالحري بقّال حيّ تونسياً هرماً - وتلك كانت حرفة أبيه، ولو أن حانوت بقالته كانت تقع في نُويّي سِيرْ سِين، وليس في المقاطعة الثامنة عشرة، كما أنها لم تقع في بُوزُون أو أرجنتوي.

وأكثر من أي شخص آخر، ذلك ما يُذَكِرُ به هذه المرة، فقد استفاد من نظام الاستحقاق الجمهوري؛ وهو آخر من يأمل المسّ بنظام يدين له بكل شيء، بما فيه هذا الشرف الأسمى الذي تمثله المشاركة في اقتراع الشعب الفرنسي. استحضر الشقة الصغيرة فوق حانوت البقالة، حيث كان ينجز فروضه المدرسية؛ ثم أحيا باختصار صورة أبيه، بالقدر الذي لا يزيد عن الحد من العاطفة؛ وجدتُ أنه رائع بصفة مطلقة.

لكن الأوقات تتبدل، يجب الإقرار بذلك، قال متابعاً كلامه. يوماً عن يوم وفي ازدياد، كانت الأسر، سواء كانت يهودية أو مسيحية أو مسلمة، تريد لأبنائها تربية لا تنحصر في نقل المعارف، وإنما فيها تكوين روحي يناسب تقليدها. وقد اعتبرت عودة الديني تلك نزوعاً عميقاً، يخترق مجتمعاتنا ولم يكن في

وسع وزارة التربية الوطنية عدم أخذ ذلك في الحسبان. إن الأمر في المجمل يخص توسيع إطار المدرسة الجمهورية، وجعلها قادرة على التعايش في انسجام مع التقاليد الروحية العظيمة - الإسلامية والمسيحية أو اليهودية - لبلادنا.

تواصل حديثه المعسول والرنيم مدة نحو عشر دقائق قبل أن يتم الانتقال إلى أسئلة الصحافة. لقد لاحظت منذ زمن بعيد أن الصحافيين الأشد عناداً وعدوانية يصيرون في حضرة محمد بن عباس كأنهم منوَّمون ومسترخون. ومع ذلك، بدا لي أن هناك أسئلة محرجة كان في الوسع طرحها عليه: إلغاء الاختلاط، مثلاً؛ أو حقيقة أن على المدرِّسين اعتناق الإسلام. لكن بعد كل شيء، ألم تكن تلك هي حال الكاثوليك أصلاً؟ هل من الواجب أن يكون المرء معمَّداً للتدريس في مدرسة مسيحية؟ وأنا أمعن التفكير، أدركت أن لا معرفة لي بالأمر، وحينما كانت الندوة الصحافية تشارف على نهايتها فهمتُ أني وصلتُ بالضبط إلى حيث أراد لي المرشح المسلم: إلى ما يشبه الشك المعمم، والإحساس بأن ليس هناك ما يدعو للهلع، وأن لا جديد هناك في الحقيقة.

قادت مارين لوبين الهجوم المضاد عند الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً. تنضح حيوية، بتسريحة شعر حديثة العهد، وكاميرا التصوير مسلطة عليها من تحت شيء ما، أمام مبنى مجلس المدينة، كانت جميلة تقريباً - وهذا يخالف ظهورها السابق: منذ انعطافة ٢٠١٧، فقد اقتنعت المرشحة بأنه من أجل الوصول إلى منصب الرئاسة، فإنه من اللازم على المرأة، أيّاً

كانت، أن تشبه أنجيلا ميركل، وقد كانت تعمل على مضاهاة الظفر بالاحترام الصارم الذي تتمتع به المستشارة الألمانية، إذ يصل بها الأمر إلى تقليد خياطة ملابسها. لكن، ذلك الصباح من شهر ماي، بدا أنها استعادت وهجاً وزخماً ثورياً يُذكِّران بأصول الحركة. منذ فترة شاع خبر مفاده أن بعضاً من خُطَبِها كتبها رونو كامي - بإشراف من فلوريان فليبو. لا أدري إن كان هذا الخبر صحيحاً، لكن في كل الأحوال، فإنها حققتْ تقدماً ملموساً. منذ الوهلة الأولى، أدهشني في مداخلتها طابعها الجمهوري بل والمعارض صراحة للإكليروس. متجاوزة الإحالة التافهة إلى جيل فيري، ارتقت حتى كوندورسي، الذي اقتبست منه خطابه المشهود لعام ١٧٩٢ في الجمعية التشريعية، وفيه ذكر أولئك المصريين والهنود «الذين أثمر عقلهم البشري الكثير من التقدم، والذين سقطوا في غباوة هي على درجة شديدة من الجهالةِ المخزية، حينما استأثرت السلطة الدينية بحق تعليم الناس».

«كنت أظن أنها كاثوليكية... نبّهتني مريم.

- لا أردي، لكن ناخبيها ليسوا كذلك، لم تستطع الجبهة الوطنية أبداً أن تخترق الكاثوليك، لأنهم متضامنون بإفراط، وهم متعاطفون مع العالم الثالث. وبالتالي، فإنها تتكيف مع الظروف.»

نظرتْ إلى ساعة معصمها، وأومأت إيماءة نصَب. «يجبُ أن أنصرف، فرانسوا. لقد وعدتُ والديَّ بأن أتناول معهما طعام الغداء.

- يعلمان أنك هنا؟

- أجل، أجل، لن تستبد بهما الحيرة، لكنهما سوف ينتظراني للطعام.»

ذهبتُ مرة عند والديها، تماماً في بداية علاقتنا. كانوا يسكنون منزلاً بحيّ الزهور، الواقع خلف ميترو أنفاق بروشان. كان هناك مرآب ومشغل، قد يظن المرء أنه في مدينة صغيرة من مدن الضاحية، في أي مكان آخر غير باريس. أذكر أننا تعشَّينا في الفضاء المُعشِب، إبّان موسم النرجس. لقد كانا لطيفين معي، لقياني رُحباً وسعة - دون أن يظهر عليهما أنهما يوليانني أهمية قصوى، وذلك كان أفضل بكثير. حينما فتح أبوها زجاجة شاتوناف دي باب، أدركتُ بغتة أن مريم، وقد تجاوزت العشرين سنة من عمرها، كانت ما تزال تطعم كل مساء صحبة والديها؛ وأنها تعين أخاها الأصغر على إنجاز واجباته المدرسية، وأنها تذهب لشراء ملابس بمعية أختها الصغرى. كانت عشيرة، عشيرة أسرية متلاحمة؛ ومقارنة مع كل ما عرفتُه، فمن شدة ما كان ذلك أمراً غير مشهود قبلاً، فقد شقَّ عليّ كثيراً منع نفسي من الجهش بالبكاء.

أخرستُ الصوتَ؛ وصارت حركات مارين لوبين أشد حيوية، كانت تخبط في الهواء بقبضتها أمام وجهها، وفي لحظة معينة فرَّجت ما بين ذراعيها بشدة. من الواضح أن مريم سوف ترحل مع والديها إلى إسرائيل، ليس في وسعها أن تفعل غير ذلك.

«أرجو حقاً العودة قريباً، تعرف ذلك...» قالت وكأنها أدركت ما يجول بخاطري. «البقاء فحسب بضعة أشهر، ريثما تستقر الأمور في فرنسا.» اعتبرت تفاؤلها مبالغاً فيه بعض الشيء، لكنني لزمتُ الصمت.

لبست جبَّتها القصيرة على عجل. «هنا، من الواضح، نظراً

لما يحدث، سوف ينتصرون، سأسمع ذلك طول الغداء. «لقد أخبرناك بذلك، يا بنتي...». حسناً، إنهما لطيفان، يظنان أن ذلك فيه خير لي، أعرف.

- أجل، إنهما لطيفان، لطيفان حقاً.

- وأنت، ماذا ستفعل؟ كيف تظن أن الأمور سوف تجري، في الكلية؟».

رافقتها حتى عتبة الباب؛ وبالفعل، أدركتُ أني لا أملك أية فكرة عن الموضوع؛ كما أدركتُ أني كنتُ أستهين بذلك. قبّلتُ شفتيها بلطف ثم أجبتها: «ليس هناك من إسرائيل لي.» فكرة هزيلة جدا، لكنها فكرة صحيحة. ثم اختفت داخل المصعد.

عقبَ ذلك فاصلٌ زمني من بضع ساعات. كانت الشمس تغيب خلف البنايات الشاهقة حينما انتبهتُ من جديد إلى وعيي التام بذاتي وبالظروف وبكل شيء. كان ذهني قد شرد داخل أرجاء مظلمة تفتقد اليقين، كنتُ أشعر أني حزين حد الموت. كانت جُمَل ويسمانس في رواية الحياة الزوجية ترجع دون توقف، تستحوذ علي، حينذاك أدركتُ بعناء أني لم أعرض على مريم أن تأتي للسكن عندي، والإقامة معاً، لكن سرعان ما أدركتُ بعد ذلك أن المشكل لا يكمن هناك، إن والديها كانا في كل الأحوال على استعداد لكراء غرفة لها، وأن شقتي لا تضم سوى غرفتين، بالتأكيد شقة كبيرة من غرفتين، لكن ذات غرفتين، والعيش معاً كان سوف يؤدي بالتأكيد، على المدى القصير، إلى اختفاء كل رغبة جنسية، ومن شدة ما كنا ما نزال في ريعان الشباب، ما كان ثُنائيُنا ليصمد أمامِ ذلك.

في حقبة قديمة، كان الناس ينشئون أسَراً، حيث بعد تزاوجهم، يكدُّون لبضع سنوات أخرى، ريثما يبلغ أبناؤهم سن الرشد، ثم يلتحقون بخالقهم. أما الآن، فلا يرى اثنان أن من المعقول عيش حياة الأزواج إلا حينما يبلغا العقد الخامس أو

السادس، حينما لا تشعر الأجساد الهرمة والمكَدَّمة سوى بالحاجة إلى معاشرة أليفة، تجلب الاطمئنان وميزتها العفة؛ وأيضاً حينما يسيطر مطبخ المنشأ تماماً على الملذات الأخرى، مطبخ المنشأ ذاك مثلما هو محتفى به مثلاً في كتاب *Escapades de Petitrenaud*. لبعض الوقت، شغلت نفسي بفكرة كتابةِ مقالٍ موجهٍ لصحيفة أشياع القرن التاسع عشر، فيه أقيم الدليل على أن خلاصات ويسمانس المتيقظة، بعد فترة حداثيةٍ طويلة، صارت رائجة من جديد، أكثر من أي وقت مضى، وخير مثال على ذلك كثرة البرامج الناجحة المخصصة للطبخ في كل القنوات، وعلى الأخص لمطبخ المنشأ؛ ثم أدركتُ أني لم تعد لدي الطاقة والرغبة اللازمتين من أجل كتابة مقال، حتى لو كان في نشرة متوارية مثل صحيفة أشياع القرن التاسع عشر. وأدركتُ في الوقت نفسه، بشيء من البلادة غير المصدقة، أن التلفزيون ما يزال مُشَغَّلاً، دائماً على iTélé. أعدتُ الصوت: لقد أنهت مارين لوبين خطابها منذ مدة، لكن الخطاب كان حاضراً في صلب كل التعليقات. هكذا علمتُ أن الزعيمة الوطنية قد دعتْ إلى تظاهرة كبيرة يوم الأربعاء، تجوب الشانزليزي. لم يكن في نيتها طلب الترخيص من مفوضية الشرطة، وفي حال المنع، فقد حذرت السلطات مسبقاً من أن التظاهرة سوف تتم «مهما حدث». وقد ختمت خطابها مقتبسة مادة من إعلان حقوق الإنسان والمواطن، إعلان سنة ١٧٩٣: «عندما تنتهك الحكومة حقوق الشعب، يصبح العصيان بالنسبة للشعب بكل شرائحه، أكثر الحقوق قدسية وأكثر الواجبات حتمية». وبالطبع فإن كلمة عصيان قد أدت إلى الكثير من الشروحات، بل كان من نتائجها غير المتوقعة خروج فرانسوا

أولاند عن صمته الطويل. بعد فترتي حكمه الكارثي الخماسيتين، بما أن إعادة انتخابه ناجمة عن تلك الاستراتيجية التافهة المتمثلة في تعزيز صعود الجبهة الوطنية، فقد تخلى الرئيس المنتهية ولايته تماماً عن الكلام، وبدا أن جل وسائل الإعلام قد نسيت وجوده. وحينما وقف على درج الإليزي، أمام قلة ممن حضر من الصحافيين يناهز عددهم العشرة، فقد قدم نفسه بوصفه «آخر حصن منيع في النظام الجمهوري» فَنَتْ ضحكات خفيفة لكنها مسموعة. بعد ذلك بعشر دقائق تقريباً، قدّم الوزير الأول بدوره تصريحاً. شديد الحمرة، وقد انتفخت أوردة جبينه، بدا وكأنه يشرف على الإصابة بسكتة دماغية، وحذَّر كل الذين يقفون على الطرف النقيض من الشرعية الديمقراطية من أنهم سوف تتم معاملتهم فعلاً وكأنهم خارجون عن القانون. وفي نهاية المطاف، الشخص الوحيد الذي حافظ على برودة أعصابه كان هو محمد بن عباس، الذي دافع عن الحق في التظاهر واقترح على مارين لوبين مناظرة حول العلمانية - وكان ذلك رأياً سديداً، وفق أغلبية المعلقين، مادام أنه كان من المستبعد تقريباً أن تقبل، وهذا يمنحه دون عناء كبير، صورة رجل الاعتدال والحوار.

أصابني الملل في نهاية المطاف وتنقلتُ دون ضبط بين برامج واقعية تافهة عن السُّمنة، قبل أن أطفئ التلفزة نهائياً. الأمر الذي ما يزال يقلقني ويجعلني مشمئزاً بعض الشيء هو قدرة الشأن السياسي على لعب دور في حياتي الشخصية. وكنتُ أدرك رغم هذا، وذلك منذ سنوات، أن الهوة المتسعة، التي صارت سحيقة، بين الساكنة وأولئك الذين يتحدثون باسمهم، من سياسيين وصحافيين، سوف تقود لزاماً إلى ما هو كارثي، وعنيف وغير

متوقع. كانت فرنسا، مثل باقي بلدان أوروبا، تتجه منذ أمد بعيد نحو الحرب الأهلية، كان ذلك بديهيا؛ لكن إلى حدود الأيام الأخيرة هذه كنتُ ما أزال مقتنعاً بأن الفرنسيين في غالبيتهم العظمى، مقيمون على خنوعهم وفتورهم - لا شك لأنني كنتُ بنفسي خنوعاً ومفتراً بعض الشيء. إلا أنني أخطأت التقدير.

لم تهاتفني مريم إلا يوم الثلاثاء مساء، بعد الساعة الحادية عشرة بقليل؛ كان صوتها عذباً، وبدا أنها استعادت ثقتها كاملة في المستقبل: إذ حسبها، سوف تتحسن الأمور سريعاً في فرنسا - أما أنا، فقد كنتُ أشك في ذلك. بل إنها أفلحتْ في الاقتناع بأن نيكولا ساركوزي مقبل على العودة إلى اللعبة السياسية، وأنه سوف يتم استقباله مثلما يستقبَل المخلِّص. لم تكن لدي رغبة في دحض حجَّتها، لكن بدا لي أن ذلك غير مرجح تماماً؛ إذ شعرتُ أن ساركوزي قد تخلى في قرار نفسه، وأنه منذ عام ٢٠١٧، قد طوى نهائياً صفحة تلك الفترة من حياته.

كانت سوف تركب الطائرة في الصباح الباكر لليوم الموالي. وبالتالي ما كان في استطاعتنا أن نرى بعضنا من جديد، قبل انصرافها؛ كان عليها قضاء الكثير من الأغراض - بدءاً من حقيبتها، إذ ليس من السهل حبسُ حياةٍ في ثلاثين كيلوغراماً من الأمتعة. كنتُ أتوقع الأمر؛ ومع ذلك شعرت بوخز خفيف في القلب وأنا أغلق الهاتف. إذ كنتُ أعرف بأني سوف أكون حينها وحيداً جداً.

الأربعاء ٢٥ أيار/ مايو.

ومع ذلك كنت أشعر أن مزاجي رائق تقريباً، في الصباح الموالي، حينما ركبت ميترو الأنفاق للذهاب إلى الكلية - الأحداث السياسية التي شهدتها الأيام الأخيرة، بل حتى رحيل مريم، بدت لي وكأنها حلم مزعج، خطأ سوف يتم تصحيحه سريعاً. كانت دهشتي عظيمة، عند الوصول إلى زقاق سانْتُويْ، لمَّا لاحظتُ أن البوابات الحديدية المؤدية إلى بنايات التدريس كانت مغلقة بإحكام - في العادة يفتحها الحرَس عند الساعة الثامنة إلا ربعاً. كثير من الطلبة الذين ميَّزْتُ من بينهم بعضاً من طلابي للسنة الثانية، كانوا ينتظرون عند المدخل.

لم يظهر أحد الحراس إلا عند الساعة الثامنة ونصف، قادماً من السكرتارية الرئيسة، وقف خلف البوابة الحديدية ليخبرنا أن الكلية مغلقة طول اليوم، وستبقى كذلك حتى إشعار آخر. لم يكن في وسعه أن يخبرنا بما يزيد عن ذلك؛ كان من الواجب علينا العودة إلى بيوتنا، سوف يتم «إشعارنا بصفة فردية». الحارس رجل طيب أسود، سينغالي إن أسعفتني الذاكرة، أعرفه منذ

سنوات، وكنت أستلطفه. أمسكني من ذراعي كي يقول لي إن الوضع صعب، صعب بحق، حسب الأخبار الرائجة بين العاملين، وإنه من المستغرب كثيراً أن تفتح الكلية أبوابها مجدداً في غضون الأسابيع الموالية.

إنها كانت ربما تعلم شيئاً، ماري فرانسواز؛ في الصبيحة حاولتُ مراراً الاتصال بها، ولم أفلح. ولمّا يئستُ، حوالي الساعة الواحدة زوالاً، شغّلتُ التلفزيون الموصول iTélé. وصل مسبقاً الكثير من المشاركين في التظاهرة التي نظمتها الجبهة الوطنية: كانت ساحة الكونكورد، وحديقة التويلري تعِجّان بالناس. حسب المنظمين، كان هناك مليونَا شخص - ثلاثمائة ألف حسب الشرطة. وكيفما كان عددهم، فإنه لم يسبق لي أن شاهدت مثل تلك الحشود.

كانت سحابة مكفهرة، لها هيئة سندان، تغطي شمالِ باريس، من كاتدرائية الساكريكور (القلب الأقدس) إلى الأوبرا، جوانبها الرمادية الدكنة كانت تشوبها سمرة. حوّلت ناظري صوب شاشة التلفزة، حيث كانت تتجمّع حشود عظيمة؛ ثم من جديد صوب السماء. بدت سحابة رعّادة وكأنها تتجه ببطء نحو الجنوب؛ إن أرعدت السماء فوق التويلري، فقد يضطرب بفعل ذلك سيرُ المظاهرة جديا.

عند الساعة الثانية زوالاً بالضبط، ولج الموكب الذي كانت تقوده مارين لوبين الشانزيلزي نحو قوس النصر، هناك حيث قررت مسبقاً إلقاء خطاب على الساعة الثالثة. أوقفتُ الصوت، لكنني تابعتُ للحظة مشاهدة الصورة. لافتة عظيمة تحبس عرض

الشارع كله، عليها كتابة: «نحن شعب فرنسا». وعلى لوحات صغيرة مبثوثة وسط الحشد تمت بكل بساطة كتابة: «نحن في بلدنا» - وقد صار ذلك شعاراً، صريحاً ولا عدوانية مفرطة فيه، يستعمله الحركيون الوطنيون خلال تجمعاتهم. ما زال تهديد العاصفة قائماً؛ كانت السحابة العظيمة حينها معلقة، ثابتة، فوق الموكب. بعد انصرام دقائق معدودة، ضجرتُ، ثم غصت من جديد في رواية المنبوذ.

ردت علي ماري فرانسواز بعد الساعة السادسة مساء بقليل؛ لم يكن لديها علم بشيء يستحق الذكر، لقد اجتمع المجلس الوطني للجامعات في اليوم السابق، لكن لم يرشح عنه أي خبر. إلا أنها كانت على كل حال متأكدة من أن الكلية لن تفتح أبوابها مجدداً إلا بعد نهاية الانتخابات، وعلى الأرجح إلا بعد الدخول المدرسي - وفي الإمكان تأجيل الامتحانات حتى شهر أيلول/ سبتمبر. وبصفة أعم، بدا لها الوضع حرجاً؛ الظاهر أن زوجها كان قلقاً، منذ بداية الأسبوع، وهو يقضي أربع ة ساعة يومياً في مكتبه بالمديرية العامة، ونام هناك في الليلة السابقة. أقفلتْ الهاتف واعدة إياي أن تتصل بي إن علمتْ أكثر من ذلك.

لم يعد عندي طعام بتاتا، كما لم تعد لي رغبة في الذهاب إلى جِيّانْ كازينو، لأن مستهل الليل لم يكن ساعة مناسبة للقيام بالتسوق في هذا الحي الشعبي، لكني كنتُ أشعر بالجوع، وفوق ذلك، كنت أرغب في شراء المآكل، مرق لحم العجل، سمّاناة بالبقدونس الإفرنجي، المُسقعة البربرية؛ أطباق الميكروويف، الموثوق في خلوها من أي طعم، لكن ذات التعليب الملون

والمفرح، تُمثل رغم ذلك تقدماً حقيقياً مقارنة مع مصائب أبطال ويسمانس المؤسفة؛ لم يكن في الوسع استشفاف أي خبث فيها، ويمكن للشعور بالاشتراك في تجربة جماعية محبطة، لكن منصفة، أن يمهد الطريق لخضوع جزئي.

والغريب أن السوق الممتاز كان فارغاً أو يكاد، ملأتُ عربتي الصغيرة بسرعة كبيرة، يدفعني حماس ممزوج بالخوف؛ ودون سبب محدد عبرتْ كلمة «حظر التجول» خاطري. كانت بعض الصرّافات الجالسات صفّاً خلف مصارفهن الخالية يستمعن، كلٌّ منهن، إلى مذياعها الترانزستور: كانت المظاهرة مستمرة، وحتى ذلك الحين لم يُسَجَّل أي حادث مستنكَر. سوف يقع ذلك لاحقاً، بعد تفرق الحشود، قلتُ محدثاً نفسي.

انهلَّ المطر، بشدة، حينما خرجتُ من المركز التجاري. لما عدتُ إلى البيت، سخَّنتُ لسان عجلٍ بمرقِ مادِيرا، لسان ممطط، لكنه مقبول، وشغلتُ التلفزيون من جديد: لقد بدأت المواجهات، في الإمكان رؤية مجموعات من الرجال المقنعين، يتحركون بسرعة، مسلحون ببنادق هجومية ومسدسات رشاشة؛ تعرضت بعض الواجهات للكسر، سيارات محروقة هنا وهناك، لكن الصور الملتقطة تحت وابل الأمطار، كانت رديئة، وكان من المستحيل أن يقر رأي المرء بوضوح حول القوى الحاضرة في الميدان.

III

الأحد ٢٩ أيار/ مايو.

استيقظت حوالي الساعة الرابعة، صافيَ الذهن متأهّبه؛ أخذتُ وقتي في تجهيز حقيبتي بعناية، وجمع أغراضِ صيدلية محمولة، وملابس بديلة تكفي لشهر؛ بل عثرت حتى على أحذية للمشي - أحذية أمريكية ذات تقنية عالية جداً لم يسبق لي استعمالها، كنتُ قد اشتريتها سنة من ذي قبل متخيلاً حينذاك أني سوف أتعاطى التجوال مشياً على القدمين. أخذت معي أيضاً حاسوبي المحمول، ذخيرة من قضبان الشوكولا المعلبة بالبروتينات، إبريقاً كهربياً والبُنّ سريع الذوبان. في الساعة الخامسة والنصف، كنتُ مستعدا للرحيل. انطلقت سيارتي دون صعوبة، كانت أبواب باريس خالية؛ في السادسة، اقتربتُ أصلاً من رامْبُويِي. لم يكن لدي أي مشروع، ولا وِجهة محددة؛ فحسب الإحساس المبهم جداً، بأن من مصلحتي التوجه نحو الجنوب الغربي؛ بأنه لو قُدِّر أن تندلع حرب أهلية في فرنسا، فإنها ستستغرق الكثير من الوقت حتى تطال الجنوب الغربي. لم أكن أعرف في حقيقة الأمر أي شيء تقريباً عن الجنوب الغربي،

ما خلا أنه منطقة يؤكل فيها لحمُ البطّ المعسَّل؛ وكان يبدو لي أن معسل البطّ لا يتناسب كثيراً مع الحرب الأهلية. على أي، قد أكون مجانباً للصواب.

بصفة عامة، لم أكن أعرف فرنسا كثيراً. بعد قضاء الطفولة والمراهقة في مِيزُون لافّيت، ضاحية الطبقة المتوسطة بامتياز، أقمتُ في باريس، ولم أغادرها أبداً؛ لم يسبق لي بكل صدق أن سحت في هذا البلد الذي أنا من مواطنيه، على نحو نظري شيئاً ما. هفت نفسي إلى فعل ذلك، والشاهد شراء تلك الفولسفاكن طوارق، المتزامنة مع شراء أحذية التجوال. مركبة قوية، لها محرك ٨ أحصنة ديزل بـ ٢,٤ لتر ذو حقن مباشر بالقيادة المشتركة يسمح لها بتجاوز الـ ٢٤٠ كلم/س؛ مصنعة للمسافات الطويلة في الطرق السيارة، وهي فضلا عن ذلك ذات قدرات حقيقية في الطرق الوعرة. لعلي تخيَّلت في تلك الفترة قضاء نهايات أسابيع، والتنزه في المسالك الغابوية؛ لكن لم يحدث أي شيء من هذا في آخر المطاف، واكتفيتُ، أيام الآحاد، بكوني زبوناً وفيّاً لسوق الكتب القديمة بحديقة جورج براسانس. أحياناً، ولحسن الحظ كذلك، خصصت أيام الآحاد للمضاجعة - أساسا صحبة مريم. لو أنني لم أكن أضاجع مريم، بين فينة وأخرى على الأقل، لكانت حياتي سطحية وبائسة بشدة. توقفت في باحة البحيرات الألف، الواقعة مباشرة بعد مخرج شاتورو؛ اشتريتُ كعكة مقرونة بالشوكولا وفنجان قهوة كبيراً بمحل لاكرواسانتري، ثم جلست خلف مقود سيارتي حتى تناول هذا الفطور وأنا أفكر في ماضيَ أو في لا شيء. كان موقف السيارات يطل على البادية المجاورة، الخالية إلا من بضعة أبقار - الأرجح أنها من أصل شارُولي. كان

النهار قد طلع أصلاً، لكن كتلاً من الضباب كانت ما تزال تطفو حينها فوق المروج الظاهرة في الأسفل. كان المنظر متموّجاً، بالحري جميلاً، لكن لا تُرى أية بحيرة - ولا نهر. أما المستقبل، فقد بدا من الحكمة عدم التفكير فيه.

شغّلت راديو السيارة: لقد بدأت العمليات الانتخابية، وهي تجري على نحو عادي، كان فرانسوا هولاند قد قام بالتصويت مسبقاً في «حصنه الكُوريزي». لقد ارتفع معدل المشاركة، إنْ وسِعَنا الحكم عليه في مثل هذه الساعة الباكرة، أعلى من الاستشارات الرئاسية السابقة. واعتبر بعض المحللين السياسيين أن معدل المشاركة المرتفع يخدم «أحزاب الحكومة» على حساب الأحزاب المتطرفة؛ لكن غيرهم، لهم شهرة مماثلة، رأوا العكس تماماً. وبالجملة، لم يكن في الوسع إبّانها استخلاص أي شيء من معدل المشاركة، كما كان من المبكر قليلاً الاستماع إلى الراديو؛ لذا أطفأته قبل مغادرة الموقف.

بعد انطلاقي من جديد بقليل، أدركتُ أن مؤشر الوقود كان منخفضاً، تقريباً ١\٤؛ كان ينبغي لي ملء الخزان في المحطة. أدركت أيضاً أن الطريق السيار كان خالياً على غير العادة. صباح الأحد لا يكون هناك الكثير من الناس على الطريق السيار، في هذا الوقت يسترد المجتمع أنفاسه، وتسترخي أوداجه، حيث يتوهم أعضاؤه لفترة وجيزة أن لهم وجوداً فردياً. ومهما كان الأمر، لقد مرَّت ربما مائة كيلومتر لم أتجاوز خلالها ولم أصادف سيارة أخرى، لقد تفاديت فحسب شاحنة ثقيلة بلغارية، كانت تتلوى بين خط اليمين وشريط التوقف الاستعجالي، من شدة

التعب. كان كل شيء ساكناً، كنتُ أمرُّ على طول بإشارات الأكياس الهوائية ذات اللونين التي تحركها ريح خفيفة؛ والشمس تشع فوق المروج والغابات كأنها عامِل طيّب وفيّ. شغلت الراديو من جديد، لكن دون جدوى هذه المرة؛ كل المحطات المبرمجة مسبقاً في جهازي، مِن France Info إلى EUROPE 1 مروراً بـ Radio Monte-Carlo و RTL، وغدا الإرسال طنيناً مختلطاً من التشويش. شيء ما كان يحدث في فرنسا، كنتُ على يقين من ذلك؛ وكان في وسعي رغم ذلك الاستمرار في عبور شبكة الطريق السيار الفرنسية بسرعة ٢٠٠ كلم/س، وربما كان ذلك هو الحل الأنسب، وكان يبدو أن لا شيء يسير على ما يرام في هذا البلد، ربما كانت الرادارات معطلة هي الأخرى، إن واصلت بهذه السرعة سوف أكون حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال بمعبر جُونْكِي الحدودي، ما إن أصل إلى إسبانيا، سيكون الوضع مختلفاً، والحرب الأهلية بعيدة شيئاً ما، كان ذلك الأمر مسعى مستحقاً. إلا أنه لم يكن لدي بنزين: أجل، ذاك مشكل وجب حله، بكل استعجال، كان يتوجب عليَّ العناية به عند المحطة الموالية.

وقد كانت محطة بِيشْمُونْتا. لم يكن هناك ما يجذب كثيراً، على لوحات الإخبار: لا مطعمة ولا منتوجات محلية، محطة مقترة، مكرَّسة للبنزين الخالص؛ لكن لم يكن في وسعي انتظار الوصول إلى لوجاردان دي كوس دو لو، الواقعة على بعد خمسين كيلومتراً جهة المصبّ. استعدت رباطة جأشي لما عنَّ لي أنه في وسعي الوقوف للتزود في بيشمونتا، يتبعه وقوف للمتعة في كوس دو لو، هناك حيث قد أشتري بعض كبد الإوز، وجبن الكابيكو،

وخمر الكاهور، التي سوف أستلذها المساء نفسه بغرفتي في الفندق على ساحل الكوستا برافا؛ لقد كان مشروعاً كاملاً، له معنى، مشروع قابل للتحقق.

كان فضاء موقف السيارات خالياً، وأدركتُ سريعاً أن شيئاً ما ليس على ما يرام؛ خفضت السرعة إلى حدها الأدنى ثم تحركت، بحذر كبير، حتى محطة الوقود. كانت الواجهة الزجاجية منفجرة، ونثار شظايا الزجاج يغطي الإسفلت. غادرتُ سيارتي، دنوتُ: داخل المحل، كانت الواجهة الزجاجية حيث المشروبات الباردة محطَّمة بدروها، ورفوف الصحف مقلوبة. وجدتُ أمينة الصندوق منبطحة على الأرض وسط بركة من الدم، ذراعاها مشدودتان حول صدرها في حركة غير مجدية للاحتماء. كان الصمت شاملاً. توجهتُ صوب مضخات البنزين، إلا أن تشغيلها كان معلّقاً. لابد أن إعادة تشغيلها كانت تتم انطلاقاً من صندوق التحصيل. رجعتُ صوب المتجر، وتخطيتُ الجثة على مضض، لكنني لم أعثر على أية وسيلة يبدو أنها تتحكم في توزيع الوقود. بعد تردد وجيز تناولتُ من على الرفوف شطيرة محشوة بالتونة والخضرة، وجعة خالية من الكحول، ودليل مِيشْلانْ.

من ضمن الفنادق التي ينصح بها الدليل في المنطقة، الفندق الأقرب وهو لُرُولِي دي هو كِيرْسي، يقع في مازْتِيل؛ كان يكفيني اتباع الطريق D 840 لحوالي عشر كيلومترات. لمّا انطلقتُ من جديد نحو المخرَج، بدا لي أني رأيتُ جسدين ممدَدين قرب موقف الشاحنات الثقيلة. ترجلتُ من السيارة مرة أخرى ودنوتُ: فعلاً هناك شابّان مغاربيان، بلباس موحد مميز لسكان الضواحي،

تم إطلاق النار عليهما؛ لقد سال منهما القليل من الدم، لكن لا جدال في أنهما كانا ميتان؛ كان أحدهما ما يزال يمسك بيده مسدّساً رشّاشاً. ما الذي حدث هنا يا ترى؟ ومن باب الاحتياط، حاولتُ من جديد التقاط محطة راديو، إلا أني، هذه المرة أيضاً، لم أحصل سوى على أزيز مبهم من التشويش.

وصلتُ إلى مارتيل دون عناء بعد ذلك بربع ساعة، كانت الطريق الجهوية تعبر منظراً طبيعياً مزهراً، مشجراً. حتى ذلك الوقت لم أصادف أية سيارة أخرى، وشرعتُ في التساؤل حقيقة؛ ثم حدّثت نفسي بأن الناس يحبسون أنفسهم دون شك في بيوتهم تماماً للأسباب ذاتها التي دفعتني إلى مغادرة باريس: حدسُ كارثة وشيكة.

لو رولي دي هو كيرسي، كان عبارة عن بناية كبيرة من الحجر الجير الأبيض، ذات طبقتين، تقع شيئاً ما بمعزل عن القرية. انفتحت البوابة الحديد بصرير خفيف، جُزتُ فضاء مرصوفاً مغطى بالحصى الدقيق، صعدت بضع درجات حتى الاستقبال. لم يكن هنالك أحد. خلف المكتب، كانت مفاتيح الغرف معلقة إلى لوح؛ لا ينقص منها مفتاح واحد. ناديتُ مرات عديدة بصوت عال، فأعلى، ولم أحصل على جواب. خرجتُ من جديد: في الجهة الخلفية من البناية هناك سطحٌ مرصوف تحفه حديقة ورود، وموائد صغيرة مستديرة، وكراسي حديدية مزخرفة، ولا بد أنه كان يُستعمل أوقات الفطور. تبعت درباً على جانبيه شجيرات الكستناء لما يقارب خمسين متراً قبل أن أصل فناء معشوشباً يطل على البادية المحيطة، حيث كراسي استرخاء ومظلات تنتظر زبائن

مفترضين. لبضع دقائق، تأملت المشهد، الكثير الوِهاد والهادئ، قبل العودة إلى الفندق. وحينما أشرفتُ على السطح المرصوف خرجت منه امرأة، شقراء في الأربعين، ترتدي كسوة طويلة من الصوف رماديٌ لونُها، شعرها معصوب: ارتعدت لما رأتني. «المطعم مغلق»، لفظتْ، باحتراز. أخبرتها أني أبحث فحسب عن غرفة. «ولا نقدم وجبات الفطور»، قالت مؤكدة كذلك ثم أقرّت، على مضض كان ظاهراً، بأن لديها غرفة.

صحِبتني حتى بلوغ الطبقة الأولى، فتحتْ باباً ثم ناولتني قطعة ورق صغيرة جداً: «تُغلق البوابة عند الساعة الثامنة مساء، إن رجعتم بعدها تحتاجون إلى الشفرة» قالت ثم ابتعدت ولم تزد عما قالته.

بعد فتح النوافذ، لم تعد الغرفة بذلك القدر الذي لا يسرّ الناظر، ما خلا ورق الجدران المصبوغ بزخارفه الأرجوانية الدكنة التي تمثل مشاهد للصيد. حاولتُ دون جدوى مشاهدة التلفزيون: لم تكن هناك أية إشارة على كل القنوات، بل فقط عدد لا حصر له من النقط السوداء والبيضاء المتداخل بعضها في بعض كالنَّمل. والإنترنت لم يكن يعمل بدوره: كان هنالك الكثير من الشبكات يبتدئ اسمها بكلمة Bbox أو SFR - على الأرجح تعود لأهل القرية - ولا أحد منها يذكر لورولي دي هو كيرسي. داخل درج عثرت على ورقة معلومات موجهة للزبائن بها تفاصيل عن مناطق الجذب السياحي في القرية، وبها أيضا توجيهات حول فن الطبخ الكيرسوي؛ لكن ولا شيء عن الإنترنت. يظهر أن الزبائن لم يكن من مشاغلهم الرئيسة الحفاظ على روابط الاتصال.

بعدما رتَّبتُ متاعي، وعلَّقتُ الملابس المعدودة التي حملت

معي إلى مشاجب، ثم وصلتُ الإبريق وفرشاة الأسنان الكهربية بالتيار، شغَّلتُ هاتفي المحمول كي ألحظ أن ليس لدي أية رسالة، بعد كل ذلك، أخذتُ أتساءل عمّا أصنع هناك. هذا السؤال العام جداً، قد يطرحه أي إنسان، في أي موضع كان، في أية فترة كانت من حياته؛ لكن ينبغي الإقرار أن المسافر الوحيد معرّض له على نحو خاص. لكن لو كانت مريم بجنبي، ما توفر لي ما يكفي من الأسباب، بصدق، لأكون في مارتيل؛ ولا كان للسؤال بكل بساطة من وارد. إن الزوج الثنائي بمثابة عالَم، عالَم مستقل بذاته ومغلق يتحرك داخل عالم أوسع، دون أن يصيبه منه شيء، في الحقيقة؛ وحيداً، كانت تخترقني الثغرات، وقد تطلب مني الخروج لزيارة القرية بعض الشجاعة، بعد أن وضعتُ ورقة المعلومات في جيب من سترتي.

وسط ساحة القناصل توجد رحبةُ الزرع، قديمة حسبما هو ظاهر، لم أكن أعرف تقريبا أي شيء عن المعمار، لكن البيوت حولها، المشيَّدة بحجارة صهباء تسر الناظرين، كانت تعود بكل بداهة إلى قرون عديدة، لقد سبق لي مشاهدة أشياء من هذا القبيل في التلفزيون، عموماً في برامج من تقديم ستيفان بيرن، وكان الأمر في الواقع على القدر نفسه من الحسن، بل أحسن، كان أحد البيوت كبيراً جداً، أقرب إلى القصر، أقواسه مُعَقَّدة وله أبراج صغيرة، حينما دنوتُ منه، لحظتُ أن فندق لاَرِيمُونْدِي قد تم بناؤه بالفعل بين عامي ١٢٨٠ و١٣٥٠، وأن مِلكيته تعود في الأصل إلى آل فيكونت تُورِين.

وكانت بقية القرية بالمثل، ثم تبعت أزقة رائعة وخالية حتى وصلتُ كنيسة سان مور، الهائلة، تكاد تخلو من النوافذ؛ كنيسة

محصّنة، شُيِّدت لصدّ هجمات غير المخلصين، وقد كانوا كثرة، كما خبَّرتني ورقة المعلومات.

الطريق الجهوية D 840 العابرة للقرية كانت تواصل وجهتها صوب روكمادور. لقد سبق أن سمعت بروكمادور، كانت وجهة سياحية معروفة، مقرونة في دليل ميشلان بعدد كبير من النجوم، بل وتساءلت إن لم أكن قد شاهدت روكمادور سابقاً، في أحد برامج ستيفان بيرن، لكنها تقع على بعد عشرين كيلومتراً، لذا فضلتُ سلك طريق جهوية صغيرة وملتوية أكثر تقود إلى سان دوني لي مارتيل. ومائة متر أبعد من هناك، وقعتُ على مَرْقَبة صغيرة من الخشب الملوَّن، تَعرض تذاكر قطار بُخاري سياحي يعبُر وادي الدُّورْدُونْ. كان يبدو ذلك مثيراً للاهتمام؛ ولعله كان من الأفضل لو كنا زوجاً، هذا ما رددته على نفسي بلذاذة قاتمة؛ على أية حال، لم يكن هناك أحد في المرقبة. كانت مريم قد وصلت إلى تل أبيب منذ بضعة أيام، لاشك أن الوقت أسعفها للاستعلام عن التسجيل في الكلية، وربما قد أخذت ملفاً، أو أنها اكتفت بالذهاب إلى الشاطئ، لطالما أحبت الشاطئ، لم يسبق لنا أن ذهبنا معاً في عطلة، حدثت نفسي، لم يسبق أبداً أن كنت ماهراً في اختيار وجهة ما، للحجز، كنت أزعم أني أحب باريس إبان شهر غشت، لكن الحقيقة أني كنت عاجزاً بكل بساطة عن مغادرتها.

دربُ ترابي يمتد على طول السكة الحديدية من الجهة اليسرى. بعد مسافة كيلومتر واحد صعوداً لعقبة هيِّنة وسط غابة كثيفة، وصلتُ إلى مرتفع، فيه لوحة للاتجاه؛ رسمٌ بيانيٌّ يمثل آلة تصوير بمنفاخ يؤكد المقصد السياحي للاستراحة.

كان نهر الدوردون يجري في الأسفل، يضيِّق عليه جُرفان كِلسيان يبلغ علوهما خمسين متراً تقريباً، ويواصل مصيره الجيولوجي على نحو لا يستبين. كانت المنطقة مأهولة منذ أزمنة ما قبل التاريخ الغابرة، هذا ما تبيَّنْتُه من لوحة المعلومة التربوية؛ إذ عمد فيها إنسان الكرومانيون تدريجياً إلى طرد إنسان النيوندرتال، الذي تراجع حتى إسبانيا قبل أن يندثر.

جلستُ عند حافة الجرف، سعياً مني للامحاء في تأمل المشهد، دون نجاح يذكر. بعد مرور نصف ساعة، أخرجتُ هاتفي وطلبتُ رقم مريم. بدتْ دهِشة، لكن مسرورة بسماع صوتي. كل شيء على ما يرام، قالت لي، لديهم شقة لطيفة، مشرقة، تقع وسط المدينة؛ كلا، لم تهتم بعد بتسجيلها في الكلية؛ وأنا، كيف هي أحوالي؟ جيدة، قلتُ كاذباً؛ كنتُ أفتقدها كثيراً مع ذلك. أخذتُ منها وعداً بأن تبعث لي رسالة إلكترونية طويلة جداً، تحكي لي فيها كل شيء، في أقرب وقت ممكن - قبل أن أتذكر بأني لم أكن أتوفر على ربط بالإنترنت.

لطالما كرهتُ محاكاة أصوات القُبَل في الهاتف، وحتى حينما كنت شاباً، كان يشق علي فعل ذلك، وبما أني جاوزتُ الأربعين بدا لي ذلك سخيفاً بكل صراحة؛ إلا أني أذعنت للأمر، لكن ما إن أغلقت الهاتف حتى أحسست بوحدة رهيبة تجتاحني، وأدركتُ بأني لم أجد أبداً ما يكفي من الشجاعة للاتصال بمريم من جديد، إن الإحساس بالقرب الذي يخيم علينا في الهاتف كان مفرطاً في عنفه، والفراغ الذي يليه، مفرطاً في قسوته.

بكل بداهة كان محكوماً بالفشل على سعيي إلى الاهتمام

بجمال المنطقة الطبيعي؛ ومع ذلك عاندتُ بعض الشيء، وحلّ الليل حينما يمّمت شطر مارتيل. كان رجال الكرومانيون يصطادون الماموث والإيّل؛ أما رجال اليوم فقد كان لهم الخيار بين سوق Auchan وسوق Leclerc، ويقعان معاً في بلدة سُويَاكْ. المتجران الوحيدان في القرية عبارة عن مخبزة - مُغلَقة - ومقهى يقع في ساحة القناصل، بدا أنه مغلق أيضاً، لم يتم وضع أي طاولة في الساحة. ومع ذلك، كان هناك ضوء خافت مقبل من الداخل، دفعتُ الباب ودخلتُ.

كان هناك زهاء أربعين رجلاً يتابعون في صمت مطبق تقريراً للبي بي سي نيوز يعرضه تلفاز وُضِع عالياً في أقصى القاعة. لم يتفاعل أحد مع مقدمي. الظاهر أنهم من أهالي البلدة، كلهم متقاعدون عن العمل تقريباً، ويبدو على الآخرين أنهم عمّال يدويون. منذ أمد طويل لم تسنح لي الفرصة للحديث بالإنجليزية، كانت عجلة كلام المعلّق مفرطة السرعة، ولم أكن أفهم شيئاً يذكر مما يقال؛ كما لم يكن بادياً أن بقية المتفرجين أحسن حالاً منّي، بكل صدق. خلَتِ الصور المأخوذة عن مناطق مختلفة جداً - ميلوز، تْرابْ، ستانس، أورياك - من أية أهمية ظاهرة : قاعات متعددة الاختصاصات، مدارس أطفال، وقاعات رياضة خالية. ولإعادة تسلسل الأحداث كان عليّ انتظار مداخلة مانويل فالس، الذي تم تصويره من أمام قصر ماتينيون، شحبٌ لونه وقد سُلِّطَ عليه ضوء شديد مفرط: لقد تم الهجوم على ما يناهز عشرين مكتباً للتصويت، في كامل التراب الفرنسي، من طرف عصابات مسلحة في مستهل الظهيرة. لم يسقط هناك ضحايا، لكن سُرِقَ عدد من صناديق الاقتراع؛ لم تقم أية جهة بتبني هذه الهجمات حتى ذلك

الأوان. وفي مثل تلك الظروف، لم يكن أمام الحكومة من خيار سوى وقف العملية الانتخابية. وتَقرَّر لاحقاً في المساء عقد اجتماع لإدارة الأزمة، وإعلان رئيس الحكومة عن التدابير الملائمة؛ وقد ختم كلامه بما يكفي من الفتور أن القوة ستظل لقانون الجمهورية.

الاثنين ٣٠ أيار/مايو.

صحوتُ نحو السادسة صباحاً كي ألحظ أن التلفاز كان يعمل من جديد: كان استقبال iTélé رديئاً، أما الذي يخص BFM فقد كان مقبولاً تماماً؛ كل البرامج كانت مخصصة بالطبع لأحداث اليوم السابق. أكد المعلقون على هشاشة العملية الديمقراطية، تلك الهشاشة القصوى؛ لأن مدونة الانتخابات كانت صارمة: إذا تعذر الحصول على نتائج مكتب واحد للتصويت، في مجموع فرنسا، بات ذلك كافياً لإلغاء الانتخابات بأكملها. كما أكدوا أنها المرة الأولى التي فكرت فيها شرذمة في استغلال هذه الثغرة. وفي وقت متأخر من الليل، أعلن الوزير الأول عن إجراء انتخابات جديدة بدءاً من يوم الأحد الموالي؛ ولكن هذه المرة، فإن جميع مكاتب التصويت ستكون تحت حماية الجيش.

وبخصوص المضاعفات السياسية لتلك الأحداث، فإن المعلقين، هذه المرة، كانوا على شقاق تام، وتابعتُ حججهم المتضاربة مدة قسط كبير من الصبيحة، قبل النزول إلى الحديقة، وبِيَدِي كتاب. لم تكن الصراعات السياسية على عهد ويسمانس

قليلة: لقد وقع أول الانقلابات الفوضوية؛ وكانت هناك أيضاً السياسة المعادية للكنيسة التي نهجتها حكومة «الأب كومْب الصغير»، والتي لا قِبَل للناس اليوم بدرجة عنفها، إذ وصلِ الحد بالحكومة إلى انتزاع ممتلكات الكنيسة وتفتيت التجمعات الكنسية. وهذا الأمر الأخير حزَّ في نفس ويسمانس، وأجبره على مغادرة دير ليغوجي حيث ملجأه؛ ومع ذلك لم يكن لذلك شأن كبير في أعماله، إذ يبدو أن القضايا السياسية في مجملها لم تستأثر باهتمامه.

أحببت على الدوام ذلك الفصل من رواية «القهقرى» حيث إن ديزيسانت، بعد أن فكّر في السفر إلى لندن مستلهماً في ذلك إعادة قراءته لديكنز، وجد نفسه عالقاً في خمّارة بزقاق أمستردام، عاجزاً عن مغادرة مائدته. «يقيّده نفورٌ كبيرٌ من السفر، وحاجة عظيمة إلى أن يلزم مكانه...». على الأقل تمكنتُ من مغادرة باريس، على الأقل وصلتُ إلى منطقة اللُّو le Lot، حدَّثت نفسي متأملاً أغصان شجيرات الكستناء يحركها النسيم بلطف. كنت أعلم أني قمت بما هو أصعب: المسافر الوحيد يستدعي أولاً الحذر، بله العدوانية، لكن شيئاً فشيئاً يتعود الناس، أصحاب الفنادق كما المطاعم، إذ يحدثون أنفسهم بأنهم يتعاملون في نهاية المطاف مع شخص فريد غير مؤذ إجمالاً.

وبالفعل، حينما رجعتُ إلى غرفتي في مستهل الظهيرة، وجهت لي مدبِّرة الفندق تحية فيها قسط من الحرارة، وأخبرتني أن المطعم سوف يفتح أبوابه المساء عينه. كان ثمة زبائن جدد، زوجان إنجليزيان في الستين، للزوج مظهر المثقف، بل الأستاذ الجامعي، كان من النوع الذي يزور دون شفقة دور العبادة الأشد

نائياً، لا يضاهي أحد معرفته بالفن الروماني لمنطقة كيرسي وبتأثير مدرسة مواساك، ولا يواجه المرء أية مشاكل مع هؤلاء الناس.

كانت كل من iTélé أو BFM تتوسع في العواقب السياسية لتأجيل الدور الثاني من الانتخابات الرئاسية. وكان المكتب السياسي للحزب الاشتراكي يعقد اجتماعه، وكذلك المكتب السياسي للأخوة المسلمة، بل حتى المكتب السياسي للتجمع من أجل حركة شعبية UMP رأى من الحكمة أن يجتمع. الصحافيون، وهم يكثرون البث المزدوج بين زقاق سولفرينو، وزقاق فوجيرار وزقاق ماليرب، كانوا يفلحون بما يكفي في إخفاء أنهم لا يتوفرون على أي خبر حقيقي.

خرجت مجدداً حوالي الساعة الخامسة زوالاً: كان يبدو أن الحياة تدب شيئاً فشيئاً في القرية، المخبزة مفتوحة، والمارَّة يعبرون ساحة القناصل؛ كانوا يشبهون تقريباً ما كان في وسعي تخيله لو أني أردتُ تمثل سكان قرية صغيرة من قرى اللّو. في مقهى الرياضيين كان الرواد قلّة، وبدا أن الأخبار السياسية قد انطفأ وهجها المثير للفضول، إذ كان التلفاز الموضوع أقصى القاعة مثبتاً على قناة تلفزيون مونتي كارلو. كنت قد أفرغت للتو جعَّتي حينما بدا لي تمييز صوتٍ. استدرتُ: كان ألان تانور، أمام صندوق الأداء، يؤدي ثمن علبة سيكار بنكهة البن المخلوط بالحليب؛ كان يتأبط كيس مخبزة تبرز منه قطعة خبز تقليدي. التفتَ زوج ماري فرانسوا هو الآخر؛ وتكوَّر وجهه بفعل إيماءة تعجب.

لاحقاً، وأمامي جعة أخرى، شرحتُ له أني هناك من باب الصدفة، وقصصت عليه ما شاهدته في محطة الوقود بِيشْمُونْتا.

أنصت إلي بانتباه، ولم يظهر دهشة حقيقية. «لقد استشعرتُ ذلك...» قال بعدما أنهيت حكايتي. «كنت أشك أنه فضلاً عن الهجمات على مكاتب التصويت، هناك مواجهات، لم تتحدث عنها وسائل الإعلام؛ وبالتأكيد وقع منها الكثير في فرنسا...».

وجوده في مارتيل لم يكن وليد الصدفة في شيء: يمتلك هناك بيتاً، كان فيما قبل ملكاً لوالديه، إنه ابن البلد، وفي مارتيل ينوي تمضية تقاعده عن العمل، في القريب العاجل. لو قدر للمرشح المسلم الفوز، فقد كانت ماري فرانسوا متأكدة من أنها لن تظفر مجدداً بكرسيها، إذ لا يمكن لأي منصب في التدريس أن تشغله سيدة في جامعة إسلامية، فتلك استحالة تامة. وماذا عن منصبه هو في الإدارة العامة DGSI؟ «لقد تم عزلي» قال لي بغضب مكتوم.

«لقد عُزِلتُ صباح يوم الجمعة، أنا وفريقي كله»، تابع قائلاً. «حدث ذلك بسرعة شديدة، أفسحوا لنا ساعتين لإخلاء مكاتبنا.

- وهل تعرف لماذا؟

- أي نعم! أي نعم، أعرف لماذا... يوم الخميس وجهتُ تقريراً إلى رؤسائي، يحذرهم من أن أحداثاً قد تقع في أماكن مختلفة من البلاد؛ أحداث هدفها منع إجراء الانتخابات في صورتها العادية، وبكل بساطة لم يفعلوا شيئاً؛ وتم عزلي في اليوم الموالي.» أفسَحَ لي من الوقت حتى أهضم الخبر ثم ختم قائلاً: «إذاً؟... إذاً، ما هي الخلاصات التي قد نخرج بها من ذلك، في نظرك؟

- هل تقصد القول إن الحكومة كانت تأمل أن تتوقف العملية الانتخابية؟»

هز رأسه بتؤدة. «لن أستطيع إقامة الدليل على ذلك أمام لجنة تحقيق. . . لأن تقريري لم يكن دقيقاً إلى أقصى حد. مثلاً كنتُ على يقين بعد فحص مذكرات المخبرين الذين لدي من أن شيئاً كان سيحدث في ميلوز، أو في ضاحيتها؛ لكن لم يكن في وسعي بتاتاً القول إن كان ذلك سيحدث في مكتب التصويت ميلوز ٢، ميلوز ٥، أو ميلوز ٨، لأن حماية كل تلك المكاتب كانت تتطلب تسخير وسائل مهمة؛ والأمر كذلك بالنسبة لكل المحاور المهدَّدة. كان في وسع رؤسائي أن يحتجوا بأنها ليست المرة الأولى التي تكون المديرية العامة عرضة للتهويل في دق ناقوس الخطر؛ وباختصار، ركبوا مخاطرة مقبولة. لكن قناعتي، وأنا أكرر لك ذلك، مغايرة لذلك بكثير. . .

- هل تعرف مصدر هذه الأعمال؟

- هو بالضبط ذاك الذي يمكن لك تخيله.

- المتعصبون لوحدة الهوية؟

- المتعصبون لوحدة الهوية، أجل، لهم نصيب. وأيضاً، جهاديون شباب مسلمون؛ لهم نصيب مماثل تقريباً.

- وتظن أن لديهم صلات بالأخوة المسلمة؟

- كلَّا.» حرَّك رأسه بحزم. «لقد أمضيت خمس عشرة سنة من حياتي في التحقيق حول الموضوع؛ لم نستطع أبداً إقامة أدنى صلة، أدنى اتصال. الجهاديونَ سلفيون ضالّون، يلجؤون إلى العنف بدل جعل ثقتهم في الوعظ، لكنهم مع ذلك سلفيون، وفرنسا في نظرهم أرض جحود، دار كفر[1]؛ وفي نظر الأخوة

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

المسلمة، خلافاً لذلك، فإن فرنسا أصبحت أصلاً جزءاً من دار الإسلام[1]. ولكن على الأخص بالنسبة للسلفيين فإن مصدر كل سلطة يأتي من الله، بل حتى مبدأ التمثيل الشعبي هو كفر، ولن يدور بخلدهم أبداً تأسيس أو دعم حزب سياسي. مع قول هذا، حتى لو أنهم منجذبون إلى الجهاد العالمي، فإن الشباب المسلم المتطرف يأملون في أعماقهم انتصار ابن عباس؛ إنهم لا يؤمنون بذلك، ويظنون أن الجهاد هو الطريق الوحيد، لكنهم لن يسعوا إلى منعه. وكذلك الشأن بالضبط في ما يخص الجبهة الوطنية والمتعصبين لوحدة الهوية. بالنسبة لهؤلاء المتعصبين، الطريق الحقيقي الأوحد، هي الحرب الأهلية؛ لكن البعض منهم كان قريباً من الجبهة الوطنية قبل أن يتطرف، ولن يقدموا على شيء قد يسيئ إليهم. منذ نشأتهما، اختارت الجبهة الوطنية والأخوة المسلمة طريق صناديق الاقتراع؛ لقد اختاروا رهان أن في وسعهم الوصول إلى السلطة باحترام قواعد اللعبة الديمقراطية. والعجيب... بل والمضحك إن نحن أردنا القول، هو أنه منذ أيام معدودة أصبح المتعصبون الأوربيون لوحدة الهوية والجهاديون الإسلاميون على اقتناع، كل من جانبه، بأن الخصم هو مَن سوف يفوز - وبأن لا خيار لديهم سوى وقف العملية الانتخابية الجارية.

- وفي رأيك، مَن كان على حق؟

- لا علم لدي بهذا الشأن بتاتاً.» لأول مرة، استرخى وابتسم صراحة. «هناك ما يشبه الخرافة، ترقى إلى عهد المخابرات العامة القديمة، مفادها أننا نحصل على استطلاعات

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

للرأي سرية، لم تنشر أبداً. هذا أشبه قليلاً بلعب أطفال... لكن هذا صحيح شيئاً ما، أيضا، وقد استمر ذلك التقليد إلى حد معين. وعليه، في هذه الحال، فإن استطلاعات الرأي السرية كانت تعطي بالضبط التوقعات نفسها التي تثمرها استطلاعات الرأي الرسمية: النصف بالنصف، إلى أقصى حد، بفارق بضعة أعشار...».

طلبت جعتين أخريين. «ينبغي أن تأتي للعشاء بالبيت» قال تانور، «سوف تكون ماري فرانسواز مسرورة بمقدمك. أعرف أنها حزينة جداً لمغادرة منصبها بالجامعة. لكني لا أبالي بذلك تقريباً، إذ لابد لي من التقاعد في غضون عامين، على كل حال... بالطبع، ينتهي الأمر بطريقة غير مستحبة شيئاً ما؛ لكني سوف أتوصل بكامل مستحقاتي، هذا مؤكد، ودون شك بمكافأة استثنائية، أعتقد أنهم سوف يقومون بأقصى ما هو ممكن تفادياً منهم لما قد أسببه لهم من مشاكل.»

أحضر النادل جعتينا، وصحناً صغيراً من الزيتون؛ صار هناك الكثير من الناس آنئذ في المقهى، ناس يتكلمون بصوت عال، من الظاهر أنهم يعرفون بعضهم جميعاً، منهم من كان يحيي تانور عند مروره بمحاذاة مجلسنا. قضمتُ حبَّتي زيتون، وأنا متردد: كان هناك أمر لا أدركه، مهما يكن، في تسلسل الأحداث؛ بعد كل شيء، يمكن لي محادثته في شأنه، ربما كانت لديه فكرة عن القضية، كان يبدو أن لديه أفكارا حول الكثير من الأشياء؛ وأخذتني الحسرة على أني حتى ذلك الأوان لم أهتم سوى بما هو طريف وسطحي في الحياة السياسية.

«ما لا أفهمه. . .» قلتُ بعد شربةٍ جعة، «هو ما كان يأمله أولئك الذين قادوا الهجوم على مكاتب التصويت. لأن الانتخابات سوف تتم، في كل الأحوال، في غضون أسبوع، تحت حماية الجيش؛ وميزان القوى لم يتغير، وسوف تبقى النتيجة غير مؤكدة بالقدر نفسه. ما لم يتم على الأرجح إقامة الدليل على أن المتعصبين لوحدة الهوية هم المسؤولون عن الأحداث، وفي هذه الحال، سوف تستفيد الأخوة المسلمة من ذلك؛ أو خلافا لذلك المسلمون هم المسؤولون، وذلك سوف يكون لصالح الجبهة الوطنية.

- كلا، هذا ما يمكن لي قوله لك بكل تأكيد: سيكون من المستحيل إثبات أدنى شيء، في هذا الاتجاه أو ذاك؛ ولن يسعى أحد إليه. وخلافاً لذلك، ستحدث أمور على المستوى السياسي، بسرعة شديدة دون شك، على الأرجح بداية من الغد. فرضية أولى، هي أن يقرر التجمع من أجل حركة شعبية عقد تحالف انتخابي مع الجبهة الوطنية. لأن التجمع UMP لم يعد ذا شأن يذكر، إذا جاز لنا قول ذلك؛ إنهم في انحدار نحو الهاوية، لكن يظل ذلك كافياً لتميل الكفة، وللظفر بالقرار.

- لا أدري، لا أرجح ذلك كثيراً؛ يبدو لي أنه لو كان لا بد من وقوع ذلك لكان ذلك قد حدث أصلاً، منذ سنوات غير قليلة.

- أنت على حق تماماً!. . .» صاح بابتسامة عريضة. «في البدء، كانت الجبهة الوطنية مستعدة لكل شيء بغية عقد تحالف مع التجمع، للانضمام إلى أغلبية حكومية؛ ثم شيئاً فشيئاً أخذت الجبهة تكبر، وترتقي صعداً في الاستطلاعات؛ لهذا أخذ الخوف يستبد بالتجمع. ليس من شعبويتهم، ولا من فاشيتهم المفترضة -

لن يجد مسيرو التجمع غضاضة في اتخاذ بعض التدابير الأمنية أو المعادية للأجانب، والتي تتطلع إليها بكثرة الفئات الناخبة، أقصد ما تبقى منها؛ لكن في الواقع، التجمع هو الآن الحزب الأضعف داخل التحالف بدرجة كبيرة؛ وهم خائفون، إن عقدوا اتفاقاً، من أن يبددهم ويمتصهم شريكهم. إضافة إلى ذلك هناك أوروبا، وذلك هو المحور الأساس. تتمثل الأجندة الحقيقية للتجمع، مثلما هو الشأن بالنسبة للحزب الاشتراكي، في زوال فرنسا، اندماجها في مجموعة فدرالية أوروبية. إن ناخبيه، بالطبع، لا يتفقون مع هذا الهدف؛ لكن المسيِّرين يفلحون منذ سنوات في جعل الموضوع طيّ الكتمان. لو عقدوا حلفاً مع حزب معارض صراحة لأوروبا، لن يستطيعوا التشبث بهذا الموقف؛ ولن يتأخر انفراط عقد التحالف. لهذا السبب أميل أكثر إلى فرضية ثانية: خلق جبهة جمهورية، فيها يتحالف التجمع، شأن الحزب الاشتراكي، مع مرشح بن عباس - طبعاً، شريطة مشاركة كافية في الحكومة، وتفاهمات حول الانتخابات التشريعية المقبلة.

- يبدو لي أن هذا صعب كذلك؛ أقصد مثيراً جداً للاستغراب.

- أنت على حق، مرة أخرى!...». ابتسم من جديد، فرك يديه، الظاهر أنه يستمتع كثيراً بكل ذلك. «لكن ذلك صعب لسبب مغاير، لأنه مثير للاستغراب؛ لأن ذلك لم يكن مشهوداً أبداً في السابق، منذ حرب التحرير على الأقل. منذ زمن بعيد جداً تنبني اللعبة السياسية على المعارضة يسار - يمين بحيث يبدو من المستحيل الخروج من ذلك. ورغم هذا، في العمق، ليس هناك صعوبة حقيقية؛ ما يفرق التجمع عن الأخوة المسلمة هو أقل

بدرجة كبيرة مما يفرقه عن الحزب الاشتراكي. أذكر أننا تحدثنا في الموضوع، خلال أول لقاء جمعنا: إذا كان الحزب الاشتراكي قد تنازل في نهاية المطاف بخصوص التربية الوطنية، إذا كان قد توصل إلى اتفاق مع الأخوة المسلمة، وإذا كان تياره المناهض للعنصرية قد نجح داخلياً في هزم تياره العَلماني، فذلك لأنهم أجبروا على ذلك تماماً، لأنهم كانوا في قعر الهاوية. والأمور سوف تكون على درجة أقل من الصعوبة بالنسبة للتجمع، الأقرب إلى التفكك، والذي لم يسبق له أبداً أن أعار التربية أدنى اهتمام، بل حتى المفهوم يكاد يكون غريباً بالنسبة له. وخلافاً لذلك، يجب على التجمع والحزب الاشتراكي أن يعتادا على فكرة الحكم معاً؛ وهذا أمر جديد تماماً بالنسبة لهما، فذلك بالضبط عكس كل ما يهيكل مواقفهما منذ دخولهما السياسة.

بالطبع تبقى إمكانية ثالثة، وهي أن لا يحدث شيء؛ أن لا يُعقد أي اتفاق، وأن يجري الدور الثاني من جديد بالمواقف نفسها على التمام، وبالحيرة نفسها. وهذا، إلى حد ما، هو الأمر الراجح أكثر؛ لكن يعتبر كذلك الأشد بلبلة. أولاً، لم يسبق أبداً في تاريخ الجمهورية الخامسة أن كانت النتيجة النهائية بهذا القدر من الحيرة؛ ثم وعلى الأخص، لا يتوفر أي من الفريقين اللذين حافظا على حضورهما على أدنى خبرة في تحمل المسؤوليات الحكومية، سواء على الصعيد الوطني أو المحلي؛ إنهما يعتبران هاويين خالصين في مجال السياسة.»

أنهى جعَّته، نظرَ إلي بعينه المتقدة ذكاءً. تحت سترته من نوع أمير بلاد الغال، كان يلبس قميصاً رياضياً بكمّين طويلين؛ كان ليِّن الجانب، لا تخطر على قلبه أوهام، حصيفاً؛ من الظاهر جلياً

أنه كان لديه اشتراك في مجلة التاريخ Historia، كنت أتصور جيداً مجموعة من مجلدات المجلة في خزانة كتب قرب الموقد؛ وعلى الأرجح بمعية مؤلفات دقيقة، من قبيل خبايا فرنسا الأفريقية، أو تاريخ المخابرات السرية منذ الحرب العالمية الثانية؛ لا شك أن مؤلفي هذه الكتب قد سألوه أصلاً، أو سيتم لهم ذلك عما قريب، في خلوته الكيرسية؛ لابد أن عليه كتمان بعض المواضيع، وسوف يشعر بأنه مسموح له بالحديث عن مواضيع أخرى.

«إذاً، موافق في ما يخص مساء الغد؟» سألني بعد أن أشار إلى النادل للأداء. «سوف آتي لأخذك من فندقك؛ ستكون ماري فرانسوا مسرورة، حقاً».

كان الليل يرخي سدوله على ساحة القناصل، والشمس الغاربة تصبغ الحجر الأصهب وميضاً ممغَّراً؛ كنا قبالة فندق لاريموند.

«هذه قرية عتيقة، أليس كذلك؟» سألته.

- عتيقة جداً. ولم تَتَسَم بمارتيل من باب الصدفة. . . الجميع يعلم أن شارل مارتيل قد هزم العرب في بْوَاتْيِي عام ٧٣٢، وبذلك أوقف التوسع الإسلامي نحو الشمال. وبالفعل، إنها معركة حاسمة، تؤرخ البداية الحقيقية للمسيحية القروسطية؛ لكن الأمور لم تقع بذلك القدر من الوضوح، إذ لم يتراجع الغزاة من فورهم، إذ واصل شارل مارتيل محاربتهم طوال أعوام معدودة في منطقة أَكِيتِينْ. عام ٧٤٣ حالفه النصر مجدداً على مقربة من هنا، وقرَّر على سبيل الشكر بناء كنيسة؛ حملتْ شعاره، ثلاث مطارق متصالبة. تم بناء القرية حول هذه الكنيسة، وقد تعرضت

للهدم وأعيد بناؤها في القرن الرابع عشر. صحيح أن معارك كثيرة وقعت بين المسيحية والإسلام، فالحرب كانت منذ الأزل من بين الأنشطة الإنسانية الرئيسة، الحرب من الطبع، مثلما كان يقول نابليون. لكن أظن أن الوقت قد حان لعقد توافق، وحلف مع الإسلام.»

هويت بيدي نحوه للانصراف. كان يبالغ قليلاً في لعب دور واحد من قدماء المخابرات السرية، شيخ حكيم متقاعد إلخ، لكن بعد كل شيء عزله حديث العهد، ومن المفهوم أنه يلزمه الوقت للتكيف مع شخصيته الجديدة. كنت مسروراً على كل حال باستضافتي عنده في اليوم الموالي، في الإمكان مسبقاً التأكد من أن البُورْتُو سيكون من النوع الجيد، وكان لدي ما يكفي من الثقة بخصوص الطعام أيضاً، لم يكن من النوع الذي يستهين بالذواقة.

«شاهِد التلفزيون غداً، تابع الأخبار السياسية...» قال لي قبل انصرافه. «أنا مستعد للرهان على أن شيئاً ما سيحدث».

الثلاثاء، ٣٠ أيار/مايو.

شاع الخبر فعلاً بعد الثانية زوالاً بقليل: اتفق كل من التجمع واتحاد الديمقراطيين والمستقلين والحزب الاشتراكي على عقد تفاهم حكومي، «جبهة جمهورية موسَّعة»، وانضما إلى مرشح الأخوة المسلمة. من شدة نشاطهم، كان صحافيو القنوات الإخبارية يتناوبون طول الظهيرة سعياً إلى معرفة المزيد، ولو قليلاً، بخصوص شروط التفاهم وتوزيع الحقائب الوزارية، وفي كل مرة يجنون الجواب نفسه عن تفاهة الاعتبارات السياسوية، والطابع المستعجل للوحدة الوطنية ولتضميد جراح بلد منقسم، إلخ. كل ذلك كان متوقعاً، بالتمام، لكن ما لم يكن كذلك هي عودة فرانسوا بايْرو إلى واجهة المشهد السياسي. إذ قبِل بالفعل قائمة ترشيح رفقة محمد بن عباس: حيث التزم هذا الأخير بتسميته وزيراً أول إن كان النصر من نصيبه في الانتخابات الرئاسية.

لقد عمل السياسي البِيَارْنِي الهرم، الذي انهزم تماماً في كل الانتخابات التي خاضها منذ ثلاثين عاماً، على إنشاء صورة عن

نفسه محورها السُّمُو، بتواطؤ مع مجلات مختلفة؛ حيث كانت تؤخذ له باستمرار صُورٌ وهو متكئ على عصا راعٍ، ويلبس مِلْفَعَة على طريقة جوستان بريدو، وسط منظرٍ مزيجٍ من المراعي والحقول المزروعة، بصفة عامة في منطقة اللَّابُوز. والصورة التي كان يسعى إلى ترويجها في حواراته المتعددة، هي صورة الرجل الذي قال لا، صورة دُوغُولِيّة.

«إنها فكرة عبقرية، بايرو، عبقرية مطلقاً!...» صاح ألان تانور ما إن رآني، وهو يهتز حقيقة من حماسه. «أقِرُّ أني ما كنت لأظن ذلك أبداً، إنه قوي جداً بحق بن عباس هذا...».

استقبلتني ماري فرانسواز بابتسامة عريضة؛ فضلاً عن أنها كانت مسرورة برؤيتي، فقد بدت على العموم في حال جيدة. من يراها مكبة على وَضَم المطبخ الذي يخصها، وقد لبِستْ متزرةَ مطبخٍ فَكِهة من صنف: «لا تعاتبوا الطاهية، لأن المُشَغِل يتكلف بذلك»، يشق عليه تصوّر أنها كانت أياماً معدودة من ذي قبل تشرف على دروس الدكتوراه حول الظروف الخاصة تماماً التي قام فيها بلزاك بتنقيح مطبوعات رواية بِياتْرِيكْس. لقد أعدَّت فطائر لذيذة محشوة بأعناق البط وبالكرّاث. زوجها، المفرط في حماسته، فتح دفعة واحدة قنينة من كاهور وأخرى من نوع سوتيرن، قبل أن يتذكر بأنه لا بدَّ لي من تذوق شرابه البورتو. حتى ذلك الحين لم أكن أدرك تماماً ما الذي يجعل عودة فرانسوا بايرو إلى الحقل السياسي تستحق وصفها ب-الفكرة العبقرية؛ لن يتأخر تانور في بسط فكرته، كنتُ موقناً من ذلك. كانت ماري فرانسوا تنظر إليه بعطف، ويظهر للعيان أنها مرتاحة برؤية زوجها يتقبل عزله بذلك القدر الحسن، ويعيش بذلك القدر من السهولة

دوره الجديد بوصفه خبيراً استراتيجياً في الكلام - ويكون في وسعه التفوق في مخاطبة العمدة والموثق وكل أعيان المنطقة، والذين يظل في حضرتهم مُحاطاً بهالةِ حياةٍ مهنيةٍ في المخابرات السرية. من المؤكد أن بشائر الخير كانت تعم تقاعدهما.

«المثير حدّ خرق العادة عند بايرو، ما يجعله بلا نظير»، تابع تانور بحماسة، «هو أنه أخرق تماما، انحصر مشروعه السياسي دوماً في رغبته الشخصية في الوصول بأية وسيلة كانت إلى «منصب الرئاسة»، مثلما يقال؛ لم يسبق أبداً أن امتلك فكرة شخصية أو تظاهر بذلك؛ إلى هذا الحد، إنه أمر نادر بما يكفي، مهما يكن. وذلك يجعل منه رجل السياسة المثالي لتجسيدِ مقولةِ الإنسانوية، لا سيما أنه يظن نفسه هنري الرابع، وأنه من كبارِ صناع الحوار بين الأديان؛ ثم إنه يتمتع بشعبية كبيرة لدى الناخبين الكاثوليك، الذين تُشعِرهم بلاهته بالأمان. وهذا بالضبط ما يحتاجه بن عباس، الذي يحذوه الأمل قبل كل شيء في تجسيد إنسانوية جديدة، وتقديم الإسلام بوصفه الشكل التام لإنسانوية جديدة، كما أنه صادِقٌ تماماً عندما يعلن احترامه للديانات التوحيدية الثلاث.»

دعتنا ماري فرانسواز للجلوس إلى مائدة الطعام؛ لقد أعدَّت من ذي قبل طبقَ خَضْراء الفاصوليا مصحوبة بالهندباء ورقائقِ جبنٍ بَّارْمَا. من شدة ما كان ذلك لذيذاً، ضاع مني للحظة حبل حديث زوجها. لقد اختفى الكاثوليك تماماً من فرنسا، قال متابعاً كلامه، لكنهم بدوا دائماً كما لو أن سلطة أخلاقية تجللهم، على أي حال، لقد فعل بن عباس منذ البداية كل ما وسعه لتملقهم: خلال السنة الفائتة، ذهب إلى الفاتيكان لما لا يقل عن ثلاث مرّات.

متسلحاً بهالة المنتسب للعالم الثالث، اعتباراً لأصوله بكل بساطة، فقد أفلح مع ذلك في طمأنة الناخبين المحافظين. خلافاً لخصمه القديم طارق رمضان، المتأثر بروابطه التروتسكية، فإن بن عباس تحاشى دوماً التورط مع اليسار المعارض للرأسمالية؛ لقد ربح اليمين الليبرالي «معركة الأفكار»، وفهم هو ذلك جيداً من ذي قبل، وصار الشباب يرتادون مجال الأعمال، وأضحى الطابع الذي يتعذر تجاوزه لاقتصاد السوق اليوم مقبولاً بالإجماع. لكن، على الأخص، صفة العبقرية الحقة للزعيم المسلم تجلت في فهم أن الانتخابات لا تتم في مجال الاقتصاد، وإنما في مجال القِيَم؛ وهنا أيضاً، كان اليمين مقبلاً على ربح «معركة الأفكار»، حتى دون الحاجة إلى خوضها. في الوقت الذي يقدم فيه طارق رمضان الشريعة بوصفها خياراً تجديدياً، بل ثورياً، يعيد إليها هو قيمتها المطَمئِنة، التقليدية - مضيفاً إليها نفخة أغرابية تجعلها مرغوبة فضلاً عن ذلك. وبخصوص إصلاح الأسرة، والأخلاق التقليدية، وبشكل مضمر السلطة الأبوية، ثمة طريق مشرَع في وجهه، لم يكن في وسع اليمين سلكه، ولا الجبهة الوطنية، وإلا تم وصمهما بالرجعيين، بل والفاشيين من طرف آخر المتشيعين لثورة ٦٨، المومياوات التقدمية المحتضرة، الخاملة سوسيولوجيّاً لكنها تلوذ بقلاع الوسائط الإعلامية حيث تظل من هناك قادرة على صبّ اللعنات على شقاء الأزمنة *والجو النتن* الذي تفشّى في البلد؛ هو وحده كان في مأمن من كل خطر. معضلته الكامنة في مناهضته للعنصرية، جعلتِ اليسار منذ البداية عاجزاً عن محاربته، بل وحتى ذكره.

بعد ذلك قدمت لنا ماري فرانسواز عراقيب ضأن مع بطاطس

مقلية، أخذت أفقد زمام الأمر. «إنه مسلم، مهما يكن. . .» قلتُ معترضاً، بارتباك. «أجل، وماذا بعد؟. . .» كان ينظر إليَّ، بوجه وضَّاح. «إنه مسلم معتدل، وهذه هي النقطة المحورية: إنه يصرح بذلك على الدوام. لا يجب النظر إليه بوصفه طالِبانياً أو إرهابياً، سوف تكون تلك أغلوطة فادحة؛ لم يشعر حيال هؤلاء سوى بالازدراء. حينما يتحدث عنهم في مقالات الرأي التي نشرها بصحيفة لوموند، بغض النظر عن الرفض الأخلاقي المعلن، يميز المرء جيداً لمْسة الازدراء تلك؛ في العمق، إنه يعتبر الإرهابيين بوصفهم هواة. في الواقع، بن عباس رجل سياسة حذق إلى حد أقصى، لا شك أنه الأشد حذقاً وحيلة الذي شهدته فرنسا منذ فرانسوا ميتران؛ وخلافاً لميتران، فهو يمتلك رؤية تاريخية حقيقية.

- باختصار، تظن أنه ليس على الكاثوليك خشية شيء.

- ليس عليهم خشية شيء فحسب، بل ينتظرهم الكثير من الأمل! كما تعلم. . . «توشح بابتسامة اعتذار، »مرت الآن عشرة أعوام وأنا مُكبٌّ فيها على حالة بن عباس، يمكن لي القول دون مبالغة إني واحد من بين الأشخاص في فرنسا الذين يعرفونه أفضل. لقد خصصت حياتي المهنية كلها في مراقبة الحركات الإسلامية. أول قضية عملت عليها - كنت في فتاء السن حينها، ما أزال بعد تلميذاً في سان سير أو مون دور- إبان هجمات ١٩٨٦ بباريس، والتي اكتشفنا مؤخراً أنها تمت بأوامر من حزب الله، ومن إيران بطريقة غير مباشرة. فيما بعد، تعلق الأمر بالجزائريين والكوسوفيين، والحركات المرتبطة مباشرة بالقاعدة، الذئاب المنفردة. . . لم يتوقف الأمر أبداً، وقد اكتسى أشكالاً متعددة.

حتماً، لما تم إنشاء الأخوة الإسلامية، كانوا نصب أعيننا. لقد استغرقنا أعواماً للاقتناع بأنه لو كان لابن عباس مشروع عن حق، فإنه لم يكن يمت بصلة إلى الأصولية الإسلامية. شاعت فكرة في أوساط اليمين المتطرف مفادها أنه حينما سوف يصل المسلمون إلى الحكم فإن المسيحيين سيصبح لهم لزاماً وضع أهل الذمة، مواطنون من الدرجة الثانية. والذمية هي بالفعل من المبادئ العامة للإسلام؛ لكن، عمليا، يتميز وضع الذمي بمرونة قصوى. يتسع الإسلام على رقعة جغرافية عظيمة؛ الطريقة التي يطبق بها في العربية السعودية لا تمت بأي صلة إلى ما نجده في إندونيسيا أو في المغرب. في ما يخص فرنسا، أنا على يقين تام - وأنا مستعد للرهان - بأنه لن تتم إعاقة العبادات المسيحية، بل حتى المنح المخصصة للجمعيات الكاثوليكية ولصيانة المباني الدينية سيتم الرفع من قيمتها - في إمكانهم القيام بذلك، أما المنح المخصصة للمساجد من طرف المَلَكيات البترولية سوف تكون أكبر بكثير على كل حال. وعلى الأخص، عدو المسلمين الحقيقي، ما يخافونه ويكرهونه أكثر من أي شيء آخر، ليس هو المسيحية: إنه الدُّنْيانية، العَلمانية، المادية الملحدة. في نظرهم، الكاثوليك مؤمنون، الكاثوليكية ديانة أهل الكتاب؛ ينبغي فقط إقناعهم للقيام بخطوة إضافية، لاعتناق الإسلام: هذه هي رؤية الإسلام الحقيقية للمسيحية، الرؤية الأصلية.

- واليهود؟» أفلت مني ذلك، لم أتوقع وضع السؤال. صورة مريم فوق سريري، بقميص قصير، آخر صباح جمعنا، صورة ردفيها الصغيرين المكوَّرَين، عبرت خاطري بُرهةً؛ صببت لنفسي كأساً كبيرة من شراب كاهور.

«آه. . .» ابتسم من جديد. «بالنسبة لليهود، الأمر بالطبع معقد أكثر شيئاً ما. من حيث المبدأ، النظرية هي ذاتها، اليهودية ديانة أهل الكتاب، هناك إقرار بأن إبراهيم وموسى نبيان من أنبياء الإسلام؛ لكن عملياً تظل حقيقة أن العلاقات مع اليهود في البلدان الإسلامية كانت في الغالب أصعب من تلك التي تجمعهم بالمسيحيين؛ وبالطبع، القضية الفلسطينية جعلت كل شيء مشحوناً بالكراهية. هناك إذاً بعض الحركات الأقلية داخل الأخوة المسلمة تأمل اتخاذ تدابير انتقامية نحو اليهود؛ لكن هنا أيضاً، أظن بأن ليس هناك فرصة للظفر بذلك. لقد سهر بن عباس دوماً على الحفاظ على علاقات طيبة مع الحبر الأكبر في فرنسا؛ ربما سيرخي الزمام للمتطرفين المنتسبين إليه، بين الفينة والأخرى، رغم ذلك إذ لو ظن بحق أنه سيحصل على اعتناق الكثير من المسحيين لدينه - ولا شيء يدل على أن الأمر مستحيل - فليس لديه الكثير من الأوهام في ما يخص اليهود. أعتقد أن ما يأمله في العمق، هو أن يتخذوا بأنفسهم قرار مغادرة فرنسا - الهجرة إلى إسرائيل. في كل الأحوال، ما يسعني تأكيده لك، هو أن لا نية لديه بتاتاً للمخاطرة بطموحاته الشخصية - وهي طموحات عظيمة - من أجل سحر عيون الشعب الفلسطيني. والعجب أن قلة من الناس هم الذين قرأوا ما كتبه في بداياته - صحيح أن ذلك تم نشره بمجلات مختصة في الجيوسياسة، غامضة بما فيه الكفاية. لكن مرجعه الأكبر، وهذا ظاهر للعيان، يتمثل في الإمبراطورية الرومانية - والبناء الأوروبي بالنسبة له ليس إلا وسيلة لتحقيق هذا الطموح ذي الألف سنة. سوف يكون المحور الأساس لسياسته الخارجية هو نقل مركز ثقل أوروبا نحو الجنوب؛ هناك أصلاً

منظمات تتابع هذا الهدف، مثل الاتحاد من أجل المتوسط. ومن البلدان الأولى المفترض أنها ستلتحم بالبناء الأوروبي سوف نجد بالتأكيد تركيا والمغرب؛ وبعد ذلك تحل تونس والجزائر. وعلى المدى البعيد، مصر - وتلك قطعة كبيرة جداً، لكن سوف تكون حاسمة. موازاة مع ذلك، يمكن الظن أن مؤسسات أوروبا - التي هي في الوقت الحالي غير ديمقراطية - سوف تتطور إلى مزيد من الاستشارة الشعبية؛ المخرج المنطقي سيكون هو الاقتراع العام لرئيس أوروبي. في هذا السياق، إدماج بلدان مكتظة أصلاً بالسكان داخل أوروبا، وذات نمو ديمغرافي سريع، مثل تركيا ومصر، قد يكون له دور حاسم. طُموح بن عباس الحقيقي، وأنا مقتنع بذلك، هو أن يصير على المدى البعيد أول رئيس منتخب لأوروبا - أوروبا موسَّعة، تضم البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط. يجب ألا ننسى بأنه يبلغ ثلاثاً وأربعين سنة فحسب - مع أنه لطمأنة ناخبيه، يجهد نفسه حتى يبدو أكبر سناً مما هو عليه، ويعتني بكرشه ويرفض صبغ شَعره. بمعنى ما لم تجانب العجوز بَاتْ يُور الصواب، من خلال توهمها مؤامرة *يُورَابْيا*؛ لكنها مخطئة تماماً عندما تتصور أن المجموعة الأورو متوسطية في مرتبة أدنى مقارنة مع ملكيات الخليج: سوف نكون أمام إحدى أكبر القوى الاقتصادية العالمية، ولسوف يمكنها تماماً التعامل الند للند. إنها لعبة عجيبة تلك التي تجري حالياً مع العربية السعودية والملكيات البترولية الأخرى: بن عباس على استعداد تام للاستفادة، إلى أقصى حد، من بترودولاراتها؛ لكن لا نية عنده للموافقة على التخلي عن السيادة. إنه يقوم بمعنى ما بإحياء طموح دوغول، المتمثل في سياسة عربية كبرى تشرف عليها فرنسا،

وأؤكد لك بأن لديه حلفاء، بمن فيهم داخل ملكيات الخليج، التي يجعلها الاصطفاف مع المواقف الأمريكية، تذوق من الذل ألواناً، وفي حرج مع الرأي العام العربي، باستمرار، والتي أخذت ترى أن حليفاً مثل أوروبا، أقل ارتباطاً عضوياً بإسرائيل، قد يشكل خياراً أفضل بكثير. . . ».

سكَتَ؛ لقد تحدث دون انقطاع مدة تفوق نصف ساعة. كنتُ أتساءل هل لديه نية لتحبير كتاب، الآن وهو متقاعد، هل سوف يسعى إلى حفظ أفكاره على الورق. كنتُ أجده مفيداً، في عرضه؛ أقصد بالنسبة للناس الذين يهتمون بالتاريخ، طبعاً. أحضرت ماري فرانسوا التحلية، رقائق لانْدِيَّة مقلية بالتفاح والجوز. مرَّ زمن طويل على كل حال لم آكل فيه طعاماً طيِّباً بذلك القدر. بعد العشاء، كان يجب علينا الانتقال إلى الصالون لتذوق المشروب الروحي أرْمانْياكْ السفلى؛ ذلك ما فعلناه بالضبط. مُرْتَخٍ من فيحان الكحول، أنظر إلى قحف رأس الجاسوس السابق المتوهج، وسترته المنزلية ذات الثوب الاسكتلندي، كنت أتساءل فيما كان يسعه التفكير، هو شخصياً. ما الذي قد يفكر فيه امرؤ نذر كل حياته للتحقيق في الأسرار الخفية؟ في لا شيء على الأرجح، بل أتصور أنه لم يكن يدلي بصوته؛ كان يعلم الكثير من الأشياء بإفراط.

«إن كنتُ قد ولجت المخابرات السرية الفرنسية» أردف بنَبرٍ شديد الهدوء، «فذلك بالتأكيد لأني كنت منبهراً، وأنا طفل، بقصص الجاسوسية؛ ولكن أيضاً، أعتقد، لأني ورِثتُ وطنيةِ والدي، هذا ما أثار إعجابي فيه. كان قد ولد عام ١٩٢٢، هل

تدرك ذلك! مائة عام بالضبط! التحق بالمقاومة من البداية، منذ نهاية حزيران/يونيو ١٩٤٠. أصلاً، في تلك الفترة، كان حب الوطن الفرنسي فكرة مستهجنة شيئاً ما - يمكن القول إنه حبٌّ نشأ في فالمي عام ١٧٩٢، وإنه أخذ يموت في خنادق فيردان عام ١٩١٧. أكثر من مائة عام بقليل، في الأصل، هذا قليل. اليوم، مَن يؤمن به؟ صحيح أن الجبهة الوطنية تتظاهر بالإيمان به، لكن هناك شيء شديد الحيرة واليأس في معتقدهم؛ أما الأحزاب الأخرى، فقد اختارت تماماً ذوبان فرنسا في أوروبا. بن عباس هو الآخر يؤمن بأوروبا، بل يؤمن بها أشد من الجميع، لكن الأمر مختلف بالنسبة له، إن له فكرة عن أوروبا، مشروع حضاري حقيقي. نموذجه الأكبر، في الأصل، هو الإمبراطور أغسطس؛ ليس بالنموذج السخيف. كما تعلم، لقد تم حِفظُ خُطب أغسطس في مجلس الشيوخ، وأنا على يقين أنه درسها باهتمام». سكتَ ثم أردف، شارد الذهن أكثر فأكثر: «في الوسع أن تكون حضارة كبيرة، لا أدري... هل تعرف روكمادور؟» سألني بغتة، أخذتني سِنة نوم قبل ذلك بقليل، أجبته أن لا، لا أظن ذلك، أقصد ربما أعرف، بفضل التلفزيون.

«يجب أن تذهب إلى هناك. إنها على بعد عشرين كيلومتراً فحسب؛ يجب أن تذهب إلزاما. اِعلم أن الحج إلى روكمادور كان أشهر حج في المسيحية. هنري بلانتجوني، القديس دومنيك، القديس برنار، القديس لويس، لويس الحادي عشر، فليب لوبيل...، جميعهم أتوا للجثو عند قدمَي العذراء السوداء، جميعهم صَعَد، على ركبتيه، السلالم المؤدية إلى المعبد، والدعاء في خضوع كي تغفر ذنوبهم. في روكمادور، يمكن لك بحق أن

تقدر إلى أي حد كانت المسيحية في العصر الوسيط بمثابة حضارة عظيمة.»

جملٌ كتبها ويسمانس عن العصر الوسيط كانت تعاود ذاكرتي على نحو ملتبس، وذاك النبيذ الأرمنياك كان لذيذاً جداً، ارتأيت الرد عليه قبل إدراكي بأني كنت عاجزاً عن النطق بفكرة واضحة. وكم كانت دهشتي كبيرة حينما أخذ ينشد شعر بيغي Péguy، بصوت حازم ومنتظم الإيقاع:

طوبي لمن ماتوا فداء الأرض الأديم،
شرط أن يكون قد تم ذلك في حرب عادلة.
طوبي لمن ماتوا فداء أربعة أركان من الأرض.
طوبى لمن ماتوا ميتة مهيبة.

من الصعب جداً فهم الآخرين، ومعرفة ما تخفيه صدورهم، ودون عونٍ من الكحول، ربما لن نصل إلى ذلك بتاتاً. كان من المدهش والمثير رؤية ذلك الشيخ النقي، الم-ؤنق، المثقف والساخر، يُقبل على قراءة أشعار:

طوبى لمن ماتوا في المعارك العظمى
مستلقون على التراب أمام الإله.
طوبى لمن ماتوا في أعلى مقام أخير،
وسط موكب جنائزي عظيم.

هزَّ رأسه في خنوع، وحزن تقريباً. «ها أنت ترى، منذ المقطع الثاني، وحتى يمنح قصيدته ما يكفي من السَّعة، تحتم

عليه ذكر الإله. لوحدها، فإن فكرة الوطن غير كافية، يجب ربطها بشيء أشد قوة، بزهد من مقام عالٍ؛ وهو يعبر عن هذا الرابط بوضوح كبير، انطلاقاً من الأبيات التالية:

طوبى لمن ماتوا فداء مدنٍ آدمية،
لأنها جسد مدينة الإله.
طوبى لمن ماتوا فداء لموقدهم ولنارهم،
وفداء لمكارم البيوت الأبوية.

ذلك لأنها صورة وبداية
وجسد وسعي بيت الإله.
طوبى لمن ماتوا في هذا الأتون،
في حضن الشرف والبوح الدنيوي.

«الثورة الفرنسية، الجمهورية، الوطن. . . أجل، لقد أمكن لهذا أن يُثمِر شيئاً؛ شيء استمر لأكثر من مائة عام وما يزيد. أما مسيحية القرون الوسطى، فقد دامت أكثر من ألف عام. أعرف أنك مختص في ويسمانس، لقد أخبرتني ماري فرانسواز بذلك. لكن في رأيي، لم يشعر أحد بروح العصر الوسيط المسيحي بذلك القدر من القوة أكثر من بيغِي - ولو أنه كان جمهورياً، علمانياً، ومتشيعاً لدريفوس. كما أنه شعر بأن الألوهية الحقيقية للعصر الوسيط، القلب النابض لتقواه، لا تتمثل في الأب، ولا حتى في يسوع المسيح؛ إنها تكمن في مريم العذراء. وهذا أيضاً، فإنك تشعر به في روكمادور. . .».

كنتُ أعرف أنهما اعتزما العودة إلى باريس في اليوم الموالي أو الذي يعقبه من أجل نقل متاعهما. الآن وقد تم التوقيع على اتفاقات حكومة الجبهة الجمهورية الموسعة لم يعد هناك أدنى شك في نتائج الدور الثاني، وإحالتهما على التقاعد باتت أمراً يقيناً. وأنا أهم بالانصراف، بعد أن أجزلت الثناء لماري فرانسواز عن موهبتها في فن الطبخ، ودَّعتُ زوجها عند عتبة الباب. لقد شربَ مقدار ما شربتُ تقريباً وظل قادراً على أن ينشد عن ظهر قلب مقاطع كاملة من شعر بِيغِي، في العمق، كان يثير إعجابي قليلاً. لم أكن مقتنعاً في ما يخصني بأن الجمهورية وحب الوطن قد أمكن لهما «أن يثمرا شيئاً»، وإلا فقد أثمرا سلسلة متصلة من الحروب التافهة، لكن على أية حال لم يكن تانور خرِفاً، وددتُ أن يكون حالي مثل حاله في سنه. نزلت الدرجات المعدودة المؤدية إلى مستوى الزقاق، التفتُّ صوبه وقلت له: «سأذهب إلى روكمادور».

لم يكن الموسم السياحي على أشده بعد، وعثرت بسهولةٍ على غرفة في فندق بُو سِيتْ، ذي الموقع الرائع في المدينة القروسطية؛ كان المطعم ذو المنظر العام يطل على وادي الألزو. موقع بالفعل مثير، ويحج إليه الزوار بشدة. التجدد الدائم للسياح القادمين من جهات العالم الأربع، الذين يفدون تباعاً، كلهم مختلفون قليلاً، كلهم متشابهون قليلاً، في اليد آلة تصوير، للتجوال بذهول بين تشابك الأبراج تلك، ومسالك العسَس، والكنائس الصغيرة والمصلَّيات التي تتسلق الجرف، جعلني بعد بضعة أيام أشعر بما يشبه الخروج من الزمن التاريخي، وبالكاد انتبهتُ ليلة الأحد الثاني من الانتخابات، للنصر العريض الذي حققه محمد بن عباس. استسلمتُ ببطء لفتورٍ حالمٍ، ورغم أن الوصل بالإنترنت في الفندق كان يعمل هذه المرة على التمام فإني لم أعر كبير اهتمام لصمت مريم المتواصل. في نظر صاحب الفندق والعاملين، كنتُ حينها مصَنَّفاً: أعزب، أعزب مثقف بعض الشيء، حزين بعض الشيء، ليس لديه الكثير من الملاهي - وقد كان ذلك في العمق وصفاً دقيقاً. أقصد، بالنسبة لهم، كنت من نوع الزبائن الذين لا يجدون معهم مشاكل، وذلك هو الأساس.

ربما كنت منذ أسبوع أو أسبوعين في روكمادور حينما وصلتني أخيراً رسالتها الإلكترونية. كانت تحدثني فيها كثيراً عن إسرائيل، عن الجو الخاص جداً السائد فيها - الحيوي على نحو غير عادي والمفرح، لكن مصحوب دائماً بخلفية مأساوية كامنة. قد كان يبدو من الغريب مغادرة بلد - فرنسا - لأننا نخشى أن نتعرض فيه لأخطار مفترَضة، قالت، للهجرة إلى بلد حيث الأخطار ليس فيها ما هو مفترض - إذ إن جناحاً منشقاً عن حماس قرر إطلاق موجة جديدة من العمليات، ويومياً أو تقريباً كان انتحاريون يتمنطقون أحزمة ناسفة يفجرون أنفسهم في المطاعم والحافلات العمومية. كان الأمر غريباً، لكن ما إن نحل بالمكان حتى نتوصل إلى فهمه: لأن إسرائيل كانت منذ منشئها في حرب، فالهجمات والعمليات القتالية تبدو فيها نوعاً ما حتمية، طبيعية، وفي كل الأحوال لا تمنع المرء من الاستمتاع بالحياة. وقد أرفقت رسالتها بصورتين لها، وهي تلبس تُبَّان بيكيني، على شاطئ تل أبيب. في إحدى الصورتين، التي التقطتْ ثلاثة أرباع من ظهرها وهي تركض نحو البحر، نتبَيَّنُ مليّاً ردفيها، حينها علاني الشَّبق، أخذتني رغبة لا تقاوم لمداعبتهما، ونَمِلَتْ يديَّ بألم. عجيب، كَمْ أني أذكر جيداً ردفيها.

عند إغلاق حاسوبي أدركتُ أنها لا تتحدث، ولو مرة واحدة، عن عودة محتملة إلى فرنسا.

منذ بداية مقامي اعتدت الذهاب يومياً إلى كنيسة نوتردام والجلوس دقائق معدودة قبالة العذراء السوداء - هي عينها التي ألهمت منذ ألف سنة حجّاً كثيراً، والتي ركع عندها الكثير من

القديسين والملوك. تمثال غريب، شاهد عن عالم اندثر كلياً.
كانت العذراء جالسة مستقيمة في جلستها؛ وجهها له عينان مغمضتان، بعيدُ الغَوْر بدا وكأنه من خارج كوكب الأرض، يُتوجه إكليل. والطفل يسوع - الذي لم تكن لديه في حقيقة الأمر بتاتاً ملامح طفل، وإنما بالأحرى ملامح راشد، بل شيخ - كان جالساً، بدوره جلسة مستقيمة جداً، على ركبتيها؛ وكانت عيناه هو الآخر مغمضتان، أما وجهه الحاد، الساكن والقوي فقد كان يعمه بدوره تاج. لم يكن في وضعهما أي عطف ولا رأمة أم لولدها. لم يكن الطفل يسوع هو المجسَد تمثالاً؛ بل كان أصلاً، مَلِك العالم. وداعته، أثر القدرة الروحية، والقوة غير المحسوسة المشعة منه كانت مرعبة تقريباً.

هذا التمثيل الفائق لحدود الإنسانية كان على النقيض من المسيح المعذَّب، المُعَنَّى الذي رسمه ماتياس غرونوالد، والذي كان له أثر بالغ في ويسمانس. العصر الوسيط لدى ويسمانس هو الذي يخص العصر القوطي، بل والقوطي المتأخر: هو المستدر للعواطف، الواقعي والأخلاقي، كان في الأصل أدنى إلى عصر النهضة، منه إلى العصر الروماني. تذكرتُ حديثاً لي، سنوات من ذي قبل، مع أستاذ للتاريخ في السوربون. بيَّن لي قائلاً إن قضية الحكم الفردي، في بدايات العصر الوسيط، لم تكن مطروحة تقريباً. إذ في فترة لاحقة فحسب، عند جيروم بوش مثلاً، ستظهر تلك التمثيلات المرعبة حيث يفصل المسيح بين جماعة الأصفياء وعصبة المَلاعِين؛ حيث الشياطين تأخذ المذنبين غير التائبين إلى عذاب الجحيم. كانت الرؤية الرومانية مختلفة، تحوز إجماعاً أكبر؛ بعد موته يدخل المؤمن في حالة سبات عميق، ويختلط

بالأرض. بعد تحقق كل النبوءات، ساعة التجلي الثاني للمسيح، فإن الشعب المسيحي بأكمله، المتحد والمعتصم بحبل واحد، هو من يقوم من قبره، منبعثاً في جسده الظافر، للسير نحو الجنة. الحكم الأخلاقي، والحكم الفردي، بل الفردية في حد ذاتها، لم تكن مقولات مفهومة بوضوح من طرف إنسان العصر الروماني، وقد شعرت أنا أيضاً أن فرديتي تذوب، على مر أحلام يقظتي المتواصلة أمام عذراء روكمادور.

كان عليَّ رغم ذلك العودة إلى باريس، وقد انقضى من شهر تموز/يوليو منتصفه سلفاً، ومضى على مقامي هناك أصلاً أكثر من شهر، هذا ما لاحظتُه ذات صباح باندهاش لا يُصَدق؛ والحق أقول لم يكن يعجلني شيء، فقد توصلت من ذي قبل برسالة من ماري فرانسواز، التي كانت على اتصال بزملاء آخرين: لم يتوصل أحد حتى اللحظة بأية رسالة من السلطات الجامعية، الغموض كان تاماً. وعلى صعيد أعم، جرت الانتخابات التشريعية، وخرجت بنتيجة متوقعة، حيث تم تشكيل حكومةٍ.

بدأت القرية تشهد أنشطة سياحية، خاصة المتعلقة بالذوافة والثقافية منها، وعشية رحيلي، بينما كنت أقوم بتطوافي اليومي في كنيسة نوتردام، وقعت بالصدفة على قراءة لنصوص بِيغِي. جلست بالصف ما قبل الأخير؛ كان الحضور متنوعاً، يتشكل على الأخص من شباب بسراويل الجينز والأقمصة الصيفية، جميعهم كان له ذلك المحيا المنشرح والأخوي الذي يفلح الشباب الكاثوليك في التوشح به بطريقة لا أدري كُنهها.

أيتها الأم ها هم أبناؤك الذين تقاتلوا.
لا تزنوهم بميزان العقل.
بل أقيموا عليهم حكم المنبوذ
الذي يعود إلى بيته في خفية عبر دروب ملتوية.

كان للأبيات صدى يتردد بانتظام في الهواء الساكن، وتساءلت ما الذي قد يدركه هؤلاء الفتية الكاثوليك ذوو النزعة الإنسانية من روح بيغي الوطنية والشرسة. كان إلقاء الممثل مثيرا للانتباه رغم ذلك، وبدا لي فضلا عن ذلك أنه ممثل مسرحي معروف، لعله كان ينتسب إلى فرقة الكوميديا الفرنسية، ولعله لعب أيضاً أدواراً في أفلام، وبدا لي أني شاهدت مسبقاً صورته في مكان ما.

أيتها الأم ها هم أبناؤك وجيشهم العرمرم.
لا تحكموا عليهم بالنظر إلى شِقْوتهم فحسب.
فليجعل الرب معهم شيئاً من هذه الأرض
التي أفتتهم كثيراً والتي أحبوها كثيراً.

كان ممثلاً بولندياً، تيقنت من الأمر حينها، لكني لم أفلح مع ذلك في تذكر اسمه؛ ربما كان كاثوليكياً هو أيضاً، بعض الممثلين هم كذلك، صحيح أنهم يزاولون مهنة غريبة جداً، فيها قد تبدو فكرة تدخل القدر مقبولة أكثر مما في غيرها من المهن. وهؤلاء الفتية الكاثوليك، أوَ كانت أرضهم تحبهم؟ هل كانوا مستعدين للفناء، من أجلها؟ شعرت أني بنفسي مستعد للفناء، ليس لأجل أرضي خصيصاً *بصفة عامة*، أقصد استبدت بي حالة غريبة،

تراءت لي العذراء ترتفع، تقوم من قاعدتها وتكبر في الجو، ويبدا الطفل يسوع مستعداً للانفصال عنها، وخيل إلي أنه كان يكفيه الآن رفع ذراعه اليمنى، كي يتم تدمير الوثنيين والمشركين، وتسلم إليه مفاتيح الدنيا «بوصفه المولى والمالك والسيد».

أيتها الأم ها هم أبناؤك الذين ضلوا كثيراً.
لا تأخذوهم بجريرة خسيسة.
بل أعيدوهم إلى الحضن مثل الابن الضال.
وليهرعوا للارتماء بين ذراعين ممدودتين.

ربما كنت ببساطة جائعاً أيضاً، لقد غفلت عن تناول الطعام في اليوم السابق، وربما كان من الأفضل أن أرجع إلى الفندق، والجلوس قبالة بعض أفخاذ البط، بدل التهالك بين مقعدين، ضحية هبوط في السكر، هبوط صوفيّ. مرة أخرى فكرت في ويسمانس، في معاناته وشكوك اعتناقه الكاثوليكية، ورغبته المحبَطة في أن يندمج في طقس من الطقوس.

لزمت مكاني حتى نهاية القراءة، ولكن في الختام أدركت أنه رغم جمالية النص العظيمة، كنت أستحب البقاء وحيداً لهذه الزيارة الأخيرة. شيء آخر كان يكمن في ذلك التمثال الصارم، أكثر من الارتباط بوطن، بأرض، أو أكثر من الاحتفال بشجاعة الجندي المتوقدة؛ أو حتى من رغبة صبيانية لأم. كان هنالك أمر خفِيّ، كهنوتي، ومَلَكِيّ لم يكن بمستطاع بِيغي فهمه، ولا في وسع ويسمانس على درجة أقل منه بكثير. في صباح اليوم الموالي، بعد أن حمَّلْتُ السيارةَ متاعي، وأديت الفندق

مستحقاته، رجعت إلى كنيسة نوتردام، الخالية حينها من الزوار. كانت العذراء تنتظر في الظل، هادئة، نضِرة. كانت تحوز السلطان، تحوز القُدرة، لكن شيئاً فشيئاً، شعرتُ أني أفقد الصلة، أنها تبتعد في الفضاء، في القرون بينما يدخل بعضي في بعض فوق مقعدي، منكمش، محسور. بعد انقضاء نصف ساعة، نهضت، وقد فارقني الروح القدس بالكلية، وقد عدتُ إلى جسدي المضمحل، الهالك لا محالة، ونزلتُ الدرج صوب موقف السيارات، حزيناً.

IV

أثناء العودة إلى باريس، وعند اجتياز حاجز الأداء في سان آرنو، وقد خلفت ورائي سافِينِي - سبر- أُورْجْ، أنْتُوني ثم مُونْرُوجْ، منحرفاً صوب مخرج باب إيطاليا، كنتُ أعلم أني مقبل على حياة خالية من الفرح لكنها غير خاوية، بل تضج على العكس ببعض الاعتداءات: ومثلما توقعت ذلك، فقد انتهز أحدهم فرصة غيابي لاحتلال المكان المخصص لي في موقف السيارات داخل البناية؛ حدوث تسرب يسير للماء على مستوى المبرِّد؛ ولم يقع هناك حادث منزلي غير ذلك. كان صندوق البريد مملوءاً بالرسائل الإدارية المتنوعة، بعضها كان يتطلب جواباً سريعاً. إن الحفاظ على حياة إدارية سليمة يتطلب حضوراً يكاد يكون دائماً، فكل تنقل مطول قد يجعلك في مأزق مع هذه المنظمة أو تلك، كنت أعرف أنه تلزمني أيام عديدة من العمل لتقويم الخلل. قمتُ بفرز إجمالي، مُهْمِلاً الإعلانات الدعائية الأشد تفاهة، محتفظاً بالعروض المستهدفة (الأيام الثلاثة للتخفيضات الخارقة الخاصة بمكتب الإبداع، تخفيضات كُونْراسُون الخاصة) قبل أن أرنو ببصري نحو السماء ذات اللون الرمادي الموحَّد. هكذا لبثتُ بضع ساعات، بين الفينة والأخرى

أصب لي كؤوساً من الرُّوم بانتظام، قبل التصدي لرُزَمِ الرسائل. الرسالتان الأوليان، وقد كان مصدرهما التعاضدية التي أنتسب إليها، تخبراني باستحالة الموافقة على بعض طلبات التعويض، وتدعواني إلى تجديد الطلبات وتضمينها نسخاً مصورة للوثائق المناسبة؛ وبالنسبة لي فهذا بريد اعتيادي، عودت نفسي على عدم الرد عليه. أما الرسالة الثالثة، خلافاً لذلك، فقد خبّأت لي مفاجأة. مصدرها بلدية نُفِيرْ، كانت تبعث لي أخلص التعازي في وفاة أمي، وتخبرني أن الجثمان قد تم نقله إلى معهد المدينة للتشريح الطبي، وبأنه علي الاتصال بهم قصد اتخاذ التدابير اللازمة؛ كانت الرسالة بتاريخ الثلاثاء ٣١ أيار/مايو. تفحصتُ الرزمة بسرعة: كانت هناك رسالة تذكير بتاريخ ١٤ حزيران/يونيو، وثانية بتاريخ ٢٨ منه. وفي الأخير، بتاريخ ١١ تموز/يوليو، كانت بلدية نُفير تخبرني أنه وفق الفصل L 2223-27 من القانون العام للجماعات الترابية، فإن الجماعة الحضرية تكفلت بدفن أمي في تجزئة المدافن بالأرض الجماعية لمقبرة المدينة. ولدَيَّ أجلُ خمسة أعوام للأمر باستخراج الجثمان بغية التعهد بدفنه على حسابي الشخصي؛ وبعد فوات هذا الأجل، سوف يتم إحراقه، وذر الرماد في حديقة التذكار. وفي حال ما إذا التمستُ نبشَ الجثمان، سوف يعود إلي التكفل بالمصاريف التي التزمت بها البلدية - سيارة نقل الموتى، وأربعة حمَّالة للنَّعش، ومصاريف الدفن الفعلية.

بالتأكيد لم أكن أتصور أمي تعيش حياة اجتماعية مكثفة، وتحضر ندوات عن حضارات ما قبل العصر الكولومبي أو تطوف عبر الكنائس الرومانية بإقليم النِّفِيرْنِي رفقة نساء أخريات في سنها؛

لكني مهما يكن لم أكن أتوقع عزلة تامة بكل ذلك القدر. المرجح أنه تم الاتصال بوالدي هو أيضاً، ولابد أنه أهمل الرد على البريد. وكان من المحرج رغم ذلك أنها دُفنت في باحة المعوزين المربعة (بفضل بحث في الإنترنت علمت أن هذا هو الاسم القديم الذي حلَّت بدله عبارة تجزئة المدافن بالأرض الجماعية)، وتساءلت عن مصير كلبها البولدوغ (هل تم إيداعه بجمعية حماية الحيوانات، أم خضع للموت الرحيم مباشرة؟).

ثم وضعت جانباً الفاتورات وإشعارات الاقتطاع، وهي وثائق يسيرة، يكفيني ترتيبها في إضبارة ملائمة، بغية عزل بريد مراسلَيَّ الاثنين ذوي الأهمية، اللذين يسندان حياة انسان: التأمين الصحي، والخدمات الضريبية. كانت تنقصني الشجاعة للتعجيل بالانكباب على الأمر، فعزمتُ على القيام بجولة في أرجاء باريس - أقصد، ربما ليس في باريس، فتلك مبالغة، كنت سوف أكتفي لأجل هذا اليوم الأول بجولة في الحيّ.

وأنا أستدعي المصعد، أدركتُ أني لم أتوصل بأي بريد من السلطات الجامعية. درت على عقبي لفحص الإشعارات البنكية التي تخصني: لقد سبق تحويل راتبي الشهري، على نحو عادي تماماً، نهاية شهر حزيران/يونيو؛ وبالتالي فإن وضعيتي ظلت بالمثل غير قارّة دائماً.

إن تغير النظام السياسي لم يخلف أثراً بادياً للعيان في الحي. إذ كانت جماعات متكاثفة من الصينيين تزدحم دائماً على محلات الرهان التعاضدي الحضري PMU، وفي الأيادي نشرات الرهان. بينما كان آخرون يدفعون بسرعة كبيرة دمى الشياطين،

يحملون معجنات الأرز، مرَقة الصّوجا، فواكه المانغا. لا شيء، ولا حتى النظام الإسلامي، بدا أنه قادر على كبح نشاطهم المتواصل - فالدعوة الإسلامية شأن الرسالة المسيحية قبلها سوف تذويان على الأرجح دون أن يبقى لهما أثر في محيط هذه الحضارة الهائلة.

جستُ خلال الحي الصيني طوال أكثر من ساعة بقليل. أبرشية القديس هيبوليت مداومة على تقديم دروسها لتعلم الماندرانية والطبخ الصيني؛ كما أن إعلانات السهرات Asia Fever الخاصة بـ Maisons-Alfort لم تختف. ولم أرصد في الحقيقة أية علامة أخرى على تحول ظاهر ما عدا اختفاء Géant Casino من على رفوف الكاشير؛ لكن الموزع الكبير عُرِف دوماً بنزعته الانتهازية.

إلا أن الأمر كان مغايراً بعض الشيء في مركز إيطاليا ٢. ومثلما حدستُ ذلك، فإن المخزن Jennyfer اختفى، وتم استبداله بما يشبه محلات الضاحية ذات المنتجات العضوية تقدم زيوتاً مستخلصة، ومجموعات غسول بزيت الزيتون والعسل ذي النكهات البرية. وعلى نحو يعوزه التفسير، لا ريب أن ذلك متصل فحسب بأسباب اقتصادية، فإن فرع L'homme moderne، الواقع في منطقة مهمشة من الطبقة الثانية، قد أغلق أبوابه، دون تعويضه حتى ذلك الحين. لكن على الأخص جمهور الناس في حد ذاته هو الذي تبدل، خفية. ومثل جميع المراكز التجارية - وإن كان الأمر طبعاً يقل إثارة عمَّا هو عليه في مراكز لاديفونس أو لي هال - فإن مركز إيطاليا ٢ كان يجذب على الدوام قدراً بارزاً من الغوغاء؛ وقد اختفى هؤلاء تماماً. كما تغيَّرتِ الملابس

النسائية؛ بالكاد ارتفع عدد قِطَع الحجاب الإسلامي، الأمر لا يكمن في ذلك، وقد تطلب مني الأمر ساعة من التطواف تقريباً لأقف دفعة واحدة عمّا تبدل: جميع النساء كن يلبسن السراويل. تمييز أفخاذ النساء، التوهم الذهني المنشئ للفرج عند نقطة تقاطعها، وتلك عمليةٌ تتناسبُ قدرةُ إثارتها مباشرةً بطولِ السيقان العارية: من شدة ما كان كل ذلك يتم عندي خارج إرادتي وبصفة آلية، متأصلاً فيَّ نوعاً ما، فإني لم أدركه على الفور، لكنَ الحقيقة كانت شاخصة هناك، لقد اختفت الكُسا والجُبَب القصيرة. كما انتشر لباس جديد، يشبه مِئْذَلاً طويلاً من الصوف، لا يجاوز طرفه منتصف الفخذ، ينزع كل فائدة موضوعية عن السراويل اللاصقة التي قد تهفو بعض النساء إلى ارتدائها، فَرَضاً؛ أما السراويل القصيرة دون الرُّكبتين، فقد صارت مستبعَدة طبعاً. كما صار إنعام النظر في عَجز النساء محالاً، بعدما كان أدنى سلوان حالم للنفس. لقد كان هناك تحول حقيقي خالص آخذ في المسير؛ رجحان موضوعي للكفَّة قد بدأ في السريان. بضعُ ساعات من التنقل بين القنوات التلفزيونية الرقمية الأرضية لم تسمح لي تمييز أي تحول إضافي؛ إلا أن البرامج الإيروتيكية بأي حال لم تعد، منذ أمد بعيد، مطلوبة في التلفزيون.

وبعد أسبوعين من عودتي وصلني بريد باريس الثالثة. القوانينِ الجديدة للجامعة الإسلامية باريس - السوربون باتت تمنعني من أن أتابع بها أنشطتي التعليمية؛ وقد وقَّع الرسالة روبير رُدِيجِير، رئيس الجامعة الجديد؛ عبّر فيها عن أسفه الشديد، وأكد لي أن لا دخل بتاتاً لجودة أعمالي الجامعية في الأمر. وكان في وسعي طبعاً متابعة حياتي المهنية في جامعة عَلمانية؛ وإذا ما فضلتُ ترك الأمر، فإن جامعة باريس السوربون الإسلامية تلتزم على الفور بأن تصرف لي معاش التقاعد الذي يتناسب مبلغه الشهري ومؤشر التضخم، والذي وصل حتى ذلك اليوم إلى ٣٤٧٢ أورو. كان في وسعي أخذ موعد من المصالح الإدارية بغية إتمام الخطوات اللازمة.

قرأتُ الرسالة ثلاث مرات متتابعة قبل أن أفلح في تصديق الأمر. كان مقدار ما قد أجنيه، حسب صرف الأورو، إن حصلتُ على تقاعدي في سن الخامسة والستين، بعد إتمام حياتي المهنية كلها. كانوا فعلاً متأهبين لتضحيات مالية جسام تَجَنُّباً لإثارة القلاقل. لاريب أنهم بالغوا كثيراً في تقدير قوة الإزعاج لدى الأساتذة الجامعيين، وقدرتهم على التدبير الحسن لحملات

الاحتجاج. منذ أمد بعيد ومنصب أستاذ جامعي بصفته تلك لم يعد كافياً لفتح الأبواب المؤدية إلى ركن «منبر» أو «وجهة نظر» في وسائط الإعلام المهمة، وهذه الأخيرة صارت فضاء محكم الإغلاق، والذي لا يختلط بالغير. حتى لو صدر احتجاج بإجماع الأساتذة الجامعيين، ما كان ليلفت أدنى انتباه تقريباً بالمرة؛ لكن الظاهر أنهم في العربية السعودية لم يكن في وسعهم إدراك هذا الأمر. وفي الحقيقة، كانوا ما يزالون يؤمنون بقوة النخبة الفكرية، وكان ذلك مؤثراً، أو يكاد.

من الخارج، لم يكن هناك أي شيء جديد في الكلية، ما خلا نجمة وهلال معدني مذهب، تمت إضافتهما جنبَ كتابة بارزة: «جامعة السوربون الجديدة - باريس ٣» كانت تسُد المدخل؛ لكن، داخل البنايات الإدارية، كانت التحولات ظاهرة للعيان أكثر. في غرفة الانتظار، يستقبل المرء بصورة لحجاج يطوفون حول الكعبة، والمكاتب مزينة بملصقات رسمت عليها آيات قرآنية مزخرفة بالخط العربي؛ تبدلت السكرتيرات، لم أتعرف على أي منهن. وجميعهن كن متحجبات. ناولتني واحدة منهن استمارة طلب معاش التقاعد، كانت بساطةُ الاستمارةِ محيِّرة؛ تمكنتُ من تعبئتها في الحال مستنداً إلى زاوية طاولة، وقَّعتها وناولتها لها. عند خروجي إلى الباحة، أدركت أن حياتي المهنية الجامعية، في دقائق معدودة، قد انتهت.

عندما وصلت محطة ميترو صُونْسِيي، توقفتُ عن السير، متحيِّراً، قبالة السلالم؛ لم أفلح في حمل نفسي على العودة مباشرة إلى البيت، كما لو أن شيئاً لم يكن. كانت دكاكينُ سوقِ موفْتَار قد فتحت للتو. وبينما كنتُ أتجول بالقرب من منتجات

لحم أوفيرنيا القديد، ناظراً دون أن أبصرها حقاً إلى النقانق المُتَوْبَلة (بالجبن الأزرق، بالفستق، بالجوز) رأيتُ سْتِيف صاعداً الزقاق. رآني هو أيضاً، وشعرت بأنه كان يحاول أن يدور على عقبيه حتى يتجنبني، سوى أن الأوان كان قد فات على ذلك، سعيْتُ في لقائه.

ومثلما توقعت، فقد وافق على منصب أستاذ في الجامعة الجديدة؛ كان مكلفاً بدروس عن رامبو. الظاهر أنه كان محرجاً من محادثتي في ذلك، ثم أردف دون طلب مني أن السلطات الجديدة لا تتدخل بتاتاً في محتوى التدريس. أقصد، بالطبع فإن اعتناق رامبو للإسلام أواخر أيامه كان يُحمَل على صفة اليقين، بينما الأمر هو مثار جدال على الأقل؛ لكن ليس هناك أي تدخل حقاً في ما هو جوهري، في تحليل القصائد. وبما أني كنت أنصت إليه دون استياء، انبسطتْ أساريره شيئاً فشيئاً، وآل به الأمر أن عرض علي فنجان قهوة.

«لقد ترددت طويلاً، . . .» قال بعد أن طلب لنا نبيذ الجَوْزَة الأبيض. أذعنتُ بحرارة ملؤها العطف؛ قدَّرتُ مدَّة تردده في عشر دقائق، على الأكثر. «لكن الرَاتب مُهمٌّ حقاً. . .

- أصلاً، التعويض عن المعاش لا بأس به.

- الراتب، أعلى بكثير.

- كم؟

- أعلى بثلاثة أضعاف.»

عشرة آلاف دولار شهرياً لمدَرِّس رديء، لم يستطع إصدار أي مؤلف جدير بهذا الاسم، ولا صيت له: حقاً كانوا يملكون موارد كبيرة جداً. لقد أهدروا فرصة امتلاك جامعة أوكسفورد،

قال لي ستيف، لأن القطريين فازوا بالمزاد في آخر لحظة؛ لذا عزم السعوديون على المراهنة بكل ما لديهم على السوربون. بل إنهم عمدوا إلى شراء شقق في المقاطعة الخامسة والسادسة لتكون بمثابة مساكن وظيفية خاصة بالمدرِّسين؛ وهو بنفسه كانت لديه شقة جميلة جداً من ثلاث غرف، في زقاق الدراكون، مقابل كراء في حده الأدنى.

«أعتقد أنهم كانوا سوف يَستحسِنون بقاءك...»، أضاف قائلاً، «لكن تعذر عليهم الاتصال بك. وفي الحقيقة، لقد سألوني إن كان في وسعي مساعدتهم على ربط الاتصال بك؛ كان لا بد لي من إجابتهم بأني لا أستطيع، وبأننا لم نكن نرى بعضنا خارج الكلية.»

بعدها بقليل اصطحبني حتى بلغنا ميترو صونسيي. «والطالبات؟» سألته لمَّا وصلتُ قبالة مدخل المحطة. ابتسم صراحة. «بهذا الخصوص، طبعاً، تغيرت الأمور كثيراً؛ ولنقل أن ذلك اتَّخذ أشكالاً مختلفة. لقد تزوجتُ»، أضاف بقليل من الفجاءة. «تزوجتُ طالبة»، قال على وجه الضبط.

- وهل يتكفلون بذلك أيضاً؟

- ليس حقاً؛ أقصد، لا يمنعون إمكانيات التواصل. سوف أتخذ لي زوجة ثانية الشهر المقبل»، ختم قائلاً ثم اختفى متوجهاً صوب زقاق ميربيل، وقد تركني، مشدوهاً، عند مدخل السلالم.

لزمني البقاء دقائق معدودة دون حراك قبل العزم على العودة إلى البيت. حينما وصلت الرصيف، لحظتُ أن القطار المقبل في اتجاه ميري ديفري كان منتظراً بعد انصرام سبع دقائق؛ دخل قطار المحطة، سوى أنه كانت متوجهاً نحو فيلجويف.

كنتُ رجلاً مقتبَلَ الشباب، لا يهددني أي مرض فتّاك قصداً، المتاعب الصحية التي كانت تحل بي على نحو منتظم مؤلمة لكنها غير ذات أهمية في المجمل؛ بعد ثلاثين سنة، والأحرى أربعين سنة فقط قد أصل الحيّز المظلم حيث تصير كل العلل قاتلة، بدرجة تقل أو تكثر، إذ إن التكهن الطبي، كما يقال، يتوقع كل مرة تقريباً احتمال الوفاة. لم يكن لدي أصدقاء، هذا مؤكد، لكن هل سبق وكانوا لدي؟ وما جدوى الأصدقاء، إن نحن حققنا ملياً في الأمر؟ انطلاقاً من مستوى معيّن من التدهور الجسدي - وذلك سوف يتم بسرعة كبيرة، ينبغي احتساب حوالي عشرة أعوام، أو أقل على الأرجح، قبل أن يصبح التدهور بادياً للعيان، وأن يتم وصفي بأني *ما زلتُ شاباً* - ليس هناك سوى العلاقة من نوع الزواج التي تستطيع مباشرة وحقيقة أن تكون ذات معنى (فالأجساد، على نحو ما، تتمازج؛ وينخلق، بقدر ما، كيان عضوي جديد؛ أقصد، إن نحن صدّقنا أفلاطون). ومن منظور العلاقات الزوجية، فإني كنت أفتقد مقومات النجاح لذلك بكل بداهة. ومع مرور الأسابيع صارت إيميلات مريم تصلني بوتيرة أقل ومختصرة أكثر. وتخلتْ منذ فترة قصيرة عن الاستهلال بكلمة

«حبيبي»، وجعلت بدلها كلمة «فرانسوا» الخالية من كل تحيز. وفي نظري، ما هي سوى أسابيع حتى تخبرني، مثل جميع اللواتي سبقنها، أنها *التقت شخصاً ما*. لقد تم اللقاء مسبقاً، هذا ما كنت على يقين منه، لا أدري جيداً السبب، لكن شيئاً في انتقائها الكلمات المستعملة، في التقليص المستمر لعدد الوجوه المبتسمة والقلوب الباسمة المنثورة في إيميلاتها، كان يمدني عن ذلك باليقين التام؛ ببساطة، لم تكن قد وجدتْ بعدُ الشجاعة حتى تبوح لي بذلك. كانت تنفصل عني، هذا كل ما في الأمر، كانت مستغرقة في بناء حياتها من جديد في إسرائيل، وهل كان في وسعي توقع غير ذلك؟ كانت فتاة ظريفة، ذكية، ودودة، ومشتهاة إلى أقصى درجة - أجل، أكان في وسعي توقع غير ذلك؟ وفيما يخص إسرائيل، على أية حال، فقد كانت تعبر دوماً عن التحمس نفسه. «ذلك صعب، لكننا ندرك لماذا نحن هناك» هذا ما كتبته لي. بالطبع، لم يكن في وسعي أن أقول مثل ذلك.

لقد حرمتني نهاية حياتي المهنية الجامعية من أي اتصال بالطالبات؛ - إذ تطلب مني الأمر بضعة أسابيع لإدراك ذلك حقاً - وبعد، ماذا؟ هل كان ينبغي لي والحال هذه أن أسجل نفسي في موقع مِيتِيكْ، مثلما فعل الكثيرون قبلي؟ لقد كنتُ رجلاً مثقفاً، ذا مستوى حسن؛ كنتُ رجلاً مقتبل الشباب، مثلما قلتُ؛ وإن بعد أسابيع معدودة من الحوار المثمر أفلحت مؤقتاً بعض اللحظات من الحماس بخصوص أي شيء - لنفترض مثلاً رباعيات بيتهوفن الأخيرة - في إخفاء الضجر المتصاعد والشامل، وفي التلويح ببريق الأمل في لحظات سحرية أو تواطؤ عماده الانبهار والصدح بالضحك، إن عزمتُ بعد تلك الأسابيع المعدودة على اللقاء

بواحدة من مثيلاتي النسوية الكثيرات، ما الذي كان سوف يعقب ذلك؟ عطبُ إنعاظ من جهة، يبسُ فرْجٍ من جهة ثانية؛ وكان من الأفضل تجنّب ذلك.

مرّات قليلة جداً استعنت فيها بمواقع الرفقة، وغالباً ما قمت بذلك خلال أشهر الصيف، حتى أضمن نوعةً ما الجمع بين طالبتين؛ كنتُ في المجمل راضياً. مكّنني بحث سريع في الإنترنت من ملاحظة أن النظام الإسلامي الجديد لم يحدِث أي اضطراب في عملها. ترددتُ أسابيع معدودة، وأنا أفحص ملفات شخصية كثيرة، وأطبع بعضها لإعادة قراءتها (الأمر في مواقع الرفقة يشبه قليلاً دلائل الذواقة، حيث الوصف المثير لأطباق الطعام المستقلة يغري بلذائذ أعلى من تلك التي كانت مجرَّبة في آخر المطاف). ثم عزمت أمري على نادبابوريت[1] (ناديا العربية)، وقد هيجني اختيار مسلمة بما فيه الكفاية، نظراً للظروف السياسية العامة.

وبالفعل، فإن ناديا، التونسية الأصل، قد أفلتت تماماً من موجة الأسلمة الجديدة التي شملت بقوة شباب جيلها. ابْنة اختصاصي أشعة، أقامت منذ طفولتها في الأحياء الراقية، ولم تفكر يوماً في لبس الحجاب. كانت في قسم ماجستير ٢ آداب عصرية، لو قدر لها ذلك لكانت واحدة من طالباتي القديمات؛ لكنها في الحقيقة لم تكن، لقد أمضت كل مسارها الدراسي في جامعة باريس - ديدرو. من الناحية الجنسية، فإنها كانت تؤدي

---

(١) تدل كلمة Beurette على فتاة أو سيدة من أسرة يعود أصلها إلى بلاد المغرب العربي، وهي جناسٌ قلبٍ لكلمة: «عربية».

عملها بكثير من الاحترافية، إلا أنها كانت ترسل الأوضاع الجنسية بطريقة ميكانيكية كفاية، تشعر المرء أنها غائبة، ولم تدب فيها الحياة على نحو غامض إلّا عند العَفْج؛ كان لديها ردف صغير ضيق جداً، لكن لا أدري لماذا لم أشعر بأية لذة، كنت أحس بأني قادر على رطمها، دون عناء ولا سرور، طوال ساعات كاملة. وحينما شرعتْ تطلق أنّات خفيفة، أحسستُ أنها أخذت تخشى من الشعور باللذة - وربما أحاسيس بعد ذلك؛ دارت بسرعة كي تنهي لذتي في فمها.

قبل انصرافي، تبادلنا أطراف الحديث لبضعة دقائق، وأنا جالس على أريكتها «لاميزون دي كونفرتيبل»، ريثما أبلغ مدة الساعة التي أديت ثمنها. كانت ذكية بالأحرى، لكن تقليدية بما يكفي - بخصوص كل المواضيع، من انتخاب محمد بن عباس إلى ديون العالم الثالث، كان تفكيرها يقلد تماماً الطريقة المتعارف عليها في التفكير. كانت شقتها من غرفة واحدة مزينة بذوق رفيع، مرتبة على نحو مثالي؛ كنتُ متأكداً من أنها تتصرف بعقلانية، ومن أنها لا تبذر كل أرباحها في الملابس الراقية بل تعتني بادخار أكبر قسط منها. وبالفعل، فقد أكدت لي أنها بعد أربعة أعوام من العمل - إذ ابتدأت في سن الثامنة عشرة - فقد جنت ما يكفي لشراء الشقة الصغيرة حيث تزاول مهنتها. وكانت لها النية لمتابعة العمل حتى نهاية دراساتها - وبعد ذلك، فهي تفكر بالحري في حياة مهنية في المجال السمعي البصري.

بعد ذلك بأيام معدودة التقيتُ بابيث السافلة، التي كان لديها في الموقع تعقيبات تجزل لها الثناء، وتصف نفسها على أنها «ساخنة ولا محرمات لديها». وفي واقع الأمر، لقد استقبلتني في

شقتها الطريفة من غرفتين، عتيقة شيئاً ما، تلبس فحسب حمالة صدر بنهدين عاريين وتبّاناً مقدار شبر مفتوح. كان شعرها الطويل أصهب ولها وجه غِرّ، ملائكي تقريباً. كانت هي أيضاً تستحسن العفْج، لكنها لا تحرم نفسها من الإفصاح عن ذلك. بعد انصرام ساعة من الزمن لم أكن قبل بلغت شهوتي بعد، ونبهتني إلى أني كنت مقاوماً بحق؛ وفي الواقع، هذه المرة كذلك، ولو أن إنعاظي لم يخفت أبداً، فإني لم أشعر في أية لحظة باللذة. وسألتني إن كان في وسعي بلوغ شهوتي على نهديها؛ ائتمرت لها. وهي تبسط المني على صدرها أخبرتني أنها تحب كثيراً أن تطلى به؛ كانت تشارك بانتظام في معاشرة عدة شركاء في آن معاً[1]، غالبا ما يتم ذلك في علب ليلية قائمة على تبادل الأزواج، وأحياناً أخرى في أماكن عامة مثل مواقف السيارات. ومع أنها لم تطلب إلا مساهمة دنيا - خمسين أورو للشخص الواحد - فإن هذه السهرات كانت بالنسبة لها مربحة جداً، لأنها كانت تدعو إليها أحياناً أربعين أو خمسين رجلاً، الذين كانوا يتناوبون على استعمال ثقوبها الثلاثة قبل أن يستفرغوا عليها. تعهدت لي بأن تخبرني المرة المقبلة التي ستنظم فيها معاشرة الشركاء الجماعية؛ شكرتها. لم يكن ذلك يثير اهتمامي فعلاً، لكنها كانت ودودة في نظري.

وبالجملة، فقد كانت رفقتهما طيبة. ليس بما يكفي رغم ذلك لجعلي أرغب في لقائهما من جديد، ولا ربط علاقات موصولة

---

(١) Gang bangs: خلالها يكون لشخص واحد، ذكر أو أنثى، علاقة جنسية مع عدة شركاء في حضورهم جميعاً وفي آن معاً.

معهما؛ ولا من أجل مدّي بالرغبة في العيش. إذن هل كان ينبغي لي أن أموت؟ بدا لي ذلك قراراً سابقاً لأوانه.

كان أبي هو من مات في واقع الأمر، أسابيع معدودة بعد ذلك. علمتُ ذلك بفضل مكالمة من سِيلْفيا، رفيقته. وقد عبَّرت عن حسرتها في الهاتف «من أننا لم نجد الفرصة للكلام كثيراً». كان ذلك حقاً تلطفاً في الكلام: في الواقع لم يسبق لي *أبداً* أن كلمتها، ولم أكن أعلم بوجودها إلا من خلال تلميح غير مباشر من أبي إبان آخر حديث دار بيننا، قبل عامين.

جاءت في أثري إلى محطة بريانسون؛ كانت رحلتي مزعجة جداً. التي جي في الموصل إلى غرونوبل، قد يتغاضى عنه المرء، إذ إن الشركة الوطنية للسكك الحديدية كانت تراعي حداً أدنى من الخدمات في القطارات فائقة السرعة؛ لكن شبكة قطارات وحافلات النقل الجهوي السريع TER قد تركت صراحة للإهمال، فتلك التي تربط بريانسون تعرضت للعطل كثيراً، ووصلتْ نهاية الأمر متأخرة عن موعدها بساعة وأربعين دقيقة؛ كانت مجاري المراحيض مسدودة، حيث غمرت الأرضية بماء كثير ممزوج بالغائط، يكاد يتفشى حتى المقصورات.

كانت سيلفيا تقود سيارة من نوع ميتسوبيشي باجيرو إنستايل، وكم كانت دهشتي عظيمة عند رؤية المقاعد الأمامية المغلفة بأغطية تحاكي جلد الفهد. عند عودتي لما اقتنيت العدد الخاص من الأوتو جورنال، علمتُ أن الميتسوبيشي باجيرو «واحدة من السيارات الصالحة لكل الطرقات الأشد فعالية في الأماكن الخطرة». إنها، في صيغتها إنستايل، مجهَّزة بمقاعد من الجلد،

وسقف يفتح كهربياً، وبكاميرا خلفية ونظام سمعي روكفورد أكوستيك ٨٦٠ وات له ٢٢ مكبر صوت. كل ذلك كان مثيراً جداً؛ طوال حياته كلها - أقصد القسم كله من حياته الذي عرفته - التزم أبي، إلى غاية المباهاة، بحدود ذوق بورجوازي رفيع تقليدي تماماً: بِذَل من ثلاث قطع رمادية ذات أنسجة رقيقة، أو قد تكون زرقاء قاتمة، ربطات عنق إنجليزية من النوع الرفيع، إن ملبسه كان يناسب تماماً في واقع الأمر الوظيفة التي كان يشغلها: مدير مالي في مقاولة كبرى. شعر أشقر مائج بعض الشيء، عينان لونهما أزرق سماوي، وسيم الوجه: كان في وسعه تماماً أن يؤدي دوراً في واحد من الأفلام التي تنتجها هوليود بين فينة وأخرى عن تلك المواضيع المبهمة والمهمة على نحو مريع على ما يبدو التي تدور حول عالم المال والرهونات ووول ستريت. لم أره مجدداً منذ عشر سنوات، لم أكن على علم بالأحوال التي أتت عليه، إلا أني لم أتوقع بالتأكيد تحوله ذاك إلى ما يشبه محارب الضاحية.

كانت سيلفيا في عقدها الخامس، أصغر منه بخمسة وعشرين عاماً تقريباً؛ لو لم أكن موجوداً، لكانت على الأرجح قد حصلت على الميراث كله؛ وجودي يرغمها على منحي النصيب المخصص لي - ٥٠٪ مهما كان، لأني كنتُ وحيدَ والدي. في هذه الظروف، يصعب على المرء توقع أن تُظهِر مشاعر حارة إزائي؛ إلا أن معاملتها كانت حسنة على نحو معقول، كما خاطبتني دون حرج مبالغ فيه. هاتفتها مرات كثيرة لإبلاغها التأخر المتكرر لقطاري، كما أن الموثقة تمكنت من تغيير الموعد إلى الساعة السادسة مساء.

لم يأت فض وصية والدي بأية مفاجأة: كان إرثه موزعاً قسمة متساوية، بيننا نحن الاثنين؛ لم يكن هناك وصية إضافية. لكن الموثقة قامت من قبل بعملها على أحسن وجه، وشرعت في تقييم التركة.

كان يحصل على تقاعد مريح جداً من أونيلِفير، ولم يكن لديه سوى القليل من السيولة المالية: ألفي أورو في حسابه الجاري، وحوالي عشرة آلاف أورو في حساب ادخار بسندات مفتوح منذ مدة طويلة، كان منسياً على الأرجح. كان مِلكه الرئيس هو البيت الذي عاشا فيه، هو وسيلفيا: بعد زيارته للبيت، قدَّر وكيل عقاري من بريانسون ثمنه بأربعمائة وعشرة آلاف أورو. أما سيارته رباعية الدفع ميتسوبيشي، الجديدة تقريباً، فقدرت قيمتها بخمسة وأربعين ألف أورو حسب مجلة متخصصة. ما أدهشني أكثر هو وجود مجموعة من البنادق الثمينة، والتي رتبتها الموثقة حسب سعرها: الأغلى كانت من نوع فِيرْنِي - كارُونْ «بْلاتِينْ» وبندقية من نوع شابْوِي «نخبة الأورال». ويمثل المجموع مع ذلك مبلغ سبعة وثمانين ألف أورو - أكثر من رباعية الدفع بكثير.

سألتُ سيلفيا: «هل كان يهوى جمع الأسلحة النارية؟

- لم تكن من الأسلحة التي تجمع؛ لقد كان يذهب للصيد كثيرا، وصار ذلك هوايته الكبرى.»

مدير مالي سابق بأونيلفير يشتري أواخر حياته سيارة رباعية الدفع خارقة للحواجز، ويستعيد غرائزه البدائية في القنص وجمع الثمار: كان ذلك مثيراً، إلا أنه ممكن بعد كل شيء. كانت الموثقة قد أنهت عملها أصلاً؛ والمنتظر أن تلك التركة بسيطة في

قسمتها إلى حد يدعو لليأس. رغم السرعة القصوى التي تمت بها العملية، بالنظر إلى تأخري في الوصول، فإني تخلفت عن موعد قطار العودة، وكان آخر واحد لذلك اليوم. مما جعل سيلفيا في وضع حرج، مثلما أدركنا ذلك، لا شك تقريباً في الوقت نفسه، ونحن نركب السيارة. في الحين دفعت الحرج قائلاً إن من الأفضل لي، ويكثير، العثور على غرفة في فندق قريب جداً من محطة بريانسون. قطاري المتوجه إلى باريس كان سينطلق باكراً جداً في صبيحة اليوم الموالي، ولم يكن في وسعي بأي حال من الأحوال أن أتخلف عنه، إذ كانت تنتظرني مواعيد مهمة في العاصمة. كنت كاذباً لمرتين: ليس فحسب أنه لم تكن لدي مواعيد في اليوم الموالي، ولا في أي يوم غيره، بل إن القطار الأول في النهار ينطلق قبل الظهيرة بقليل، إذ كان يسعني في أفضل الأحوال توقع الوصول إلى باريس في حدود السادسة مساء. لمّا علمتْ أني سوف أختفي من حياتها عاجلاً ارتاح بالها، دعتني إلى شرب كأس «في منزلهما»، مثلما كانت تلح في القول. الأمر لا يقتصر فحسب على أن ذلك لم يعد «منزلهما»، بما أن والدي كان قد مات، بل إنه لن يصير بعد ذلك «منزلها»: نظراً للأرقام التي بُلّغتُ بها، لن يكون أمامها خيار آخر سوى بيع المنزل لأداء نصيبي من التركة.

كان بيتهما الريفي الواقع في سفوح وادي فريسنيير بيتاً ضخماً؛ حيث إن موقف السيارات تحت أرضي يتسع لعشر سيارات تقريباً. عند عبور الدهليز المؤدي إلى غرفة المعيشة، وقفت أمام غنائم محنّطة لا بد أنها كانت تعود لظِباء، وأيائل،

أقصد ثدييات من هذا النوع؛ كان هناك خنزير، من السهل التعرف عليه.

«اخلع معطفك، لو أردتَ...» قالت لي سيلفيا. «تصور، القنص، كان ذلك لطيفاً جداً؛ أنا أيضاً، لم أكن أعلم بذلك فيما قبل. كانوا يزاولون القنص يوم الأحد كله، وكنا نتعشى جميعاً مع باقي القناصة وزوجاتهم، عشرة أزواج تقريباً؛ عموماً كنا نتناول المشروبات المُشَهِّية هنا، وغالباً نذهب إلى مطعم صغير في القرية المجاورة، والذي كنا نختص به في المناسبة.»

هكذا، شهد والدي نهاية حياة *لطيفة*؛ وتلك أيضاً كانت مفاجأة. طول فترة شبابي كلها، لم يسبق لي أبداً اللقاء بأي من زملائه في العمل، ولا أظن أنه التقى أبداً بأي واحد منهم - خارج إطار العمل، تحديدا. هل كان لوالدَيَّ أصدقاء؟ ربما، لكني لم أفلح يوماً في تذكر ذلك. كنا نقيم في ميزون لا فيت في بيت كبير - بالتأكيد أصغر من هذا، إلا أنه كبير مهما كان. لم أستحضر شخصاً واحداً أتى للعشاء في بيتنا، وقضاء نهاية أسبوع، أعني هذا النوع من الأمور التي يقوم بها الناس عموماً حينما يكونون *أصدقاء* بعضهم بعض. كما لم يساورني ظن، وكان ذلك محيراً بشدة، في أن أبي كان له ما يسمى *عشيقات* - هنا بالطبع لم يسعني أن أكون على يقين بذلك، لم يكن لدي أدنى دليل؛ لكني لم أفلح بتاتاً في ربط فكرة عشيقة بالذكرى التي احتفظت بها عنه. إجمالاً، ها هو رجل كان في إمكانه أن يعيش حياتين، منفصلتين تماماً، دون أدنى وصل بينهما.

كانت غرفة المعيشة واسعة جداً، ولعلها كانت تشغل مساحة

الطبقة بأكملها؛ قرب المطبخ ذي الطراز الأمريكي المقام إلى يمين المدخل، كان هنالك خِوانٌ كبير مثل ذاك الموجود في الضِّياع. واحتلت بقية المكان مناضد وأرائك مريحة من الجلد الأبيض؛ وعلى الجدران كانت هناك غنائم قنص أخرى، وعلى مسند الأسلحة مجموعة بنادق والدِي: أشياء جميلة، بها نقوش معدنية دقيقة الصنع لها بريق لطيف. كانت الأرض مفروشة بجلود حيوانات مختلفة، أظنها جلود خرفان بالأساس؛ قد يعتقد المرء شيئاً ما أنه في فيلم إباحي ألماني لسنوات السبعينيات، واحد من تلك الأفلام التي تدور أحداثها وسط باحة استراحة قنص في اقليم التِّيرول [النمسا]. توجهتُ نحو الشرفة الزجاجية التي تمتد على طول الجدار الأقصى، المطل على مشهد جبلي. «قبالتنا، نرى قمة مُيبج، قالت سيلفيا. وأبعد من ذلك إلى الشمال، ترى سلسلة جبال لُيزِكْرَان. هل تريد شراباً ما؟»

لم يسبق أن رأيت خزانة خمر مزودة بكل ذلك القدر، هنالك عشرات من قناني كحول الفواكه، وبعض المشروبات التي لم يخطر ببالي أنها موجودة، لكني اكتفيت بكأس مارتيني. أنارت سيلفيا مصباحاً جانبياً. كان حلول المساء يغدق ومضات ذاهبة إلى الزرقة على الثلج الذي غطى جبال ليزكران، وبات الجو كئيباً بعض الشيء. لكن ما خلا أمور الإرث، لم أكن أتخيل أن تكون لديها رغبة للبقاء وحيدة في ذلك البيت. كانت ما تزال تعمل، لا أدري أي منصب تشغل في بريانسون، أخبرتني بذلك في الطريق إلى مكتب الموثقة إلا أني نسيت. من البديهي، حتى لو استقرت في شقة جميلة بوسط بريانسون، فإن حياتها كانت سوف تصبح بجلاء أقل إثارة للعجب. اقتعدتُ الأريكة على مضض بعض

الشيء، وقبلت كأساً ثانية من المارتيني - لكني كنت قد عزمت مسبقاً على أنها ستكون الأخيرة، وبعد ذلك على الفور سألتمس منها مرافقتي حتى الفندق. لن أفلح يوماً في فهم النساء، وقد تبيَّن لي ذلك بوضوح متزايد. كنا أمام امرأة عادية، بل وعادية على نحو مبالغ فيه؛ وعلى الرغم من ذلك، فقد أفلحت في العثور على شيء ما في والدي، شيء أخفقت أنا وأمي في كشفه. ولم يسعني الظن أن المسألة تتعلق فقط، بل وأساساً، بالمال؛ فهي كانت تتمتع بأجر راتب عال، كان ذلك ظاهر من ملابسها، من تسريحة شعرها، ومن طريقتها في الكلام عامة. في ذلك الرجل المُسِن، كانت أول من أفلح في العثور على شيء يستحق الحب.

عند العودة إلى باريس، عثرتُ على الإيميل الذي كنت أخشى التوصل به، منذ أسابيع معدودة؛ أعني أن ذلك ليس صحيح تماماً، أظن أني أذعنت للأمر أصلاً؛ السؤال الوحيد الذي كنت أطرحه على نفسي، هو معرفة إن كانت مريم سوف تكتب إلي، بدورها، أنها *التقت شخصاً ما*؛ إن كانت سوف تستعمل تلك العبارة.

لقد استعملت العبارة. في الفقرة الموالية، أعلنت عن أسفها العميق، وكتبت لي أنها كلما فكرت فيَّ يوماً ستفعل ذلك ببعض الحزن. أظن أن ذلك كان صحيحاً - ولو أنه في حقيقة الأمر أيضاً لن تفكر على الأرجح في ذلك كثيراً. بعد ذلك غيرت دفة الموضوع بسرعة، وتظاهرت أنها قلقة كثيراً بشأن الوضع السياسي في فرنسا. كان ذلك آَ منها، التظاهر وكأن علاقة حبنا قد انفرط عقدها نوعاً ما جراء دوَّامة التقلبات التاريخية؛ طبعاً، لم يكن الأمر بذلك الصدق تماماً، إلا أنه كان لطيفاً.

أشحت بوجهي عن شاشة الحاسوب، مشيتُ بضع خطوات نحو النافذة؛ لطخةُ غيمٍ منفردة، بجوانبها المشرَّبة لونَ البرتقال، خلف الشمس الغاربة، تطفو عاليا فوق ملعب شارلِتي، ثابتة غير

مبالية شأن مركبة فضائية عابرة للمجرّات. كنت أشعر بألم مكتوم فحسب، لكنه كافٍ لمنعي من التفكير بوضوح؛ كل ما كان يتراءى لي هو أني مرة أخرى أجدني وحيداً، برغبة في العيش تتضاءل، والكثير من المتاعب في الانتظار. ولو أنها كانت في حد ذاتها بسيطة بدرجة قصوى، فإن استقالتي من الجامعة فتحت فوضى إدارية عارمة لدى الضمان الاجتماعي، وبالدرجة الثانية لدى تعاضديتي، لم أكن أجد الشجاعة لمواجهتها. كان ذلك ملزماً لي، على الرغم من كل شيء. ومع أنه كان مريحاً، فإن معاش تقاعدي ما كان له أن يسمح لي بأي حال من الأحوال بمواجهة مرضٍ خطير؛ إلا أنه كان يسمح لي، خلافاً لذلك، باللجوء من جديد إلى المرافقات. وفي الحقيقة، لم تعد لي حينها رغبة في ذلك بتاتاً، والمقولة الكانطية الغامضة «واجب المرء تجاه نفسه» كانت تدور في خلدي حينما عزمت على تصفح شاشات موقعي المعتاد الخاص باللقاءات. اخترتُ في الأخير إعلاناً وضعته فتاتان: رشيدة، مغربية تبلغ اثنين وعشرين عاماً من العمر، ثم لويزا، إسبانية ذات أربعة وعشرين ربيعاً، وتقترحان فيه «أن يستسلما لسحر ثنائي سافل ومشيطن». بالطبع كان ذلك بسعر غال؛ إلا أن الظروف كانت على ما يبدو تبرر إنفاقاً استثنائياً بعض الشي؛ اتفقنا على موعد يوافق مساء اليوم نفسه. جرت الأمور في البداية مثل العادة، يعني على وجه حسن بالأحرى: كانت لهما على سبيل الكراء شقة من غرفة واحدة ظريفة قرب ساحة مُونْج؛ أحرقتا بعض البخور وأطلقتا موسيقى هادئة من صنف أغنية الحيتان، دَحَمْتهما دحماً وعفجتهما، كل واحدة منهما نوبة، دون تعب ولا لذة. لما انقضت نصف ساعة، بينما كنت أباشر لويزا

وهي جاثية على أربع، حينها فحسب طرأ شيء جديد: قبَّلتني رشيدة، ثم، وقد اكتسى وجهها بابتسامة خفية، اندسَّت خلفي؛ في البداية وضعت يداً على ردفَيَّ، ثم قرَّبت وجهها وأخذت تلحس خصيتَيَّ. شيئاً فشيئاً، أحسستُ أن بداخلي تنبعث، وبانبهار متزايد، رعشات اللذة المنسية. ربما رسالة مريم، واقع أنها تنفصل عني رسمياً على نحو ما، كان من شأنه أن فكَّ قيود شيء ما بداخلي، لا أدري. بعدما أذهلني الاعتراف بالجميل، استدرتُ، نزعتُ الواقي ومنحت نفسي لفم رشيدة. بعد ذلك بدقيقتين، بلغتُ شهوتي بين شفتيها؛ لحستُ بعناية آخر القطرات بينما كنتُ أداعب شعرها.

وأنا أتأهب للرحيل، كنتُ مصراً على منح كل واحدة منهما فَضْلَة مائة أورو؛ ربما كانت خلاصاتي السلبية سابقة لأوانها، فهاتان الفتاتان تقدمان عن ذلك شهادة تضاف إلى التحول المباغت الذي حصل في حياة والدي، أواخر أيامه؛ وربما، لو أني التقيت رشيدة بانتظام، لنشأت مشاعر حب بيننا في آخر الأمر، لا شيء على الإطلاق كان يسمح باستبعاد ذلك.

هذه الطفرة الوجيزة من الأمل حدثت في لحظة استعادت فيها فرنسا، بصفة عامة، تفاؤلاً لم تشهده منذ نهاية العقود الثلاثة المزدهرة التي تلت الحرب، خمسين عاماً من ذي قبل. وبالإجماع استقبِلت بدايات حكومة الوحدة الوطنية التي وضعها محمد بن عباس على أنها فوز، ولم يسبق أبداً لرئيس جمهورية منتخب حديثاً أن أنعم عليه بمثل هذه «المُهْلة»، كل المعلقين كانوا على وفاق في هذا الشأن. ومراراً كنت أستحضر ما قاله لي تانُور، والطموحات الدولية للرئيس الجديد، ورصدت باهتمام خبراً تم السكوت عنه تماماً: استئناف المفاوضات حول الانضمام المقبل للمغرب إلى الاتحاد الأوروبي؛ أما بالنسبة إلى تركيا، فقد تم مسبقاً تحديد جدول زمني. إذن لقد بدأت إعادة بناء الإمبراطورية الرومانية، وعلى الصعيد الداخلي، فإن محمد بن عباس كان يحقق نجاحاً لا شيّة فيه. والنتيجة العاجلة لانتخابه هي انخفاض معدل الجريمة، وبنِسَبٍ عالية: في أخطر الأحياء، فقد انخفضت كلياً بعشرة أضعاف. هناك نجاح عاجل آخر، البطالة، والتي شهدت مستوياتها هبوطاً حاداً. ولاشك أن ذلك ناتج عن مغادرة النساء الكثيفة لسوق الشغل - وهي مغادرة ارتبطت بالرفع

من قيمة الإعانات الأسرية، وهي أول تدبير قدمته الحكومة الجديدة، بصفة رمزية. إلا أن شرط الصرف بالتوقف عن كل نشاط مهني أغضب اليسار قليلاً، في البداية، لكن بالنظر إلى إحصاءات البطالة، فإن الغضب زال بسرعة. بل إن العجز في الميزانية لن يرتفع جراء ذلك: إن الرفع من الإعانات الأسرية قد تم تعويضه كاملاً بالخفض الحاد من ميزانية التربية الوطنية - وكانت بكثير أول ميزانية للدولة فيما قبل. في المنظومة الجديدة التي تم وضعها، فإن إلزامية التدريس تتوقف عند المرحلة الابتدائية - أي، تقريبا في سن الثانية عشرة؛ وتم العمل من جديد بشهادة نهاية الدروس، وبدا كأنه تتويج عادي للمسار التربوي. كما تم تشجيع مسلك الحِرَف اليدوية. أما تمويل التعليم الثانوي والجامعي فقد أصبح خصوصياً بالكامل. كل هده الإصلاحات كان الهدف منها «أن تعيد للأسرة مكانتها وكرامتها الكاملة، باعتبارها الخلية الأساس لمجتمعنا»، هذا ما أعلنه الرئيس الجديد للجمهورية ووزيره الأول في خطاب مشترك عجيب، حيث تحدث بن عباس بنبرات زهدية تقريباً، وحيث إن فرانسوا بايرو، ووجهه يشع بابتسامة مزهوة عريضة، لعب تقريباً دور جان صوسيس، الهانسوورست في فن الإيماء الألماني القديم، والذي يكرر بصورة مبالغ فيها - وساخرة بعض الشيء - ما تم قوله من طرف الشخصية الرئيسية. ولم يكن للمدارس الإسلامية ما تخشاه بكل بداهة - في ما يخص التعليم، فإن كرم الملكيات البترولية كان على الدوام بلا حدود. وعلى نحو مباغت جداً، بعض المدارس الكاثوليكية واليهودية، تبين أنها أفلحت في تخطي الأزمة عبر استنجادها بعدد من أصحاب المقاولات؛ وفي كل الأحوال،

كانوا يعلنون أنهم أكملوا جولتهم، وأنهم سوف يفتحون أبواب مدارسهم انطلاقاً من الدخول المقبل.

الانبجاس الداخلي الشديد لمنظومة المعارضة الثنائية وسط - يسار، وسط يمين التي كانت تسند الحياة السياسية الفرنسية منذ أزمنة غابرة، أغرق بادئ الأمر وسائل الإعلام كلها في حالة من الذهول الذي بلغ حدود الخُبْسة. وقد تمكن الناس من رؤية كريستوف باربيي التعس، بوِشاحه المُنَكَّس، يزحف ببؤس من منصة تلفزيون إلى أخرى، غير قادر على التعليق عن تحول تاريخي لم يستطع توقع حدوثه - ولم يستطع أحد، في الحقيقة، توقع حدوثه. لكن، شيئاً فشيئاً، مع مرور الأسابيع، بدأت تتشكل بوادر معارضة. أولاً، من جهة عَلمانيي اليسار. وبقيادة شخصيات غير متوقعة مثل جون لوك ميلانشون وميشيل أونفري، تمت تجمعات احتجاج؛ جبهة اليسار كانت ما تزال موجودة، على الورق، على الأقل، وكان في الوسع توقع أن يكون لمحمد بن عباس منافس قابل للترشح سنة ٢٠٢٧ - وبالطبع بصرف النظر عن مرشحة الجبهة الوطنية. وخلافاً لذلك، فإن بعض التشكيلات مثل تجمع الطلبة السلفيين جهرت بصوتها، منددةً باستمرار تصرفات منافية للأخلاق، ومطالبةً بتطبيق حقيقي للشريعة. وهكذا شيئاً أخذت تتضح ملامح نقاش سياسي. وسوف يكون نقاشاً من صنف جديد، مختلفاً جداً عن تلك النقاشات التي شهدتها فرنسا خلال العقود الأخيرة، يشبه أكثر النقاش الموجود في غالبية الدول العربية؛ إلا أنه سيكون، مع ذلك، نقاشاً نوعاً ما. ثم إن وجود نقاش سياسي ولو كان كاذباً ضروري لحسن سير وسائل الإعلام، بل ربما لوجود شعور ولو شكلي بالديمقراطية وسط الساكنة.

فضلاً عن هذه الضجة المبتذلة، فإن فرنسا كانت آخذة في التحول سريعاً، والتحول في العمق. وتبيَّن على الفور أن محمداً بن عباس، حتى بصرف النظر عن الإسلام، كان يمتلك أفكاراً؛ أثناء جلسة أسئلة مع الصحافة، أعلن أنه متأثر بالفلسفة التوزيعية، مما أدخل مستمعيه في حاله ذهول عام. وفي حقيقة الأمر، لقد سبق له وأعلن ذلك، مرات عديدة، خلال الحملة الرئاسية. لكن الصحافيين لهم ميل طبيعي إلى تجاهل المعلومات التي يشق عليهم فهمها، إذ لم يتم الرد على الإعلان ولا تداوله. هذه المرة، كان الأمر يتعلق الأمر برئيس جمهورية يمارس مهامه، وقد بات من اللازم عليهم أن تساير وثائقهم العصر. وهكذا علم الجمهور العريض خلال الأسابيع التالية أن التوزيعية فلسفة اقتصادية ظهرت في إنجلترا بداية القرن العشرين بزعامة مفكرَيْن اثنين، جلبير كيث شسترتون وهلير بيلوك. وتزعم أنها «طريق ثالثة»، تحيد عن الرأسمالية وعن الشيوعية - المشبهة برأسمالية الدولة. كانت فكرتها المؤسسة هي إلغاء الفصل بين رأس المال والشغل. وتُمثل المقاولة العائلية فيها الشكل العادي للاقتصاد؛ حينما يغدو لازماً، بالنسبة إلى بعض المنتجات، التجمع في كيانات أوسع، توجب فعل أي شيء حتى يصير العمال مساهمين في مقاولتهم، ويتقاسموا المسؤولية في تدبيرها.

وقد أوضح بن عباس لاحقاً أن التوزيعية تتفق تماماً مع تعاليم الإسلام. ولم يكن التوضيح نافلاً، حيث عُرِف عن شسترتون وبيلوك وهما على قيد الحياة خصوصاً ضراوة خوضهما حروباً كلامية بصفتهما كاثوليكيين. وتبيَّن بسرعة، رغم النزعة المضادة للرأسمالية المعْلَنة في المذهب، أن سلطات بروكسيل لم

يكن لها ما تخشاه في الأصل من هذا التوجه. وتمثلت التدابير العملية المتخذة من طرف الحكومة الجديدة من جهة في الإلغاء الشامل للإعانات المقدَّمة من طرف الدولة للمجموعات الصناعية الكبرى - وهي تدابير حاربتها بروكسيل منذ أمد طويل باعتبارها مسّاً بمبدأ المنافسة الحرة - ومن جهة أخرى تَبَنِّي تعديلات ضريبية تصب كثيراً في مصلحة العمل الحِرَفي ووضع المقاولة الذاتية. ومنذ الوهلة الأولى كانت تلك التدابير شعبية إلى حد أقصى؛ ومنذ عشرات السنين، تمثل الحلم المهني لدى الشباب عالمياً في «إنشاء مقاولته» أو على الأقل أن يكون له وضع «عامِل مستقل». وكما أن هذه التدابير كانت تناسب تماماً تحولات الاقتصاد الوطني: على الرغم من مخططات إنقاذ باهظة التكلفة، فإن المواقع الصناعية الكبرى واصلت إغلاق أبوابها في فرنسا، الواحد تلو الآخر؛ بينما الفلاحة والصناعة الحِرَفية استطاعتا تخطي الأزمة، بل ظفرتا، كما يقال، بحِصَصٍ من الأسواق.

كل هذه التحولات أفضت بفرنسا إلى نموذج مجتمعي، لكن كان لابد للتغير من أن يظل ضمنياً إلى حين النشر المدوّي لمقالة من توقيع عالم اجتماع شاب، دانييل داسيلفا، الذي له عنوان ساخر، ذات يوم كل هذا سوف يصير مِلكاً لك، يا بُنيّ، وله عنوان فرعي شديد الوضوح «السبيل إلى الأسرة العاقلة». وفي مقدمته إشادة بمقالة أخرى، نشرت قبل عشرة أعوام، للفيلسوف باسكال بروكنر، وفيها يمجِّد هذا الأخير عودة زواج العقل، بعدما لاحظ فشل زواج القلب. كما أن داسيلفا كان يؤكد أن الرابطة الأسرية، وعلى الأخص الرابطة أب - ابن، لا يسعها بأي حال أن تستند إلى الحب، وإنما إلى نقل فن الفعل ونقل تراث. وفي

نظره، كان لا بد للمرور إلى نظام الأجور المعمَّم من أن يؤدي إلى انفجار الأسرة والتفتيت التام للمجتمع، الذي لن يتمكّن من إعادة بناء نفسه ما لم يعتمد نموذج الإنتاج العادي مجدداً على المقاولة الفردية. إذا كانت الأطروحات المضادة للرومنسية قد عرفت في الغالب نجاحاً مدويّاً، فإنها قبل داسيلفا عانت الأمرّين كي تظل في الأفق الإعلامي، بما أن الإجماع ظل شمولياً في وسائط الإعلام المهيمنة حول الحرية الفردية وغرابة الحب وأمور أخرى.
صاحب ذهن ثاقب، مُناظِر ممتاز، غير مبال كفاية في الأصل بالأيديولوجيات السياسية أو الدينية، يلبث في جميع الظروف مركّزاً بصرامة على مجال خبرته - تحليل تطور البنيات الأسرية وعواقبه على الآفاق الديمغرافية للمجتمعات الغربية - فقد توجب على عالم الاجتماع الشاب، هو الأول، أن يفلح في فضّ حلقة سيادة اليمين droitisation التي تهدد بأن تنشأ حوله، وتفرض نفسها كصوت مرخص له في نقاشات المجتمع التي وُلِدت (ولدت ببطء شديد، وتدرج شديد، دون أي عنف كبير، بما أن المناخ العام ظل مناخَ قبولٍ مضمرٍ وخافتٍ، إلا أنها وُلِدَت رغم ذلك) حول مشاريع محمد بن عباس المجتمعية.

حكايتي الأسرية بنفسها كانت تجسيداً تاماً لأطروحات داسيلفا؛ أما عن الحب، فقد كنتُ بعيداً عنه أكثر من أي وقت مضى. لم تتكرر معجزة زيارتي الأولى لرشيدة ولويزا، وعاد قضيبي عضواً فعالاً وغير حساس بالقدر نفسه؛ غادرتُ شقتهما وأنا في حالة من اليأس تكاد تكون تامة، وأنا أدرك بأني لن أراهما ثانية أبداً على الأرجح، وبأن الإمكانات الحيَّة تنساب بين أصابعي بسرعة مفرطة، وقد تركتني، مثلما كان سوف يقول ويسمانس «لا يتأثر ومتيبِّس».

بعد وقت قصير، حطَّ فجأة على أوروبا الغربية منخفض بارد يمتد لعدة كيلومترات؛ بعد أن ظل أياماً معدودة فوق الجزر البريطانية وشمال ألمانيا، فإن كتل الهواء القطبية نزلت في ليلة واحدة على فرنسا، نجمت عنها درجات حرارة منخفضة استثناء بالنسبة للموسم.

جسدي الذي لم يعد في وسعه أن يكون منبعاً للذة ظل منبعاً معقولاً للعذاب، وبعد أيام معدودة أدركتُ أني ضُرتُ، للمرة العاشرة ربما منذ ثلاثة أعوام، ضحية خلل التعرّق، يتخذ شكل التهاب جلدي فقاعي. بثور صغيرة لزقة بأخمص القدمين وبين

الأصابع غايتها أن تجتمع ببعضها وتشكل بقعة من القيح، تنضح. علِمتُ من موعد مع طبيب الجلد أن الالتهاب فَظُع حاله بفطر نجم عن طفيليات استوطنت الموضع الذي مسَّه الضّر. كان العلاج معروفاً لكنه طويل الأمد، لم يكن في الوسع توقع أي تحسن ذي بال قبل انصرام أسابيع عديدة. كان الألم يوقظني كل الليالي المتعاقبة؛ وكان علي حك جلدي طوال ساعات، حد خروج الدم، حتى أظفر براحة مؤقتة. من العجيب أن أصابع رجلَيّ، تلك الأطراف الجسدية الصغيرة البدينة، التافهة، تكون عرضة للتهلكة بكل ذلك القدر من العذاب الموجع.

ذات ليلةٍ من جلسات الحكّ تلك، نهضتُ، وقد أدميتُ قدميَّ، ذهبت حتى الشرفة الزجاجية. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، إلا أن الظلمة لم تكن مطبقة، كما هي الحال دوماً في باريس. من نافذتي يميز المرء بعض البنايات الشاهقة، ومئات من البنايات المتوسطة. وبالجملة، آلافاً من الشقق، وما يساويها من الأُسَر - بصفة عامة الأُسَرُ في باريس لا يتعدى عددها شخصاً واحداً أو شخصين، بل وعلى نحو متزايد لا تضم في الغالب سوى شخص واحد. جل هذه الخلايا، كان يعمها الظلام حينها، لم يكن لدي سبب حقيقي لقتل نفسي، مثل أغلبية هؤلاء الناس. بل عند التحقيق، كنت بجلاء أقلهم سبباً: لقد اتسمت حياتي بمنجزات فكرية حقيقية، كنت أحظى بالاعتراف والاحترام في وسط معيَّن - بالتأكيد هو وسط ضيق جداً. وعلى الصعيد المادي، لا شكوى لدي من شيء: لدي تأمين حتى الوفاة للاستفادة من عائد مرتفع، أكبر بضعفين من المعدل الوطني، دون

أن أقوم مقابل ذلك بأدنى شغل. ومع ذلك، كنت أشعر بالأمر جيداً، كنت أدنو من الانتحار، دون إحساس باليأس ولا بحزن معيَّن، بل بتدهور بطيء فقط يمس «كل الوظائف التي تقاوِم الموت» التي يتحدث عنها بِشَا. الظاهر أن إرادة العيش لم تعد كافية لي قصد مقاومة مجمل الآلام والمتاعب التي تسم حياة إنسان غربي متوسط الحال، صرتُ عاجزاً عن العيش من أجل نفسي. ومِن أجل مَن غيري يا ترى كنت أود العيش؟ لم تعد البشرية تعنيني في شيء، بل غدت تُنَفِّرُني، ولم أكن أعتبر البشر قطعاً كأنهم إخواني، والأمر أفدح من ذلك إن كانت الحال تخص صنفاً محدداً من البشر، مثلاً ذاك الذي يتمثل في أبناء وطني أو زملائي القدامى. ومع ذلك، بمعنى غير سار، كان لابد لي الإقرار به، أولاء البشر هم أشباهي، ولكن هذا الشبه بالتحديد هو ما يجعلني أبتعد عنهم؛ الأمر كان سيتطلب وجود امرأة، ذلك هو الحل الكلاسيكي، المجرَّب، إن امرأة ما هي بالتأكيد من البشر لكنها تمثل صنفاً بشرياً مختلفاً قليلاً، إنها تمد الحياة بعبق غريب. وكان في وسع ويسمانس أن يعرض المشكل تماماً بالمفردات نفسها، فالوضع لم يتغير منذ ذلك الحين، وإلا فقد تحَوَّل بصورة غير رسمية وسلبية، عبر تفتت بطيء، عبر تسوية الفروق - بل حتى ذلك كان اً فيه. وقد اتخذ في الأخير طريقاً مغايراً، واختار غرابة أشد تطرفاً، غرابة *الألوهية*؛ لكن هذا الطريق يجعلني في حيرة دائمة بالقدر نفسه.

مرت أشهر معدودة عقب ذلك؛ وفي آخر الأمر هزم العلاج خلل التمرق الذي أصابني، لكن حلَّت مكانه في الوقت نفسه

تقريباً آلام بواسير حادّة للغاية. اشتدّت برودة الجو أكثر، وصارت تنقلاتي محدودة أكثر فأكثر: خرجة أسبوعية إلى غاية جيان كازينو لتموين مخزوني من المواد الغذائية وتلك الخاصة بالصيانة، خرجة يومية إلى غاية صندوق بريدي لأخذ الكتب التي كنت أطلبها من موقع أمازون.

ومع ذلك اجتزت دون يأس مبالغ فيه فترة الأعياد. السنة الماضية، كنت قد توصلت بإيميلات التهنئة بالعام الجديد - من أليس على الأخص، ومن بعض زملاء الكلية أيضاً. هذه السنة، للمرة الأولى، لم يكن هناك أحد.

في التاسع عشر من كانون الثاني/يناير ليلاً، غمرتني موجة من الدموع غير متوقعة، ولا حد لها. في الصباح، بينما كان الفجر يطل على لوكريملان - بيسِتْر، قررتُ العودة إلى دير لِيغُوجي، هناك حيث تلقى ويسمانس نذور خدمة الرّب.

تم الإعلان عن تأخر غير محدد للقطار فائق السرعة الذاهب إلى بْواتِيِي، وكان أعوان الأمن بالشركة الوطنية للسكك الحديدية يقومون بدوريات على طول الأرصفة حرصاً على ألا يقوم مسافر ما بإشعال سيجارة؛ إجمالاً كانت بداية رحلتي سيئة بالأحرى، وكانت في انتظاري خيبات أخرى داخل القطار. صار المكان المخصص للأمتعة ضيِّقاً أكثر منذ رحلتي الأخيرة، بل لم يعد له وجود تقريباً، حقائب وجِراب السَّفر كانت تتراكم في الممرات، مما يجعل التجول بين المقصورات مُحالاً وسبباً في المشاجرات، وقد كان فيما مضى من محاسن السفر الرئيسية على متن السكة الحديد. الحانة سِيرْفِير التي تَطلَّبَ مني الوصول إليها عشرين دقيقة، هي الأخرى كانت تحتفظ لي بخيبة جديدة: جل الأطباق لم تكن متوفرة مع أن القائمة كانت قصيرة. وكانت كل من الشركة الوطنية للسكك وشركة سيرفير تعتذر عن الإزعاج الحاصل؛ توجَّب عليَّ الاكتفاء بخضراء كِينُوَا المذرَّحة بالريحان ومياه غازية إيطالية. كنت قد اشتريتُ نسخة من صحيفة لبيراسيون، من شدة يأسي تقريباً، في فضاء استراحة المحطة. شد انتباهي مقال في نهاية الأمر، تقريباً بمحاذاة سانْ بْيِيرْ دي كُور: تبين في آخر

المطاف أن التوزيعية التي أعلن عنها الرئيس الجديد، لا تقل هجومية عمّا بدت عليه بادئ الأمر. من بين العناصر الأساسية في الفلسفة السياسية التي أدخلها شسترتون وبيلوك كان مبدأ التبعية. وفق هذا المبدأ، لا ينبغي لأي كيان (اجتماعي، اقتصادي أو سياسي) أن يتحمَّل وظيفة عُهِدَ بها إلى كيان أصغر منه. لقد عرض البابا بيوس الحادي عشر، في منشوره أربعون سنة تعريفاً لهذا المبدأ: «مثلما أنه من السيّئ أن ننزع من الفرد ونعهد إلى الجماعة ما يمكن للمقاولة الخاصة والصناعة إنجازه، فإنه لظلم عظيم وأذى حقيقي وبلبلة للنظام الذي يناسب تنظيماً أعلى أشد اتساعاً أن نتولى وظائف يمكن أن تضطلع بها بنجاعة كيانات سفلى أصغر.» والحالة هذه، فإن الوظيفة الجديدة التي يؤدي التكفل بها على مستوى أوسع بإفراط إلى «بلبلة النظام المناسب»، وهذا ما انتبه إليه بن عباس مؤخراً، ليست سوى التضامن الاجتماعي. وقد قال بتأثر في خطابه الأخير، ليس ثمة أجمل من التضامن حينما يتم في إطار الخلية الأسرية الدافئ!... كان «إطار الخلية الأسرية الدافئ» في هذه المرحلة ما يزال إلى حد بعيد عبارة عن برنامج؛ لكن بشكل ملموس أكثر، فإن مشروع الميزانية الجديد للدولة كان يتوقع على مدى ثلاث سنوات تخفيض النفقات الاجتماعية للبلاد بنسبة ٨٥٪.

والمدهش في الأمر هو أن السحر المنوِّم الذي كان ينشره حوله منذ البداية واصل مفعوله، كما أن مشاريعه لم تكن تصادف أي معارضة جدِّيّة. لقد كان لليسار دوماً تلك القدرة على جعل الناس يقبلون إصلاحات تضاد المجتمع التي كان سيتم رفضها بشدة، لو أنها أتت من اليمين؛ وحال الحزب الإسلامي كانت

أشد بكثير، كما تبيَّن. في الصفحات الدولية علمتُ أن المفاوضات مع الجزائر وتونس بغية انضمامها للاتحاد الأوروبي كانت تتقدم بسرعة، وأن هذين البلدين سوف يلتحقان قبل نهاية السنة المقبلة بالمغرب داخل الاتحاد؛ كما أنه تم فتح قنوات اتصال أولى مع لبنان ومصر.

بدأت رحلتي تتخذ منعطفاً ملائماً بعض الشيء في محطة قطار بْوَاتْيِي. كانت هناك سيارات تاكسي بأعداد كافية، ولم يبد السائق دهشة بتاتاً حينما أخبرته أني ذاهب إلى دير ليغوجي. كان رجلاً في سن الخمسين، عُضُلّ، في نظرته حكمة ولطف؛ كان يقود بحذر سيارته تويوتا الصغيرة. يحج الناس من أنحاء العالم كل أسبوع للإقامة في أقدم دير مسيحي بالغرب، هذا ما أخبرني به؛ الأسبوع الماضي فحسب، حمل معه ممثلاً أمريكياً مشهوراً - لم يفلح أبداً في تذكر اسمه، إلا أنه كان على يقين من أنه شاهده مسبقاً في بعض الأفلام؛ خلص ببحث قصير إلى أن الأمر قد يتعلق، على الأرجح لكن دون تأكيد، بالممثل بْرَاد بِيتْ. لا بد وأن رحلتي ستكون ممتعة، كان هذا زعمه: المكان هادئ، الطعام لذيذ. أدركتُ حينما كان يقول ذلك أنه ليس فحسب يظن ذلك بل إنه كان يتمناه، بأنه من ذلك الصنف من الناس القلة في آخر المطاف الذين يفرحون قبلاً لسعادة أشباههم، وباختصار أنه كان ممن يسمى عند الناس بال-رجل الشهم.

في بهو مدخل الدير ينفتح يسرةً حانوتٌ حيث يمكن شراء منتوجات الصناعة الحرفية الخاصة بالدير - إلا أنه كان مغلقاً، في

ذلك الحين؛ ويُمْنَة، كان مكتب الاستقبال خاليا. كانت لوحة صغيرة تشير إلى إمكانية دق الجرس في حال الغياب، إلا أنه كان ينبغي، خارج حالة الاستعجال القصوى، الامتناع عن فعل ذلك أوقات القدَاس. كانت المواقيت مضبوطة، لكن مدتها لم تكن كذلك: بعد حساب طويل بما يكفي، خلصتُ، إلى أنه من أجل أن تتم كل الشعائر في يوم واحد، فإن مدة كل قداس لا ينبغي على الأرجح أن تتجاوز نصف ساعة. وبفضل عملية حسابية قصيرة، عرفت أنهم في هذا الوقت بالضبط، بين قداس صلاة السادسة وصلاة التاسعة؛ كان في وسعي إذن دق الجرس.

دقائق معدودة بعد ذلك، ظهر راهب طويل القامة، يلبس جبّة سوداء؛ بشَّ في وجهي لما رآني. وجهه ذو الجبين المرفوع كانت تحفه خُرْص شعر كستنائي صغيرة، بالكاد وخطها الشّيب، وتطوقه لحية دقيقة كستنائية أيضاً، أظن أنه يبلغ من العمر خمسين سنة على أكبر تقدير. «أنا الأخ جُوِيل، الذي أجبت عن رسالتك الإلكترونية» ثم حمل بحزم جراب الرحلة، «سوف آخذك إلى غرفتك». كان مستقيم الوقفة، يحمل دون مشقة جرابي الثقيل رغم ذلك، أعني أنه يبدو في أتم اللياقة البدنية. «نحن سعداء جداً للقائك من جديد، تابع قائلاً، مرَّت أكثر من عشرين سنة، أليس كذلك؟» لا بد أني نظرت إليه وقد علت وجهي علامة استفهام تام، لأنه سألني: «لقد نزلتَ ضيفاً علينا منذ عشرين سنة خلت، أليس كذلك؟ حينذاك، كنتَ مشغولاً بالكتابة عن ويسمانس؟». كان ذلك صحيحاً، لكن ما أذهلني هو تذكره لي، وفي ما يخصني، لم يكن وجهه يذكرني بشيء على الإطلاق.

«أنت مَن يُلقَّب بالأخ المضيف، هو ذاك؟

- كلا، كلا، قطعاً، إلا أني كنت كذلك حينذاك. إنها وظيفة غالباً ما يشغلها الرهبان الشباب - أعني، شباب في حياة الرهبنة. الأخ المضيف مدعو للتحدث مع ضيوفنا، إنه ما يزال على صلة بالعالم الخارجي؛ أن يكون الواحد منا أخاً مضيفاً، فذلك أشبه بمكان بينَ - بينْ، درجة وسط تُمنحُ للراهب قبل انغماسه في خلوة الصمت. وفي ما يخصني، فقد لبثتُ أخاً مضيفاً مدة تفوق سنة بقليل.»

مشينا على طول بناية جميلة من طراز عصر النهضة، تحُفُّها حديقة؛ شمس خريفية باهرة، تشع في الممرات المفروشة بالأوراق اليابسة. في البعيد، تمتد كنيسة عالية بمقدار علو المحبس تقريبا، من الطراز القوطي المتأخر. «هذه كنيسة الدير القديمة، تلك التي حضرها ويسمانس...»، أخبرني الأخ جويل. «لكن بعد انفراط عقد الطائفة جرّاء قوانين كُومْب، حينما أفلحنا في إصلاح أمورنا، لم نستطع استردادها، خلافا لبنايات المحبس. وقد وجب علينا بناء كنيسة جديدة في حرم الدير.» وقفنا قبالة بناء من طبقة واحدة، من طراز النهضة نفسه. «هذا بيت الضيوف، سوف تنزل هنا...» تابع قائلاً. في اللحظة نفسها، راهبٌ دَحْدَحٌ، يلبس جبّة سوداء كذلك، ظهر وهو يعدو عند الطرف الأقصى من الممرّ. نشيط، له صلعة تكاد تلمع تحت الشمس، كان يُشعر الناظر بالمرح والمقدرة القصوى؛ يظنه المرء وزيراً للمالية، أو أفضل من ذلك وزيراً للميزانية، أعني أن لا أحد كان سيتردد في منحه مسؤوليات هامة، هذا ما بدا لي. «وها هو الأخ بيير، أخونا المضيف الجديد، معه سوف تتعامل بخصوص كل الجوانب العملية لإقامتك...»، قال لي الأخ جويل. «أما

أنا، فقد أتيت للسلام عليك فقط»، بعد هذه الكلمات، انحنى أمامي، شدَّ على يدي ثم انصرف نحو المحبس.

«أتيتَ في القطار فائق السرعة؟» سألني الأخ المضيف؛ وكّدتُ كلامه. «أجل، الرحلة سريعة حقاً، في القطار الفائق السرعة»، تابع قائلاً، والظاهر أنه كانت لديه رغبة في الدفع بالحديث على قاعدة التراضي. ثم، وهو يحمل جراب سفري، اصطحبني حتى بلغنا غرفتي: تسعة أمتار مربّعة، منجّدة بورق مصبوغ تتخلله ضفائر رمادية مشرقة، والأرضية مغطاة بسجّاد صناعي كُشِط وبره بما يكفي، لونه رماديٌّ معتدل. تجلت الزينة الوحيدة في صليب ضخم من الخشب الدكن، معلَق فوق سرير صغير يسع شخصاً واحداً. لحظتُ بسرعة أن المُغْتَسَل لم يكن به صنبور يعدل السخونة؛ كما لحظتُ في السقف وجود أداة استشعار الدّخان. قلت للأخ بيير إن الغرفة تناسبني تماماً، إلا أني كنت أعلم أصلاً أن ذلك مجانب للصواب. حينما يتساءل، أحياناً بلا كلل، في رواية في الطريق عن حقيقة ما إذا كان قادراً على تحمل حياة الرهبانية، فإن حجة من الحجج النافية التي يقبل بها ويسمانس تمثلت في منعه من التدخين داخل البنايات. هذا النوع من الجُمل، على الدوام، هو ما جعلني أستحبه؛ شأن ذلك المقطع أيضاً الذي يعلن فيه أن واحدة من مسرات الحياة الخالصة على هذه الأرض تتجلى في أن يلوذ المرء، وحيداً، بسريره، وطوع يده مجموعة من الكتب الجيدة وعلبة تبغ. لاشك في ذلك، لا شك؛ لكن لا عهد له بالأدوات التي تستشعر الدّخان.

فوق مكتب خشبي أعرج بما فيه الكفاية يرقد إنجيل، وكتيّب - من توقيع دون جان بيير لونجا - حول مغزى الخَلوة في الدير

(مع الإشارة: «ليس للأخذ») وورقة معلومات تضم، بالأساس، أوقات الصلوات والطعام. علمتُ من نظرة خاطفة أن وقت صلاة التاسعة قد حان أو كاد، لكنني قررت ألا أذهب، بالنسبة لذلك اليوم الأول: لأنها لم تكن ذات رمزية ساطعة، إذ الغاية من صلوات الثالثة والسادسة والتاسعة كانت «تفويض الأمر لحضرة الإله على مدار اليوم». كانت هناك سبع صلوات في اليوم، إضافة إلى القدّاس اليومي؛ لم يتغير شيء بالمقارنة مع عصر ويسمانس، حيث تمثل التخفيف الوحيد في أن صلاة السَّحرية التي كانت تجري من قبل على الساعة الثانية صباحاً، تم تقديمها عند الساعة العاشرة ليلاً. أثناء مقامي الأول، أحببت كثيراً هذه الصلاة التي تتألف من ترانيم تأملية طويلة، تحت جنح الليل، وهي تنأى بالقدر نفسه عن صلاة النوم (وعن توديع النهار) وعن الأمداح التي تستقبل مطلع فجر جديد؛ لم تكن خدمة سهلة بالتأكيد صلاة الانتظار الخالصة تلك، وصلاة الرجاء الأسنى من غير سبب للأمل، في عز الشتاء، حينما لم تكن الكنيسة مزودة بأجهزة التدفئة.

الأمر الذي كان له أثر كبير فيَّ هو أن الأخ جويل تعرف عليَّ، بعد غياب دام عشرين سنة. لابد أنه لم يعش أحداثاً كثيرة، في هذا الفاصل الزمني، منذ أن غادر خدمته كأخ مضيف. لقد اشتغل في معامل الدير، وحضر القداديس اليومية. لقد كانت عيشته راضية، وعلى الأرجح سعيدة؛ كانت على الطرف النقيض من عيشتي.

قمت بعد ذلك بنزهة طويلة في الحديقة، ودخَّنت خلالها سجائر كثيرة، في انتظار صلاة الغروب، التي تسبق مباشرة وقت

الطعام. كانت الشمس تسطع بازدياد، وتجعل الصقيع برّاقاً، وترسل على حجر البنايات ومضات صهباء، وقرمزية على الأوراق المفروشة. ولم أعد أتبين بوضوح مغزى وجودي هنا، لقد تجلّى أحياناً، خافتاً، ثم اندثر فور ذلك تقريباً؛ لكن، بالطبع، لم تكن له صلة تذكر بويسمانس.

وخلال اليومين التاليين اعتدت على ابتهالات الصلوات تلك، دون أن أفلح مع ذلك حقيقة في استحسانها. كان القداس هو العنصر المميَّز الوحيد، نقطة التَّماس الوحيد مع الورع كما هو متعارف عليه في العالم الخارجي. وبخصوص البقية، فإن الأمر كان متعلقاً بالقراءة وتلاوة الترانيم المناسبة لساعات النهار، أحياناً تتخللها قراءات موجزة لنصوص مقدسة، يقوم بها واحد من الرهبان - قراءات ترافق أيضاً وجبات الطعام، الذي يُتناوَل في صمت. وكانت الكنيسة العصرية، التي شيدت داخل حرم الدير، قبيحة على نحو رصين - وهي تذكر قليلاً من خلال هندستها بالمركز التجاري سوبر باسي، بزقاق البشارة، ونوافذه الزجاجية الملوَّنة، وهي لطخات بسيطة مجردة وملونة، لم تكن تستحق الانتباه؛ إلا أن كل ذلك لم تكن له أهمية في نظري: لم أكن عالم جمال، أقل بكثير من ويسمانس، كما أني لم أكن أبالي تقريباً بالقبح المنتظم للفن الديني المعاصر. كانت أصوات الرهبان ترتفع في الهواء الصقيعي، صافية، وديعة ومباركة؛ كانت مفعمة بالعذوبة، والرجاء والترقب. كان لا بد للمولى يسوع من أن يعود، كان عائداً في العاجل، ودفء حضوره ملأ بالمسرة

أنفسهم أصلاً، كان ذلك في العمق هو موضوع الأناشيد الوحيد، أناشيد الترقب العضوي والعذب. لقد كان نيتشه محقاً، بفضل حاسته التي تشبه حاسة عاهرة عجوز: المسيحية في الأصل، ديانة أنثوية.

كان في وسع كل ذلك أن يلائمني، لكن حينما عدت إلى حجرتي ساءت الأمور بالنسبة لي؛ كانت أداة استشعار الدخان ترمقني بعينها الحمراء الصغيرة، العدوانية. أحياناً كنت أنصرف للتدخين عند النافذة، كي ألحظ أن الأمور، بهذا الخصوص أيضاً، قد تدهورت منذ ويسمانس: فهذا خط القطار فائق السرعة كان يمر عند الطرف الأقصى من الحديقة، على علو مئتي متر، وكانت القطارات تسير أيضا بسرعة كبيرة وضوضاء المقطورات على السكة يرُجُّ مرَّات عديدة على مدار الساعات، صمت المكان الغارق في التأمل. لكن البرد صار أشد قسوة، وكلما وقفت عند النافذة التصقت بعد ذلك بمدفأة الغرفة دقائق عديدة. كان الكدر يهجم على مزاجي، إلا أن كلام دونْ جان بيير لونجا المنثور- الذي كان بكل تأكيد راهباً بارعاً، يفيض محبّة ونوايا حسنة - بات يزعجني أكثر فأكثر. «يجب على الحياة أن تكون تبادلاً دائماً للمحبة، سواء في الضَّرَّاء أو في السّرّاء»، ذاك ما كان يكتبه الأخ، «اختلس إذن فرصة هذه الأيام المعدودة لشحذ الهمة في القدرة على المحبة وجعل الناس يحبونك، كلاماً وفعلاً». لقد أذرغتَ في الكلام أيها السيد الأخرق، أنا وحيد في غرفتي، قلت هازئاً بغضب. «إنك هنا لتضع متاعك وتشد الرحال داخل نفسك، في ذلك المكان النَّبع حيث تتجلَى قوة الرغبة»، هذا ما كان يكتبه أيضاً. رغبتي باديَة جليَّة، أرغيتُ وأزبدتُ، تتمثل فحسب في

تدخين سيجارة، إنك ترى حالي ها هنا أيها السيد الأخرق، ها هو مكاني نبعي. لم أكن على الأرجح أشعر، خلافاً لويسمانس، بأن قلبي «يقسو ويرتفع دخان غيظه جرّاء المباهج»؛ أما أن تقسو الرئتان ويرتفع دخانهما بفعل التبغ، فذلك يحصل، أجل، دون أدنى شك.

«أنصِتْ، ذُقْ واشرب، ابكِ وغنِّ، اطرق باب المحبة!» هكذا كان يصيح لونجا النَّشوان. صباح اليوم الثالث أدركتُ أنَّ عليَّ الرحيل، هذه الإقامة كانت فاشلة حتماً. أسررتُ للأخ بيير بمسؤوليات مهنية طارئة على الإطلاق، ذات وقع لا يصدق بمعنى الكلمة، أكرهتني للأسف على اختصار مساري. برأسه التي تشبه رأس بيير موسكفتشي، كنتُ أعلم أنه سوف يصدقني، وربما كان قريناً لموسكفتشي في حياة سابقة للتو، أعني أن التفاهم ممكن مع بيير موسكفتشي، كنت أعلم أن الأمور سوف تكون بيننا على ما يرام. لكن مع ذلك كان له عندي رجاء، حينما ودعنا بعضنا في بهو الاستقبال بالدير، أن تكون طريقي بين ظهرانيهم طريقاً هادية إلى النور. قلتُ إنها كذلك دون عناء، وإن مقامي مرَّ في أحسن الظروف، لكني شعرت ذلك الحين أني كنتُ دون توقعاته قليلاً.

أثناء الليل، اقترب منخفض جوي من جهة جنوب غربي فرنسا قادماً إليها من الأطلسي، وارتفعت الحرارة بعشر درجات؛ وظل ضباب كثيف يغطي البادية المحيطة بمدينة بواتيي. كنت قد طلبت سيارة أجرة قبل حلول وقت ذلك بكثير، وفضلَت لي تقريباً ساعة من الزمن يجب هدرها؛ في حانة الصداقة، التي يقع مدخلها على مسافة أقل من خمسين متراً من الدير، قضيتُ تلك

الساعة في ابتلاع كؤوس من جعة اللّيف والهوغاردن. كانت النادلة نحيلة وتضع الكثير من الماكياج، والزبائن يتكلمون بأصوات عالية - بالأساس عن العقار وعن العطل. لم أشعر بأي قدر من الرضا عن وجودي بين أشباهي.

V

«إذا لم يكن الإسلام نظاماً سياسياً، فهو لا شيء.»

(آية الله الخميني)

في محطة بواتيي، كان عليّ تغيير تذكرة القطار. لم يكن هناك من مقاعد شاغرة تقريباً في القطار فائق السرعة المقبل المتوجه نحو باريس، وقد أديْتُ مبلغاً إضافياً لولوج فضاء التي - جي - في الدرجة الأولى لرجال الأعمال. وهو حسب المكتب الوطني للسكك مكان مميّز، يضمن ربط الواي فاي دون خلل، وفيه ألواح أوسع لوضع وثائق العمل، وموصلات كهرباءة حتى لا يواجه المرء بلاهة عطل حاسوبه الشخصي؛ وما خلا ذلك، فإنها درجة أولى عادية.

وجدت مقعداً فرداً، لا يقابلني فيه أحد، وفي اتجاه سير القطار. من الجهة الأخرى للممر، جلس رجل أعمال عربي في سن الخمسين، كان يلبس جلابة بيضاء طويلة وكوفية بيضاء كذلك، لعله كان قادماً من مدينة بوردو، بسط ملفات كثيرة جنب حاسوبه على الألواح التي تحت تصرفه. قبالته، فتاتان بالكاد فارقتا المراهقة - لاشك أنهما زوجتاه - جمعتا كل ما طالته اليد من سكاكر ومجلات في فضاء استراحة المحطة. كانتا نشيطتين وضاحكتين، ترتديان لبسات طويلة وحجباً مزركشة الألوان. في

هذا الحين كانت إحداهما مكبَّة على مجلة بِيكْسُو، والأخرى على مجلة أوبنس.

ومن جهته، كان رجل الأعمال يُشعر من يراه أنه يصارع هواجس جمّة؛ بعد فتح علبة بريده، قام بتحميل وثيقة مرفقة ضمَّت عدة جداول Excel؛ وتبيَّن أن فحص تلك الوثائق زاد من حيرته. طلب رقماً عبر هاتفه المحمول وانخرط همساً في حديث طويل، لم أكن أفهم مدار الحديث وسعيتُ دون حماسة تذكر للإكباب على قراءة الفيغارو التي كانت تناقش الحكم الجديد الذي استتب له الأمر في فرنسا من زاوية العقار والتّرف. ومن هذا المنظور، فقد كان الوضع يعد بالكثير: بعدما أدركوا أنهم يتعاملون منذ ذلك الحين مع بلد صديق، فقد ازدادت يوماً بعد يوم رغبة مواطني ملكيات الخليج في الحصول على موطئ قدم في باريس أو الكوت دازور، ومزايدتهم على الصينيين والروس، وباختصار، فإن حال السوق كانت بخير.

بضحكات عالية، انكبت الفتاتان الشابتان العربيتان على لعبة الأخطاء السبعة في مجلة بيكسو. وهو يرفع بصره عن جدوله، وجّه لهما رجل الأعمال ابتسامة عتاب مؤلمة. بادلتاه الابتسامة، وتابعتا على منوال الهمس المثير. أمسك مجدداً هاتفه المحمول ودخل في حديث جديد، على القدر نفسه من الطول والسّرّية. في النظام الإسلامي، النساء - أعني اللائي على ما يكفي من الجمال لإثارة رغبة زوج ثري - كانت لهن في الأصل إمكانية أن يبقين تماماً طفلات حياتهن كلها. بعد الخروج بقليل من الطفولة، يصرن أمهات، لينغمسن من جديد في عالم الطفولة. كان أبناؤهن يكبرون، ثم يصبحن جدات، وتمضي حياتهن على هذا النول.

هنالك فقط بضعة أعوام يشترين خلالها ثياباً داخلية شهوى - وهذا في العمق يؤول تقريباً إلى الأمر نفسه. من البديهي أنهن كنَّ يفقدن استقلاليتهن، لكن تباً للاستقلالية[1]، إذ كنتُ مكرَهاً للإقرار في ما يخصني أني تخلَّيتُ بسهولة، بل وبارتياح حقيقي، عن كل مسؤولية على الصعيد المهني أو الفكري، وبأني لا أغبط بتاتاً رجل الأعمال ذاك، الجالس عند الجانب الآخر من ممر مقصورتنا بالتي جي في درجة الأعمال الأولى، الذي كاد وجهه يغدو أرمد من شدة القلق طالما تواصلت محادثته الهاتفية، الظاهر أنه كان في موقف حرج - وقد جاوز قطارنا في ذلك الحين محطة سان بيير دي كور. لقد حظي على الأقل بزوجتين رشيقتين وفاتنتين، للترويح عنه من هواجسه بصفته رجل أعمال متعباً - وربما كانت لديه واحدة أخرى أو اثنتين في باريس، وظننت أني تذكرت أن العدد الأقصى هو أربع وفق الشريعة. أما أبي، فقد كانت لديه. . . أمي، تلك العُصابيّة العاهرة. اقشعر بدني من هذه الخاطرة. أعني أنها ميتة الآن؛ وبقيتُ، شاهداً حيّاً وحيداً على حبهما - ولو أني غدوت متعباً في الآونة الأخيرة -.

---

(١) وردت العبارة بالإنجليزية في النص: fuck autonomy

أضحت الحرارة ألطف في باريس كذلك، لكن بدرجة أقل، وأرهمت السماء مطراً بارداً على المدينة؛ كانت حركة السير كثيفة جداً في زقاق تُولْبْياك، الذي بدا لي طويلاً على غير العادة، وعنَّ لي أنه لم يسبق لي أبداً عبور زقاق بمثل ذلك الطول، لا نهاية له وعلى ذلك القدر من الكآبة والضجر. لم أكن أتوقع شيئاً محدداً من عودتي، سوى متاعب مختلفة. لكن، كم كانت دهشتي عظيمة حينما وجدت رسالة في صندوق البريد - أعني شيئاً لا هو إعلان ولا فاتورة ولا طلب معلومات إدارية. ألقيت نظرة تقزز إلى صالوني، وأنا عاجز عن تجاهل بداهة أني لم أكن أشعر بأية لذة مميزة عندما خطرت فكرة العودة إلى بيتي، في تلك الشقة حيث لا أحد يحب أحداً، ولا أحد يحبه. سكبت لنفسي كأساً كبيرة من الكالفادوس قبل فض الرسالة.

كانت تحمل توقيع باستيان لاكُو - الذي فيما يبدو خلف هِيغ بْراذِيي على رأس منشورات لاَبْلِياذْ، قبل سنوات - لم أكن على علم بهذا الخبر حينذاك. كان يشير فيها بداية إلى أن ويسمانس، جراء تغافل ليس له تفسير، لم يدخل بعد قائمة منشورات لابلياد، في حين أنه بكل بداهة جزء من المتن الكلاسيكي في الأدب

الفرنسي؛ لم يكن في وسعي سوى الاتفاق مع هذا القول. وتابع كلامه مؤكداً اقتناعه بأن نشر أعمال ويسمانس في لابلياد لا ينبغي أن يُعهد به إلى شخص سواي، نظراً لما يميز أعمالي من جودة عالية معترف بها كونياً.

لم يكن العرض قابلاً للرفض. أقصد، يمكن للمرء أن يرفض طبعاً، لكن حينها سوف يعني ذلك التخلي عن أي شكل من أشكال الطموح الفكري أو الاجتماعي - عن أي شكل من الطموح بكل بساطة. هل كنت على استعداد لذلك حقاً؟ كنت بحاجة ماسة لكأس أخرى من الكالفادوس للتفكير في المسألة. وبعد تفكير، تبيَّن لي من باب الحيطة النزول مجدداً قصد شراء قنينة.

بعد يومين حصلتُ بسهولة كبيرة على موعد مع باستيان لاكو. كان مكتبه مثلما تخيلته تماما، عتيق عن قصد، يصل إليه المرء عبر ثلاث طبقات من سُلَّم خشبي وعرٌ صُعوده، يطل على حدائق داخلية مهملة. وهو بذاته كان مثقفاً من النوع العادي، بنظارات دائرية صغيرة لا مسند لها، مرِحٌ بالأحرى، تبدو عليه علامات الرضا عن النفس، وعن الدنيا، ومكانته فيها.

كان لي بعض الوقت لإعداد اللقاء، واقترحتُ توزيع أعمال ويسمانس إلى مجلدات، يضم الأول منها الأعمال من علبة التوابل إلى خلوة السيد بوغران (واصطفيت سنة ١٨٨٨ بوصفها تاريخَ تأليفٍ هو الأشد رجحاناً)، وخصص المجلد الثاني لدورة دورال، بداية من هنالك إلى السَّادن، وبالطبع مع إضافة حشود لورد. وهذا التوزيع البسيط، المنطقي بل والبديهي، لا يثير

صعوبة تذكر. أما مسألة الحواشي فقد كانت شائكة دوماً. ظنت بعض الطبعات شبه العلمية أنه من الأحسن تخصيص هوامش بها معلومات عن عدد لا حصر له من المؤلفين والموسيقيين والرسامين الذين ذكرهم ويسمانس. وقد تبيَّن لي أن لا جدوى من ذلك، حتى لو رتبت تلك الهوامش في ذيل الكتاب. فضلاً عن أنها قد تثقل الكتاب كثيراً، ولن نصل أبداً إلى معرفة هل نحن نفرط في الحديث - أو بما فيه الكفاية - عن لاكتانس وأنجيل دو فولينيو أو ؛ وليس على من يريد معرفة أعمق سوى البحث بنفسه، بكل بساطة. وبخصوص تبيان علاقات ويسمانس بكُتَّاب عصره - زولا، موباسان، باربي دوريفيلي، غورمون أو بْلُوا - فقد كان ذلك دور المقدمة في نظري. وهنا أيضاً، تَبَنى لاكو رأيي على الفور.

وخلافاً لذلك، فإن الألفاظ الغريبة والمولَّدة التي استعملها ويسمانس تبرر بشدة اللجوء إلى منظومة من الهوامش - التي تصورتها كهوامش تقع أسفل الصفحات، حتى لا يتم إبطاء القراءة إلى حد أقصى. وافق بحماسة «لقد سبق وأنجزتَ عملاً معتبراً بهذا الخصوص، في مؤلفك دوار الألفاظ المولَّدة!» قال مبتهجاً. رفعت يدي اليمنى إشارة مني فيها الكثير من التحفظ، مؤكداً أني على العكس، في الكتاب الذي تفضل بذكره، طرقت جانباً من المسألة فحسب؛ إذ قاربت فيه ثلث المدونة اللغوية عند ويسمانس على أقصى تقدير. من جانبه، رفع ذراعه اليسرى، إشارة منه فيها الكثير من التهدئة: بالطبع، لم يقصد بأي حال من الأحوال التقليل من العمل الشّاق الذي سوف يتوجب عليه إنجازه لإنشاء هذه الطبعة؛ كما أنه لم يتم حتى تلك الساعة تحديد تاريخ

الانتهاء من العمل، وبهذا الصدد كان لا بد لي من الإحساس أني مرتاح تماماً.

«أجل، إنك تعمل من أجل الأبدية...

- كثيراً ما نجد في قول ذلك بعض الزعم، لكن أجل، ذلك مطمئن، على أي حال.»

عقب ذلك القول عمّتْ لحظةُ صمتٍ، فيها من القدر اللازم من الإطراء لا غير؛ أظن أن الأمور كانت تجري على وجه حسن، كنا نتفق حول قيم مشتركة، وتلك الطبعة من لابلياد سوف تكون على أحسن ما يرام.

«لقد تحسر روبير رديجير كثيراً على مغادرتك السوربون عقب تغير النظام، إذا جاز لنا القول»، قال مستأنفا كلامه بصوت يشوبه وجع شديد. «أعرف ذلك لأنه صديق لي. صديق شخصي» أضاف بشيء من التحدي. «لقد بقي بعض المدرسين ممن لهم مستوى عال جداً. بينما انصرف آخرون، لهم المستوى نفسه. وقد كان رحيل كل واحد منهم، بمن فيهم أنت، بمثابة جرح مسّه شخصياً» ختم قائلاً بشيء من الفجائية، كما لو أن صراعاً عنيفاً نشب للتو في داخله بين واجب الأدب وواجب الصداقة.

لم أملك أي جواب على ذلك بتاتا، وانتهى به المطاف أن أدرك ذلك، بعد صمت دام زهاء دقيقة. «أقصد، أنا مسرور جداً لأنك قبلت مشروعي البسيط!» صاح وهو يفرك يديه كما لو كان ذلك مقلباً لطيفاً دبَّرناه توّاً لمجتمع المعرفة وأهلها. «ها إنك ترى، لقد بدا لي من المستغرب والمؤسف تماماً أن رجلاً مثلك... رجلاً من مستواك، أقصد، يجد نفسه دفعة واحدة دون

تدريس، دون منشورات، دون شيء!» بعد تلك الكلمات، ولأنه أدرك بأن نبرته كانت على الأرجح مفرطة في مأساويتها شيئاً ما، قام من مقعده خفية، بينما نهضت بحيوية ظاهرة.

ومما لا شك فيه أنه حتى يضفي على الميثاق الذي جمعنا للتو المزيد من الوهج، اصطحبني لاكو ليس فحسب إلى غاية الباب، بل نزل بمعيتي الطبقات الثلاث («حذار، الدرجات وعرة بالأحرى!»)، ثم في الممرات («إنها متاهة!») قال مازحاً؛ لم تكن كذلك في واقع الأمر، كان هناك ممران يلتقيان عند زاوية قائمة، ويصل المرء مباشرة إلى بهو الاستقبال، حتى مخرج منشورات غاليمار، بزقاق غاستون - غاليمار. صار الهواء من جديد أشد برودة وجفافاً، وأدركتُ حينذاك أننا لم نتطرق في أية لحظة لمسألة التعويضات. كأنه اطلع على ما في خاطري، أدنى يده من كتفي - دون أن يلمسها مع ذلك - وهو يلقي «سوف ابعث لك بمقترح عقد في الأيام المقبلة.» ثم أضاف، دون أن يستعيده نفَسَه: «ثم إن هناك حفل استقبال صغيرالإ، يوم السبت المقبل، على شرف إعادة فتح السوربون. سأبعث لك أيضاً دعوة عبر البريد. أعرف أن روبير سيكون مسروراً جداً لو استطعتَ الحضور.» هذه المرة، ربت على كتفي تماماً ثم شدّ على يدي. كان قد لفظ الكلمات الأخيرة بما يشبه الاندفاعة الخفيفة، كما لو أن ذلك عنَّ له دون تخطيط مسبق، لكني شعرت تلك اللحظة أن تلك الجمل الأخيرة، في الحقيقة، هي ما يفسر ويبرر كل ما سبق.

ابتدأ الحفل على الساعة السادسة مساء، وجرى في الطبقة الأخيرة من معهد العالم العربي، التي اختُصَّ بها للمناسبة. كنت حائراً بعض الشيء حينما سلمتُ دعوتي في المدخل: يا ترى من سوف يقدر لي ملاقاتهم؟ مما لا شك فيه سألتقي بسعوديين، فالدعوة كانت تؤكد على حضور أمير سعودي تعرفتُ تماماً على اسمه، كان هو المساهم الرئيس في الجامعة الجديدة باريس - السوربون. وبزملائي القدامى على الأرجح، أقصد من قبلوا منهم بالعمل في الصيغة الجديدة - إلا أني لم أكن أعرف منهم أحداً باستثناء سْتيف، وكان ستيف بالطبع آخر شخص أود اللقاء به تلك اللحظة.

ومع ذلك تعرفت على زميل قديم، ما إن مشيت بضع خطوات في القاعة الكبرى المضاءة بثريات، أقصد أني بالكاد كنت أعرفه معرفة شخصية، لعلنا تبادلنا الحديث مرة أو مرتين، لكن برنار دو جينياك كان يتمتع بشهرة عالمية في مجال أدب القرون الوسطى، حيث كان يقدم بانتظام محاضرات في جامعتي كولومبيا وييل، وهو صاحب المؤلَّف المرجعي عن أنشودة رولان. وهذا في الأصل النجاح الحقيقي الوحيد الذي يمكن

لرئيس الجامعة الجديدة أن يفخر به، في ما يخص التوظيف. لكن ما عدا ذلك لم يكن هناك في حقيقة الأمر ما أحدثه به، لأن مجال الأدب في العصر الوسيط يمثل بالنسبة لي عالماً مجهولاً شاسعاً؛ وقبلت إذن بشيء من الحكمة بعض المشهيات المزة - كانت رائعة، الساخن منها والبارد، وكان النبيذ اللبناني الأحمر الذي يرافقهما طيّباً هو الآخر.

لم أشعر رغم ذلك بأن الحفل حقق نجاحاً صارخاً. مجموعات صغيرة من الأشخاص يتراوح عددهم بين ثلاثة وستة أفراد - عرب وفرنسيين - كانوا يتجولون في القاعة المزينة على نحو رائع، نادراً ما يتبادلون الكلام. الموسيقى العربية الأندلسية، المملة والكئيبة، التي تذيعها مكبرات الصوت، لم تعمل على تلطيف الأجواء، لكن المشكل لا يكمن هناك، وأدركت بغتة الخلل، بعد ثلاثة أرباع الساعة من التّسكع وسط الحضور، بعد عشرات من لقيمات المزة وأربع كؤوس من النبيذ الأحمر: لم يكن هناك سوى الرجال. لم تتم دعوة أية امرأة، والحفاظ على حياة اجتماعية مقبولة في غياب النساء - ودون دعم كرة القدم، الذي كان سوف يبدو غير مناسب في هذا السياق الجامعي مهما يكن - كان رهاناً يصعب خوضه.

وعقب ذلك على الفور رأيت لاكو، وسط جمع كثيف لاذ بزاوية من القاعة، يتألف فضلاً عنه من حوالي عشرة أفراد عرب وفرنسيَين اثنين آخرين. كان الجميع يتحدث بنشاط شديد، ما خلا رجل في الخمسين، له أنف معقوف جداً، ووجه سمين وحاد التقاسيم. كان لباسه بسيطاً، جلابة بيضاء طويلة، لكنني أدركت على الفور أنه أهم رجل في المجموعة، وعلى الأرجح هو الأمير

بعينه. كانوا يلقون، كلٌّ حسب دوره، في سورة غضب، ما بدا أنها مبررات، بينما كان وحده مقيماً على صمته، يهز رأسه بين فينة وأخرى، لكن ظلّ وجهه مكتوماً، أقصد أنه كان ظاهراً للعيان وجود مشكل ما، لكنه لم يكن يعنيني في شيء، درت على عقبي، قبلتُ سَنْبُوسَة محشوة بالجبن وكأساً خامسة من الخمر.

دنا رجل من الأمير، كان الرجل مسناً، نحيلاً، فارع الطول، لحيته طويلة وخطها الشيب، تنحّى الأمير جانباً لمحادثته على انفراد. لمّا فقد مركزه، تفرق الجمع فوراً. سائراً على غير هدي داخل القاعة صحبة واحد من الفرنسيين الأخر، رآني لاكو وقدم نحوي ملوّحاً بإشارة غامضة. لم يبد أنه كان على ما يرام حقّاً، وعرّفنا على بعضنا بصوت يكاد يكون غير مسموع، لم أتبين حتى اسم رفيقه ذي الشعر الملبَّد، الممشوط إلى خلف قحف الرأس بكثير من العناية، والذي كان يلبس بذلة رائعة من ثلاث قطع، لونها أزرق دامس تخترقها عمودياً خطوط بيضاء خفية، والثوب البرّاق شيئاً ما كان يبدو ناعماً إلى أقصى حد، لا بد أنه من حرير، وَدِدْتُ لو لمسته، لكني أحجمت عن الأمر بصعوبة.

المشكل هو أن الأمير تضايق بشدة لأن وزير التربية الوطنية لم يحضر الحفل، بخلاف الوعد الذي قطع لهم رسمياً. ولم يقف الأمر عند غياب الوزير بل لم يكن هناك أي ممثل للوزارة، ولا أحد على الإطلاق، «حتى ولا سكرتير الدولة المعتمد لدى الجامعات...» ختم قوله مرتبكاً.

«لم يعد هنالك سكرتير دولة معتمد لدى الجامعات منذ التعديل الأخير، لقد سبق وقلت لك ذلك!» قاطعه رفيقه بانزعاج. بالنسبة له، كان الوضع أكثر سوءاً مما ظنه لاكو: لقد كان الوزير

ينوي الحضور حقاً وحقيقة، إذ أكد له ذلك في اليوم السابق فقط، لكن الرئيس بن عباس هو من تدخل بنفسه لثنيه عن الأمر، وذلك لغرض واضح هو إهانة السعوديين. وذلك يسير في الاتجاه نفسه الذي نهجته تدابير أخرى حديثة العهد، أساسية أكثر، مثل إحياء البرنامج النووي المدني وتطوير المساعدات لصنع السيارة الكهربائية: إن الأمر بالنسبة للحكومة كان يخص الحصول في المدى القصير على استقلال طاقي تام عن البترول السعودي؛ ومن البديهي أن ذلك لا يصب في صالح شؤون الجامعة الإسلامية باريس السوربون، لكن كان على رئيسها بالأخص الاهتمام بذلك، في نظري، وفي تلك اللحظة شاهدت لاكو يستدير نحو رجل في سن الخمسين كان قد دخل للتو إلى القاعة متوجهاً صوبنا بخطى سريعة. «ها هو ذا روبيرا» قال وقد انشرح صدره وكأنه كان في استقبال المسيح.

ومع ذلك أخذ من الوقت ما يلزم لتقديمي، بطريقة مسموعة هذه المرة، ثم أخبره بالوضع. شد رديجير على يدي بقوة، وكاد يسحقها بكفيه القويين، وهو يؤكد لي بأنه كان مسروراً جداً بلقائي، وبأنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ أمد بعيد. كان جُسمانه مثيراً بما فيه الكفاية: طويل القامة، لا ريب له طول يبلغ أكثر من متر وتسعين سنتمتراً بقليل، كما كان ضخم الجثة، عريض الصدر، متين العضلات، له جسم أقرب إلى ظهير في الكرة المستطيلة منه إلى أستاذ جامعي، في حقيقة الأمر. وجهه الملوَّح سمرة، وقد حفرته تجاعيد عميقة، كان يعلوه شعر أبيض بالكامل لكنه كث ومقذذ كالمشط. كان لباسه المخالف للعادة بما فيه الكفاية، سروال جينز وسترة طيَّار من الجلد الأسود.

فسَّر له لاكو المشكل بسرعة؛ هزَّ رديجير رأسه، غمغم قائلاً إنه اشتم رائحة خدعة من ذلك القبيل، ثم خلص إلى القول، بعد ثوانٍ معدودة من التفكير: «سأهاتف ديلهومي. هو سيعرف ما يجب فعله.» ثم أخرج من سترته هاتفاً محمولاً بالغ الصِّغر له شكل قوقعة، أنثوي تقريباً، والذي بدا صغير الحجم في راحة يده، تنحَّى جانباً بضعة أمتار لطلب رقم. كان لاكو ورفيقه ينظران نحوه ولا يجسران على الدّنو منه، يشلهما انتظار مقلق، وأخذت حكاياتهما تزعجني قليلاً، وعلى الأخص، وجدت أنهما أبلهان تماماً، بالطبع، كان من الواجب تملق البترودولار إذا جاز القول، لكن، كان يكفي الاستعانة بأي كومبارس وتقديمه ليس على أنه الوزير بما أنه شوهد على التلفزيون وإنما بصفته مديراً لديوانه، أما الدمية الأخرى ببذلته من ثلاث قطع فقد يؤدي دور مدير ديوان دون عناء، حتى تنطلي الحيلة على السعوديين بسهولة، حقاً، إنهم يصعبون الأمور على أنفسهم لأتفه الأسباب، لكن تلك مشكلتهم، قبلت كأساً أخيرة من الخمر، وخرجت إلى الشرفة، المنظر المطل على نوتردام المضاءة كان رائعاً حقاً، خفَّت درجة الحرارة أكثر، وتوقف انهمار المطر، وكان ضوء القمر يرقص فوق مياه السِّين.

لا بد أني لبث لمدة طويلة مستغرقاً في التأمل، وحينما عدت إلى القاعة، تفرق الحضور، لكن ظل بالطبع مقصوراً على الرجال، لم أر لاكو ولا البذلة ذات القطع الثلاث. طيّب، قطعاً، لم أحضر هناك سُدىً، حدّثت نفسي، وأنا ألتقط نشرة المموّن اللبناني، لقد كانت المزة خاصتهم لذيذة حقاً، وعلاوة على ذلك خدمة التسليم، قد يجعلني هذا أغير الأطعمة الهندية. في الوقت

الذي التمست فيه معطفي من مخدع الملابس، دنا رديجير مني. «هل أنت منصرف؟...» سألني وهو يسدي بين ذراعيه وقد بدا على محيّاه الأسف. سألته إن كانوا قد أفلحوا في حل المشكل البروتوكولي. «أجل، لقد استطعت في نهاية المطاف تسوية القضية. لن يحضر الوزير هذا المساء، لكنه هاتف الأمير شخصياً، ودعاه إلى فطور عمل في الوزارة غداً صباحاً. ومع ذلك، أخشى أن شْرامِيك كان على حق: لقد كانت إهانة متعمَّدة من بن عباس، الذي يحيي يوماً عن يوماً علاقات الصداقة التي تعود إلى فترة الشباب مع القطريين. باختصار، إنَّا لم نخرج تماماً من عنق الزجاجة. أقصد...» حرَّك يده اليمنى وكأنه يطرد ذلك الموضوع المحرج، ثم وضعها على كتفي. «لكني متأسف حقاً من أن هذا الهاجس التَّافه منعنا من الكلام معاً. يجب أن تأتي يوماً ما عندي لتناول الشاي، حتى يكون لدينا المزيد من الوقت...» ابتسم في وجهي بغتة؛ كانت لديه ابتسامة ساحرة، منفتحة جداً، تكاد تشبه ابتسامة طفل، وهي مثيرة إلى حد أقصى عند رجل ذي طلعة بكل ذلك القدر من الفحولة؛ أظن أنه كان يعلم ذلك، ويعرف استخدامه. ناولني بطاقته. «ماذا لو قلنا الأربعاء المقبل، نحو الساعة السابعة مساء؟ ألن يشغلك شيء إذَّاك؟». أجبته إني موافق.

في الميترو، فحصتُ بطاقة عمل علاقتي الجديدة؛ بدت أنيقة ورفيعة، حسب معرفتي البسيطة. كان رديجير يتوفر على رقم هاتف خاص، ورقمَيْ هاتف مهني، ورقمَيْ فاكس (واحد خاص، والثاني مهني)، وثلاثة عناوين انترنت غير محددة النسبة بصورةٍ بيِّنة، ورقمَي هاتف محمول (واحد فرنسي، والثاني إنجليزي) وتعريف سكايب؛ ها هو ذا رجل على أي حال لا يدخر وسيلة ليتصل به الناس. قطعاً، بعد لاكو، أصبحتُ أرتاد الدوائر العليا، وبات الأمر جراء ذلك محيِّراً تقريباً.

كما كان له عنوان بالرقم ٥، زقاق لِيزَارِينْ، وتلك هي المعلومة الوحيدة التي سأحتاجها في الوقت الراهن. وتبين لي أني أذكر زقاق ليزارين بوصفه زقاقاً صغيراً ساحراً يطل على ساحة حلبات لوتيس، التي تُعد من الأماكن الأشد سحراً في باريس. كان هنالك باعة اللحوم، والجبن التي ينصح بها بُتِيرُونُو ويَاذْلُوسْكِي - أما المنتوجات الإيطالية، فحدّث ولا حرج. كل ذلك كان يشيع الاطمئنان إلى حد كبير.

في ميترو ساحة مونج، عنّت لي فكرة سلك مخرج «حلبات

لوتيس»، وكانت فكرة سيئة. من المؤكد أن ذلك كان له ما يبرره على الصعيد الطوبوغرافي، إذ يوصلني توّاً إلى زقاق ليزارين؛ لكني نسيتُ أن هذا المخرج لا مِصعد فيه، وأن ميترو ساحة مونج يقع عند علو خمسين متراً على مستوى الزقاق، كنت متعباً تماماً ويشق عليَّ التنفس حينما خرجت من منفذ الميترو العجيب ذاك، المحفور في حيطان سور الحديقة، بأعمدته السميكة وزخرفته المستوحاة من الفن التكعيبي، والتي كان مظهرها البَابِلي الجديد العام غير منسجم تماماً مع باريس - ثم قد يكون كذلك في أي مكان من أوروبا تقريباً.

أدركت ذلك حينما وصلت إلى الرقم ٥، زقاق ليزارين، لم يكن رديجير يقيم فحسب في زقاق ساحر بالمقاطعة الخامسة، وإنما كان يقطن بيتاً خاصاً في زقاق ساحر بالمقاطعة الخامسة، بل أكثر من هذا، كان يقطن بيتاً خاصاً له تاريخ. فالرقم ٥ ليس سوى تلك البناية القوطية الجديدة العصيّة على التصديق، يعلو جانبها برج صغير مربع الغاية منه التشبه ببرج حصن، فيها عاش جان بُولاَن من عام ١٩٤٠ حتى مماته عام ١٩٦٨. في ما يخصني، لم أستطع أبداً تحمُّل جان بولان، لا هو باعتباره بمثابة مرشد خفي ولا أعماله، لكن وجب الإقرار بأنه كان واحداً من أقوى الشخصيات في عالم النشر الفرنسي بعد الحرب الثانية؛ وبأنه عاش في بيت جميل جداً. زاد إعجابي بالاعتمادات المالية التي وضعتها العربية السعودية رهن إشارة الجامعة الجديدة.

قرعتُ الجرس واستقبلني رئيس خدم بلباسه الأبيض القشدي، وسترة لها ياقة على الطريقة الماوية، لباس يذكر قليلاً بلباس الدكتاتور السابق القذافي. عرَّفت نفسي، انحنى قليلاً، كان

وصولي متوقعاً في الحقيقة. التمس مني الانتظار في بهو صغير تنيره نوافذ زجاجية ملونة بينما ذهب لإخبار البروفسور رديجير.

كنت أنتظر حينذاك منذ دقيقتين أو ثلاث دقائق عندما فُتِحَ باب على الشمال ودخلتْ فتاة في الخامسة عشرة من سنيها، تلبس سروال جينز حزامه دون الخاصرة وقميصاً قصيراً من نوع هِيلُو كِيتِي؛ خصلات شعرها السود تطفو دون قيود على كتفيها. لما أبصرتني، أطلقتْ صرخة، حاولت بارتباك إخفاء وجهها بيديها ودارت على عقبها مهرولة. في اللحظة ذاتها، ظهر رديجير عند الدرج الأعلى، وهبط السُّلَّم في لقائي. لقد شاهد الحادثة، وأومأ باستسلام ثم أهوى بيده نحوي.

«إنها عائشة، زوجتي الجديدة. سوف تشعر بالحرج كثيراً، لأنه لم يكن ينبغي لك رؤيتها دون حجاب.

- أنا آسف حقاً.

- كلا، ليس عليك الاعتذار، تلك غلطتها؛ كان يجب عليها السؤال إن كان هنالك ضيف قبل المرور عبر بهو المدخل. لكنها لم تتعود بعد على البيت، سوف تتكيف.

- أجل، إنها تبدو فتيَّة جداً.

- لقد أكملت للتو خمسة عشر عاماً.»

مشيت في إثر رديجير إلى الطبقة الأولى حتى بلغنا غرفة جلوس كبيرة بمثابة مكتبة، كانت الجدران عالية جداً، والعلو أسفل السقف يقارب خمسة أمتار. كان واحد من الجدران مغطى

بالكتب عن آخره، لحظتُ من النظرة الأولى أن هناك الكثير من الطبعات القديمة، ترجع على الأخص إلى القرن التاسع عشر. سُلَّمان معدنيان صلبان، ركبا على زالقتين، كانا يسمحان بالوصول إلى الرفوف الأكثر علواً. تجاهنا، أصص أغراس خضراء معلقة إلى تعريشة من الخشب الدكن ملصقة على امتداد علو الحائط كله. كان هناك لبلاب وسرخس الشوك وكرْمية أوراقها نازلة من السقف حتى البلاط، ملتوية حول الإطارات، بعضها رسمت عليه آيات قرآنية بخط عربي، وأخرى عليها صور من الحجم الكبير، مطبوعة على ورق غير مصقول، تمثل مجموعات متراكمة من المجرّات، والنجوم العظيمة المستعرة، والكواكب السديمية اللولبية. في الزاوية، مكتب كبير من طراز عهد الحكم الإداري، وُضِع على خط مائل، بمواجهة الغرفة. قادني رديجير حتى الركن المقابل، حيث مقاعد ذات قماش مهرود تزينه خطوط حمراء وخضراء، تحيطُ منضدةً عريضة لها غطاء فضي.

«لدي شاي حقّاً، إذا كنت تستحبه» قال وهو يدعوني للجلوس. «كما لدي كحول، ويسكي، بُورْتُو، أقصد ما تريد. ولدي مُورْسُو ممتاز.

- فليكن مورسو» أجبته، وقد أثار ذلك فضولي بعض الشيء مهما كان، إذ بدا لي أن الإسلام يحرم شرب الخمر، أعني حسب ما كنت أعرفه عنه، وفي الحقيقة إنه دِين لم أكن أعرفه جيداً.

وغاب، على الأرجح ليطلب إحضار الشراب لنا. كان مقعدي يقابل نافذة عالية قديمة، تفصل بين مربعاتها أقواس رصاص صغيرة، تطل على الميدان. كان منظراً مثيراً، أظن أنها

كانت المرة الأولى التي تتاح لي فيها رؤية بذلك التمام لمجموع المدرجات. ورغم ذلك، بعد انصرام دقائق معدودة، دنوتُ من المكتبة؛ كانت، هي الأخرى، مهيبة.

كان الرّفّان السفليان مملوءين بالمنسوخات من القطع ٢٩,٧×٢١. كانت عبارة عن أطروحات، دافع عنها أصحابها في جامعات أوروبية مختلفة؛ نظرتُ إلى عناوين بعضها قبل أن أعثر على أطروحة في الفلسفة، قُدّمت في الجامعة الكاثوليكية لوفان - لاناف، من توقيع روبير رديجير، عنوانها غينون قارئاً نيتشه Guénon lecteur de Nietzsche. أخرجتها من الرّف في الوقت الذي عاد فيه رديجير إلى الغرفة؛ فزعتُ، وكأني كنت متلبسا بالجرم المشهود، أومأت بوضعه في مكانه الأصلي. دنا مني، باسماً: «لا عليك، ليس هناك أدنى سر. ثم، إن الفضول الذي يثيره محتوى مكتبة، بالنسبة لشخص مثلك، أمر أقرب إلى الواجب المهني. . .».

دنا مني أكثر، رأى عنوان المنسوخ. «آه، لقد عثرتَ على أطروحتي. . .». هزَّ رأسه. «لقد حصلتُ على الدكتوراه؛ لكنها لم تكن أطروحة جيدة. أدنى بكثير من أطروحتك في كل الأحوال. دعنا نقول إني كنت أستعين شيئاً ما بالنصوص، مثلما يقال. وإن حقق امرؤ، فإن غِينُون لم يتأثر بنيتشه بكل تلك الحدة؛ إلا أن رفضه للعالم الحديث شديد بالقدر نفسه، وإن كان رفضاً يأتي من منابع مختلفة جذرياً. أقصد، بالتأكيد لن أعيد كتابتها اليوم بالطريقة نفسها. لديَّ أيضاً أطروحتك. . .» تابع كلامه وهو يُخرج منسوخاً جديداً من الرّف. «إنك تعرف بأننا نحتفظ بخمس نسخ عن كل أطروحة في أرشيف الجامعة. طيّب، بالنظر إلى عدد

الباحثين الذين يتقدمون كل عام للاطلاع عليها، قلت مع نفسي إنه في استطاعتي أخذ نسخة منها».

بالكاد كنت أستطيع الاستماع إليه، كنت على وشك الانهيار. لقد مرت نحو عشرين عاماً لم أشهد فيها جوريس - *كارل ويسمانس أو الخروج من النفق*؛ كان سمك المجلَّد لا يصدق، بل بدا محرجاً تقريباً - وقد تذكرت في لمح البصر أن هناك سبعمائة وثماني وثمانين صفحة. مهما يكن، لقد نذرتُ له سبع سنوات من حياتي.

وأطروحتي طوع يده، عاد نحو الأريكتين. «لقد كان عملا مثيرا بحق...» قال زيادة في التأكيد. «إنها تذكرني كثيراً بنيتشه الشّاب، نيتشه ميلاد *التراجيديا*.

- إنك تبالغ...

- لا أظن، كلا. لقد كان كتاب ميلاد التراجيديا قبل كل شيء أشبه بالأطروحة؛ وفي الحالين معاً هناك ذلك الإسراف العجيب، وغزارة الأفكار تلك الملقاة في الصفحات دون أدنى إعداد، التي تجعل النص بكل صدق عصيّاً على القراءة تقريباً - وبالمناسبة، من المدهش أنك حافظت على هذا الإيقاع على امتداد ثمانمئة صفحة تقريباً. وبداية من **تأملات في غير أوانها** هدأ نيتشه من روعه، وأدرَك أنه لم يعد في الإمكان إثقال القارئ بكَمٍّ مبالغ فيه من الأفكار، وينبغي له أن يهادنه، ويفسح له حتى يسترجع أنفاسه. أنت أيضاً، في دوار *الألفاظ المولَّدة*، سرتَ على النهج نفسه، وذلك يجعل منه كتاباً في المتناول. الفرق، هو أن نيتشه واصل الكتابة، بعد ذلك.

- أنا لستُ نيتشه...

- كلا، لستَ نبتشه. لكنك شيء، شيء مهم. وتجاوز لي فظاظتي، أنت شيء أريده. لنكن صرحاء، بما أنك فطنتَ للأمر أصلاً: إني أرجو إقناعك بالعودة إلى منصبك للتدريس في جامعة باريس - السوربون، التي أدير شؤونها.»

فُتِح الباب في تلك اللحظة، مما جنّبني الردَّ وُجُوباً. أطلّت امرأة في الأربعين، دحداحةٌ وذات طلعة ودودة، تحمل صُحْفة صُفَّت عليها فطائر لحم مدخّن ساخنة وسطل ثلج فيه قنينة المورسو الموعودة.

«هذه مليكة، زوجتي الأولى» قال بعد أن خرجتْ، «يبدو أن من حظك اليوم لقاء زوجاتي. تزوجتها وأنا بعدُ في بلجيكا. أجل، أنا من أصل بليجيكي... وما زلت بلجيكياً، لم يسبق لي أبداً أن اتخذت الجنسية الفرنسية، على الرغم من إقامتي في فرنسا منذ عشرين سنة حتى الآن.»

كانت الفطائر الصغيرة الساخنة لذيذة، متبَلة دون إفراط، تعرّفتُ مذاق الكزبرة. وكان النبيذ رائعاً «أرى أن الناس لا تذكر المورسو بما يكفيه حقه! قلتُ متحمّساً. المورسو خلاصة، إنه لوحده مثل الكثير من الخمور، ألا تشاطرني الرأي؟». كانت لدي رغبة في الحديث عن أي شيء، إلا عن مستقبلي الجامعي، لكنني لم أكن واهما، إذ ما لبث أن عاد إلى موضوعه.

وعاد إليه، بعد برهة صمت مناسب. «حسنٌ أنك قبلت الإشراف على طبعة لابلياد تلك. أعني أن ذلك بديهي، مشروع وحسن. حينما حدثني لاكو في الأمر، ماذا وسعني الرد عليه؟ أن ذلك كان اختياراً سويّاً، اختياراً مشروعاً؛ وأنه كان أيضاً أفضل اختيار. سوف أكلمك بصراحة شديدة: ما خلا جِينْياكْ،

الحق أني لم أفلح حتى هذه اللحظة في أن أضمن مشاركة أساتذة مدرسين جديرين بالاحترام حقاً؛ حسن، الأمر ليس مأساوياً، فالجامعة لم تكد تفتح أبوابها، لكن واقع الحال أن في حديثنا هذا أنا من يوجد في وضع الطَّالب، وليس لدي ما يستحق لعرضه عليك. أقصد، بلى، على الصعيد المالي، لدي الكثير لعرضه عليك، أنت تعرف ذلك جيداً، وبعد كل شيء، هذا أمر مهم كذلك. لكن على الصعيد الفكري، هذا المنصب بجامعة السوربون، هو بالأحرى أدنى مرتبة من الإشراف على طبعة من لابلياد؛ أنا مدرك لذلك. ومع هذا، أستطيع على الأقل أن ألتزم، وألتزم بصفتي الشخصية، بأن لا يضطرب عملك الحقيقي. لن يكون عليك سوى تقديم دروس سهلة، دروس في المدرج لأقسام السنة الأولى والثانية. وسوف يتم إعفاؤك من الإشراف على طلبة الدكتوراه - أعرف أن ذلك عمل شاق، جرّبته شخصياً بما فيه الكفاية. كما أستطيع تماماً تسوية الأمر بنفسي على صعيد الوضعية القانونية.»

سكتَ، شعرتُ بوضوح أنه استنفد مخزوناً أولاً من الحُجج. شرب جرعة أولى من المورسو، سكبت لنفسي كأساً ثانية. لم يحدث أبداً، وهذا ظني، أن خامرني الإحساس بأني محبوب إلى هذا الحد. إن آلة المجد تقطع النفَس، ربما كانت أطروحتي بذلك القدر من العبقرية الذي يزعمه، وفي الحقيقة، لا أكاد أتذكرها، لأن التقلبات الفكرية التي عشتها إبان شبابي الباكر بدت لي بعيدة جداً، لكن الحقيقة أنني في كل الأحوال أحظى بما يشبه الهالة، بينما لم يعد مطمحي بتاتاً سوى المطالعة بعض الشيء، عند النوم نحو الساعة الرابعة بعد الزوال بمعية علبة حجم كبير من السجائر

وزجاجة كحول ذات نسبة عالية، لكن كان يجب علي أيضاً الإقرار أني مقبل على الموت حسب هذا الإيقاع، الموت بسرعة، شقياً ووحيداً، وهل كانت لدي رغبة في الموت بسرعة، شقياً ووحيداً؟ في نهاية المطاف، باعتدال.

أتيت على كأسي، وسكبت لي ثالثة. عبر الشرفة الزجاجية، كنت أرى الشمس الغاربة على الحلبات؛ وصار الصمت محرجاً بعض الشيء. حسنٌ، كان يريد أن يكشف عن أوراقه، وأنا أيضاً بعد كل شيء.

«هناك شرط، مع ذلك...» قلتُ بحذر. «شرط غير تافه...».

هزَّ رأسه بتؤدة.

«هل تظن... هل تظن أني شخص قد يستطيع اعتناق الإسلام؟».

مال برأسه مطرقاً، وكأنه غاص في تأملات شخصية شديدة؛ ثم رفع بصره نحوي، وقال: «نعم».

في اللحظة الموالية تبسم في وجهي مرة ثانية ابتسامته المشرقة العريضة، الساذجة. كانت تلك المرة الثانية التي أحظى بها فيها، وكانت الصدمة أقل حدة؛ لكن مع ذلك، ظلت ابتسامته فعَّالة على نحو رهيب. وفي أية حال، حينذاك، هو من كان يجب عليه الكلام. بلعت تباعاً فطيرتين، وقد صارتا فاترتين عندها. غابت الشمس خلف المدرّجات، واكتسح الليل الحلبات؛ كان من المدهش استحضار أن مصارعات بين مجالِدين ووحوش قد دارت حقاً هنا، قبل ألفي عام تقريباً.

«أنت لست كاثوليكياً، مما كان قد يمثل عائقاً...» استأنف كلامه بِلُطف.

كلا، بالفعل؛ لا يمكن قول ذلك.

«كما لا أظن أنك ملحد بالمعنى الحقيقي. الملحدون الحقيقيون، نادرون، أصلاً.

«أتظن ذلك؟ كنت أشعر، خلاف ذلك، أن الإلحاد كان منتشراً في العالم الغربي على نحو شامل.

- في نظري، إنه سطحي. الملحدون الحقيقيون الوحيدون الذين صادفتهم كانوا عبارة عن متمردين؛ لم يكفهم القول ببرودة دم بعدم وجود الإله، بل رفضوا هذا الوجود على غرار بَاكُونِينْ: «حتى ولو كان الإله موجوداً، فإنه يجب التخلص منه...»، الحاصل أنهم كانوا ملاحدة على طريقة كيرِيلُوف، كانوا يرفضون الإله لأنهم كانوا يريدون وضع الإنسان مكانه، كانوا أصحاب نزعة إنسية، وكانت نظرتهم للحرية الإنسانية وللكرامة الإنسانية نظرة سامية. أفترض أنك لا تجد نفسك أيضاً في هذا المشهد؟»

كلا، ولا هناك أيضاً بالفعل؛ كلمة إنسية وحدها كانت تدفعني قليلاً للغثيان، لكن ربما كان ذلك بفعل الفطائر الساخنة أيضاً، إذ أفرطت فيها؛ أخذت من جديد كأس مورسو لهضمها.

«ما هنالك، استأنف كلامه، هو أن أغلب الناس يعيشون حياتهم دون الاهتمام كثيراً بهذه الأسئلة، التي تبدو لهم فلسفية على نحو مبالغ فيه؛ ولا يفكرون فيها إلا حينما يواجهون مأساة ما - مرض عضال، موت قريب. الحاصل، أن هذا صحيح في الغرب؛ إذ في غيره من الأماكن في العالم، فباسم هذه الأسئلة يموت بني البشر ويَقتُلون، يخوضون حروباً دموية، وذلك منذ

نشأة البشرية: من أجل أسئلة ميتافيزيقية يتحارب بني البشر، والمؤكد ليس من أجل معدلات نمو، ولا من أجل اقتسام مواطن القنص. لكن، حتى في الغرب، في واقع الأمر، لا يمتلك الإلحاد أية قاعدة صلبة. حينما أتحدث عن الإله مع الناس، أبدأ عامة بأن أعيرهم كتاباً عن علم الفلك...

- صحيح أن صورك جميلة جداً.

- أجل، جمال الكون مثير للعين؛ وعظمته، على الأخص، مذهلة. مئات المليارات من المجرّات، تتألف كل واحدة فيها من مئات المليارات من النجوم، والتي يقع بعضها على بعد مليارات السنوات الضوئية - مئات مليارات من مليارات الكيلومترات. وعلى سُلّم مليار السنوات الضوئية، بدأ نظام في التكوُّن: مجموعات متراكمة من المجرّات تتوزع لتشكيلِ مخططٍ متاهي. اعرض هذه الحقائق العلمية على مئة شخص تم انتقاؤهم اعتباطياً في الشارع: كم منهم من قد يجد الجرأة للتشبث بأن كل ذلك قد تم خلقه صدفة؟ لا سيما أن الكون فتيّ - خمسة عشر مليار سنة على أكبر تقدير. هذه هي الحجة المشهورة، حجة القرد الطّابع على الآلة الكاتبة: كم يلزم من الوقت لقرد شامبانزي النوع، يضرب عشوائياً على لوح آلة كاتبة، لإعادة كتابة أعمال شكسبير؟ كم يلزم من الوقت لصدفة عمياء من أجل إعادة بناء الكون؟ المؤكد أكثر من خمسة عشر مليار سنة!... وهذه ليست فحسب وجهة نظر رجل الشارع، إنها كذلك وجهة نظر كبار العلماء؛ ربما لم يوجد هناك عقل أكثر ذكاء في تاريخ البشرية من عقل إسحاق نيوتن - تأمل ذلك المجهود الفكري الخارق، غير المسبوق، الذي تمثل في أن يجمع في قانون واحد سقوط الأجسام الأرضية

وحركة الكواكب! أي نعم لقد كان نيوتن مؤمناً بالإله، كان مؤمناً به بشدة، إلى حد أنه خصص آخر سنوات حياته لدراسات حول تفسير الكتاب المقدس - النص المقدس الوحيد الذي كان في متناوله حقيقة. كما لم يكن إنشتاين ملحداً، ولو أنه من الصعب تحديد طبيعة معتقده الحقة؛ لكن حينما يرد على بُوهر بأن «الإله لا يلعب بالنرد»، فإنه لا يمزح قطعاً، إذ يبدو له من غير المعقول أن تكون قوانين الكون محكومة بالصدفة. وحجة «الإله صانع الساعات» التي كان فولتير يرى أنها غير قابلة للدحض، التي حافظت على قوتها حتى في القرن الثامن عشر، بل إن دقتها ازدادت كلما نسج العلم وشائج وثيقة أكثر فأكثر بين الفيزياء الفلكية وميكانيكا الأجسام الجزئية. أليس هناك في العمق شيء من السخافة في النظر إلى هذا المخلوق الضعيف، وهو يعيش في كوكب مجهول على ذراع مفتوح من مجرة عادية، والذي ينتصب على قدميه الصغيرتين معلناً: «الإله غير موجود»؟ الحاصل، اعذرني، فأنا كثير الكلام، مفرط فيه...

- كلا، لا تعتذر، إن هذا يهمني حقيقة...» قلتُ بصدق، صحيح أن سوْرة الشَّراب أخذت تدبّ فيّ قليلاً، علمتُ بنظرة من مؤخر عيني أن قنينة المورسو كانت فارغة.

«صحيح، تابعت قائلاً، أن إلحادي لا يستند إلى قواعد صلبة جداً؛ وسوف تكون تلك وقاحة مني لو أعلنت ذلك.

- وقاحة، أجل، تلك هي الكلمة المناسبة؛ هناك في عمق النزعة الإنسانية الملحدة تكبر وغطرسة لا تصدق. بل حتى الفكرة المسيحية القائلة بالتجسد، هي في الأصل دليل على ادعاء مضحك بعض الشيء. الإله وقد جعل نفسه إنساناً... لماذا لم

يتجسد الإله بالأحرى في أحد سكان النجم سيريوس أو مجرة أندروميدا؟

- هل تؤمن بوجود حياة خارج كوكب الأرض؟» قاطعته بغتة.

- لا أدري، لا أفكر في الأمر كثيراً، لكنها مسألة حساب فقط: بالنظر إلى كثرة النجوم التي تعمر الكون، والكواكب العديدة التي تدور حول كل واحدة منها، سوف يكون من المدهش جداً اعتبار أن الحياة ظهرت على الأرض وحدها. لكن لا يهم، ما أود قوله، هو أن الكون يحمل بكل بداهة أثر مقصد معقول، والذي هو بكل بداهة تحقيق مشروع من وضع عقل عظيم. وهذه الفكرة البسيطة سوف تفرض نفسها، عاجلاً أو آجلاً، هذا أمر أدركته وأنا في فتاء سنِّي. كل النقاش الفكري الذي شهده القرن العشرون تلخَّص في تعارض بين الشيوعية - ولنقل الصيغة المتشددة للنزعة الإنسانية - والديمقراطية اللبرالية - صيغتها الرخوة؛ ومهما يكن فذلك مختزِل على نحو رهيب. إن عودة الديني، الذي شُرع الكلام عنه، كنت أعرف أنه أمر محتوم منذ أن بلغت الخامسة عشرة، على ما أظن. كانت أسرتي كاثوليكية بالأحرى - الحاصل أن ذلك أخذ يبتعد قليلاً، إن جدَّيَ على الأخص هما اللذان كانا كذلك - وبطبيعة الحال توجهت أول الأمر نحو الكاثوليكية. ومنذ سنتي الأولى في الجامعة، اقتربت من الحركة المتعصبة للهوية الواحدة».

لعل إيماءة دهش بدتْ على محياي، لأنه سكت ونظر إليَّ بابتسامة غير كاملة. في اللحظة ذاتها، طُرِق الباب. أجاب بالعربية، وظهرت مليكة من جديد، تحمل صحفة أخرى وقهَّاوة،

فنجانان وصحن بقلاوة بالفستق والبْرِيوَات. كانت هناك أيضاً قنينة بُوخَة وقدحان صغيران.

صبَّ لنا رديجير القهوة من جديد ثم تابع كلامه. كان طعمها مرّاً، لاذعاً وجعلني أحسن حالاً بكثير، إذ استعدت من الفور صفاء ذهني برمته.

«لم أتملص أبداً من التزاماتي في فترة الشباب...» تابع كلامه. «وأصدقائي الجدد المسلمون لم يدر بخلدهم أبداً معاتبتي عليها؛ إذ بدا لهم من الطبيعي تماماً أن ألتفت، خلال بحثي عن وسيلة للخروج من الإنسية الملحدة، للوهلة الأولى نحو موروثي الأصلي. بالإضافة إلى أننا لم نكن عنصريين أو فاشيين - الحاصل بلى، حتى أكون أميناً تماماً، بعض المتعصبين للهوية الواحدة لم يكونوا بمنأى عن ذلك كثيراً؛ لكني لم أكن كذلك أبداً، في جميع الأحوال. لقد بدت النزعات الفاشية دوماً كأنها محاولة شبحية، كابوسية وزائفة لإحياء مقولات ميّتة؛ بدون المسيحية، فإن الأمم الأوروبية لم تعد سوى أجساد بلا أرواح - جثث متحركة. لكن، هيهات: هل تستطيع المسيحية أن تحيا من جديد؟ لقد ظننت ذلك، ظننته بضعة أعوام - مع شكوك متزايدة، وقد صرت أكثر فأكثر متأثراً بفكر تُويْنْبِي، بفكرته القائلة إن الحضارات لا تموت اغتيالاً، بل إنها تنتحر. وبعدها انقلب كل شيء في يوم واحد - وبالضبط، يوم ٣٠ آذار/مارس ٢٠١٣؛ أذكر أنها كانت نهاية أسبوع عيد الفصح. كنت أقيم حينذاك في بروكسيل، وأتردد بين الحين والآخر على حانة ميتروبول لشرب كأس. لطالما أحببت أسلوب الفن الجديد: هناك أشياء جميلة

في براغ أو فيينا، هناك أيضاً بنايات مثيرة للاهتمام في باريس أو في لندن، لكن بالنسبة لي، سواء أصبتُ أو أخطأت، فإن قمة الزخرفة في الفن الجديد تمثلت في فندق ميتروبول ببروكسيل، وعلى الأخص حانته. صبيحة يوم ٣٠ آذار/مارس، مررت قبالته بالصدفة ورأيت ملصقاً صغيراً يشير إلى أن حانة ميتروبول سوف تغلق أبوابها المساء ذاته بصفة نهائية. كنت مبهوراً؛ كلَّمت الخدم. أكدوا لي الأمر؛ لم يكن في علمهم الأسباب الحقيقية للإغلاق. حينما يخطر ببالي أنه حتى تلك اللحظة كان يمكن طلب سندويشات وجعة، ومشروب الشوكولاتة الفِيينْباوِيّة وحلويات بالقشدة في تلك التحفة الرائعة المطلقة من الفن الزخرفي، وأنه في وسع المرء عيش حياته اليومية محاطا بالجمال، وأن كل ذلك كان سيندثر، دفعة واحدة، في قلب عاصمة أوروبا!... أجل، في تلك اللحظة فهمت: أن أوروبا انتحرت أصلاً. وبصفتك قارئاً لويسمانس، لعلك انزعجت مثلي بكل تأكيد من تشاؤمه المتأصل، ولعناته المتكررة المنصبة على دناءات زمانه. مع أنه عاش في عصر كانت فيه الأمم الأوروبية في أوجها، تتربع على عرش إمبراطوريات استعمارية شاسعة، تحكم العالم!... في عصر بلغ مبلغه من الإشعاع في الآن نفسه من منظور تكنولوجي - السكك الحديدية، الإضاءة الكهربية، التليفون، الفونوغراف، ومنشآت إيفيل المعدنية - ومن منظور فني - هنا، نجد حقا أسماء من شدة كثرتها لا يمكن ذكرها، سواء في الأدب أو الرسم أو الموسيقى...».

لقد كان على حق، بكل بداهة؛ وحتى من المنظور الضيِّق جداً لـ«فن العيش»، فإن الانحطاط كان مهولاً. وقد قبلت بقلاوة

من يد رديجير، تذكرت كتاباً قرأته منذ سنوات معدودة، مخصص لتاريخ دُور الدعارة. في مدونة صور المؤلِّف، كانت هناك نسخة من منشور دار باريسية للدعارة من الزمن الجميل la Belle époque. لقد شعرت بصدمة حقيقية لمّا لاحظت أن بعض الأنواع الجنسية المقترحة من طرف مادموزيل هورتنس (الآنسة هورتنس) لم تكن تعني لي شيئاً؛ ولم أفهم إطلاقاً مغزى «الرحلة في البلاد الصفراء»، ولا «الصابونة الإمبراطورية الروسية الصغيرة». إن ذكرى بعض الممارسات الجنسية قد اختفت هكذا، في ظرف قرن من الزمان، من ذاكرة الناس - مثلما تندثر بعض فنون المعارف الحِرَفيّة مثل معارف صناع القباقيب وصناع الأبواق. كيف يمكن والحال هذه، أن لا نأخذ بفكرة انحطاط أوروبا؟

«أوروبا هذه التي كانت أوج الحضارة الإنسانية انتحرت حقاً وحقيقة، في غضون بضعة عقود»، استأنف رديجير قائلاً بحزن؛ لم يُنِر المكان، إذ كانت الغرفة مضاءة فقط بالمصباح الموضوع على المكتب. «كانت هناك في أوروبا حركات فوضوية وعدمية، المطالبة بالعنف، وإنكار كل قانون أخلاقي. ثم بعد أعوام معدودة، انتهى كل شيء بذلك الجنون الذي لا مبرر له ألا وهو الحرب العالمية الأولى. لم يخطئ فرويد في ذلك، ومعه توماس مان: إذا كانت فرنسا وألمانيا، الأمّتان الأكثر تقدماً وتحضراً في العالم، قد انصاعتا خلف هذه المذبحة الحمقاء، فذلك يعني أن أوروبا كانت ميّتة. وعليه فقد أمضيت تلك الليلة الأخيرة في الميتروبول، حتى موعد إغلاقه. رجعتُ إلى بيتي مشياً، عابراً نصف بروكسيل، على طوال حيّ المؤسسات الأوروبية - تلك القلعة الكئيبة التي تحفها الأكواخ. في اليوم الموالي، ذهبت

لرؤية إمام في زافنتيم. وفي اليوم الذي أعقبه - اثنين عيد الفصح - وبحضور عشرة أنفار شهود، نطقتُ بعبارة الشهادة المكرّسة لاعتناق الإسلام».

لم أكن على يقين من مشاطرته الرأي حول الدور الحاسم الذي لعبته الحرب العالمية الأولى؛ من المؤكد أن تلك كانت مذبحة لا تغتفر، لكن حرب ١٨٧٠ كانت أصلاً عبثية بعض الشيء، في وصف ويسمانس لها على كل حال، وقد سبق أن استهجن بصدق كل شكل من أشكال حب الوطن؛ فالأوطان في مجملها لم تكن إلا عبثية قاتلة، وهذا ما أدركه على الأرجح منذ ١٨٧١ بني البشر الذين لديهم قليل من الوعي؛ ويبدو لي أن ذلك كان هو منبع العدمية والفوضوية وكل تلك الأوساخ. بالنسبة للحضارات القديمة جداً، لم أكن حقاً على علم. كان الليل قد خيَّم على ميدان حلبات لُوتِيس، وغادر آخر السياح المكان؛ أعمدة إضاءة قليلة جداً كانت تنشر على المدرجات ضوء خافتاً. المؤكد أن الرومان شعروا بأنهم حضارة أبدية، توّاً قبل سقوط إمبراطوريتهم؛ هل انتحروا هم أيضاً؟ لقد كانت روما حضارة شرسة، بلغت مبلغها من الكفاءة على الصعيد العسكري - حضارة قاسية كذلك، حيث الترفيه على الحشود كان عبارة عن عراك حتى الموت بين متصارعيْن، أو بين متصارِعين ووحوش ضارية. هل كانت لدى الرومان رغبة في الاندثار، ثغرة سرِّية؟ الأكيد أن رديجير سبق له أن قرأ جِيبُون، ومؤلفين آخرين من الطينة نفسها، والذين لا أعرف منهم سوى اسم واحد على أكبر تقدير، لم أشعر تماماً أني قادر على مواكبة الحديث.

«إني أغالي كثيرا في الكلام حقاً. . .» قال وهو يُفلت إيماءة حرج. سكب لي كأس بوخة، وناولني من جديد صحفة الحلويات؛ كانت رائعة، وكان لذيذاً الفرق بين حَمْز كحول التّين. «تأخر الوقت، ينبغي ربما أن أستودعك»، قلت بتردد؛ لم تكن لدي إلى ذلك الحد رغبة في الرحيل، في حقيقة الأمر.

«مهلاً!» نهضَ، توجَّه صوب مكتبه، خلفه بالضبط كانت هنالك رفوف معدودة بها قواميس ومراجع. عاد من هناك يحمل كتاباً صغيراً موقعاً باسمه، تم نشره في طبعة جيب مصوَّرَة، عنوانه عشرة أسئلة حول الإسلام.

«لقد جعلتك تتكبد عناء ثلاث ساعات من التبشير الديني، بينما سبق لي وألَّفت كتاباً عن المسألة، لعل ذلك أصبح فيَّ طبيعة ثانية. . . لكن ربما سمعت به من قبل؟

- أجل، لقد تم بيْعه على نحو جيد، أليس كذلك؟

- ثلاثة ملايين نسخة، قال معتذراً. يبدو أني صقلتُ مَوهبة غير متوقعة تماماً في تيسير المعارف. من البديهي أن ذلك مختزل على نحو رهيب. . . قال معتذراً من جديد، لكن على الأقل تستطيع قراءته بسرعة.»

كان ثمة ١٢٨ صفحة، وعدد غير قليل من الصور - أساساً منسوخات من الفن الإسلامي؛ وبالفعل، فإن ذلك لن يتطلب مني الوقت الكثير. وضعت المؤلَّف داخل حقيبتي للظهر.

سكب لنا كأسين من البوخة. في الخارج كان القمر قد بزغ، وأضاء مدرجات الحلبات عن آخرها، نوره حينها كان بوضوح أشد قوة من نور أعمدة الإضاءة؛ لاحظتُ أن المنسوخات

الفوتوغرافية من الآيات القرآنية والمجرّات المعلقة وسط الجدار النباتي كانت مضاءة بمصابيح فردية صغيرة.

«إنك تعيش في بيت جميل جداً. . .

- تطلَّب مني سنوات للحصول عليه، لم يكن الأمر سهلاً بحق، صدقني. . .» انقلب إلى الخلف في مقعده، وهذه المرة شعرت للوهلة الأولى منذ وصولي، باسترخاء حقيقي: ما سوف يقوله لي الآن كان مهماً بالنسبة له، لم يكن في ذلك أدنى شك. «من البديهي أن بولهان ليس هو من يهمني، من يمكنه الاهتمام ببولهان؟ لكن بالنسبة لي إنه لإحساس بالسعادة في كل لحظة أن أعيش في بيت كتبت فيه دومنيك أوري حكاية أو، على كل حال حيث عاش العاشق الذي من أجله كتبتْ ذلك الكتاب. إنه كتاب ساحر، ألا ترى ذلك؟».

كنت على الرأي نفسه. مبدئياً، حكاية أو تتوفر على كل ما يلزم حتى لا أستحسنها: التوهّمات المعروضة كانت تنفرني، وفي مجملها تُظهر عن قصد الذوق الهابط المصطنع - شقة ليل سان لوي، الشقة الخاصة في ضاحية سان جرمان، السور ستيفان Sir Stephen، وفي الحاصل كل ذلك كان مقرفاً تماماً. ورغم ذلك، كان هناك شغف ونفَس يتخلل الكتاب، يعصفان بكل شيء».

«إنه الاستسلام» قال رديجير بلطف. «الفكرة المُزلزِلة والبسيطة التي لم يسبق أبداً أن تم التعبير عنها بتلك القوة، التي مفادها أن قمة السعادة الإنسانية كامنة في الاستسلام المطلق. إنها فكرة قد أتردد في بسطها أمام أبناء ديني، الذين قد يعتبرونها ربما تجديفاً، لكن هناك بالنسبة لي علاقة بين استسلام المرأة المطلق

أمام الرجل، كما تصفها حكاية أو، واستسلام الرجل أمام الله، كما يراه الإسلام. قال متابعاً كلامه، كما ترى، الإسلام يَقبل العالم، ويقبله في شموليته، يقبل العالم مثلما هو، حتى نستعير كلام نيتشه. وترى البوذية العالم بمثابة dukkha، - نقص، عذاب. وتُظهر المسيحية بنفسها تحفظات جدّية - ألا يتم نعت الشيطان بأنه «أمير هذا العالم»؟ أما بالنسبة للإسلام، على العكس من ذلك، فالخلق الإلهي كامل، إنه رائعة مطلقة. ما القرآن في العمق، سوى قصيدة حمدٍ شعريةٍ صوفية؟ حمد الخالق، واستسلام لقوانينه. عموماً لا أنصح الناس الذين يريدون مقاربة الإسلام بالبدء بقراءة القرآن، ما لم يكن لهم بالطبع إرادة بذل مجهود بغية تعلم العربية، والانكباب على النص الأصل. أنصحهم بالأحرى بسماع تلاوة السّور، وحفظها والإحساس بزفيرها ونفَسها. الإسلام هو الديانة الوحيدة التي حرَّمت كل ترجمة أثناء العبادة؛ لأن القرآن يتكون كلياً من إيقاعات، وقوافٍ، وأسجاع، ومتجانسات صوتية. إنه يستند إلى هذه الفكرة، فكرة الشعر الأساس، اتحاد الصوت والمعنى، الذي يسمح بقول العالم.»

ومن جديد ندَّت عنه إيماءة اعتذار، أظن أنه كان يتظاهر قليلاً بأنه متحرج من تبشيره الخاص، وفي الآن نفسه لعله كان مدركاً بشدة أن هذا الخطاب، سبق له أن قدمه للعديد من المدرسين الذين كان يريد إقناعهم؛ أفترض أن الملاحظة حول رفض ترجمة القرآن، مثلا، قد أتت أكلها مع جِينْياك، لأن خبراء أدب العصر الوسيط أولئك لا ينظرون دائماً بعين الرضا إلى نقل موضوع اشتغالهم إلى الفرنسية المعاصرة؛ لكن بعد كل شيء، سواء

وُضِعت هذه الحجج على المحك أم لا، فإنها تحتفظ مع ذلك بكل قوتها. ما استطعت منع نفسي من تأمل نمط حياته: زوجة في الأربعين للمطبخ، وزوجة في الخامسة عشرة لأمور أخرى... ولا شك أنه كان يمتلك زوجة أو زوجتين في سنٍّ بين - بين، لكني لم أكن قادراً على سؤاله، نهضت هذه المرة عازماً على الانصراف، شكرته على هذه الظهيرة الممتعة، التي امتدت إلى عشيّة. وقال لي إنه أمضى، هو أيضاً، وقتاً طيّباً جداً، الحاصل شهدتْ عتبة الباب ما يشبه هجوماً لعبارات التأدب؛ لكننا كنا صادقين معاً.

حينما أويت إلى البيت، بعدما تقلبت في فراشي لأزيد من ساعة، أدركت أني لن أفلح حتماً في النوم. لم يبق لي الشيء الكثير من الشَراب، قنينة من الروم فقط، لن يتناسب ذلك مع البوخة، لكنني كنت في حاجة إليه. للمرة الأولى في حياتي، أخذت أفكر في الله، وأتصور بجدية فكرة خالق للكون من نوع ما، يراقب كل فعل من أفعالي، وكان رد فعلي الأول واضحاً جداً: كان بكل بساطة هو الخوف. شيئاً فشيئاً هدأت، بمساعدة من الكحول، وأنا أردد على نفسي أني كنتُ فرداً تافهاً، نسبياً، وأن الخالق بالتأكيد تنتظره أمور أحسن مني، إلخ، لكن مع ذلك ظلت الفكرة مستحوذة عليّ، مرعبة، بأنه سوف يدرك وجودي دفعة واحدة، وبأنه سوف يسلط عليَّ عقابه، وأني سأصاب مثلاً بسرطان الفك، شأن ويسمانس، الذي كان سرطاناً مألوفاً عند المدخنين، وقد أصيب به فرويد كذلك، أجل، كان سرطان الفك يبدو معقولاً. كيف سأتصرف، بعد استئصال الفك؟ كيف سوف أستطيع الخروج إلى الشارع، الذهاب إلى السوق الممتاز، اقتناء حوائجي، تحمل نظرات الشفقة والاشمئزاز؟ وإذا عجزت بتاتاً عن اقتناء حوائجي، من الذي سيقوم بذلك مكاني؟ سوف يمتد

طول الليل، وكنت أشعر بأني وحيد على نحو مأساوي. هل سوف أمتلك على الأقل، أدنى شجاعة للانتحار؟ حتى ذلك لم يكن مؤكداً.

استيقظت نحو الساعة السادسة صباحاً بألم شديد في قحف الرأس. بينما كانت القهوة ترشح فتّشتُ عن عشرة أسئلة حول الإسلام، لكن بعد انصرام ربع ساعة كان علي الإقرار بالأمر الواقع: لم تكن حقيبتي للظهر هناك، لا بد أني تركتها في بيت رديجير.

بعد ابتلاع قرصين من أسْبِجيك، استعدتُ ما يكفي من الطاقة للانكباب على قاموس خاص باللهجة العامّية في المسرح، نشر عام ١٩٠٧، وأفلحت في العثور على كلمتين نادرتين استعملهما ويسمانس، كان في الإمكان بسهولة اعتبارهما من الألفاظ المولَّدة. ذلك هو الجزء الممتع من عملي، ممتع نسبياً وسهل؛ أما القسم الأكبر فسيكون هو التمهيد، هنا سيتربص بي القراء، وقد أدركت الأمر مليّاً. عاجلاً أم آجلاً، سوف يلزمني الانكباب من جديد على أطروحتي. كانت الثمانمائة صفحة تلك تخيفني، وتكاد تسحقني؛ إن أنصفتني ذاكرتي، كان لديَّ ميل إلى إعادة قراءة مجموع أعمال ويسمانس على ضوء اعتناقه المقبل لمعتقد جديد. المؤلف بنفسه كان يحث على ذلك، ولا شك أني استسلمتُ لتلاعبه بي - تمهيده الخاص لكتاب **القهقرى**، الذي كتب من بَعد عشرين عاماً، كان ينذر بذلك. هل كان كتاب القهقرى يؤدي حتماً إلى عودة إلى حضن الكنيسة؟ هذه العودة تمت فعلاً في نهاية الأمر، لأنه لم يكن هناك شك في صدق ويسمانس، وكتابه الأخير، حشود لورد، كان بصدق كتابَ

شخصٍ مسيحي، فيه يفلح أخيراً عالم الجمال في الارتقاء بفضل الإيمان البدائي عند حشد الحجاج، هو الذي كان يبغض البشر والوحيد، بعدما تغلب على النفور الذي أوحت له به العبادة المتزمتة عند أتباع سان سولبيس. من جهة أخرى، على الصعيد العملي، فهذه العودة لم تتطلب منه تضحيات جسيمة: فوضعه بصفته سادناً في ليغوجي كان يسمح له بالعيش خارج الدّير، كانت له خادمة تخصه، تعد له أطباق طعامه من المطبخ الحضري التي لعبت دوراً حاسماً جداً في حياته؛ كانت لديه مكتبته وعلبه من التبغ الهولندي. كان يحضر جميع الصلوات، ودون أدنى شك كان يجد فيها متعة، محبته الجمالية والجسدية تقريباً لليتورجيا الكاثوليكية كانت تظهر في كل صفحة من صفحات كتبه الأخيرة؛ لكن الأسئلة الميتافيزيقيا التي أثارها رديجير في اليوم السابق، فإن ويسمانس لم يذكرها أبداً. الفضاءات اللانهائية التي أفزعت باسْكَال، التي غاصت بنيوتن وكانط في لجة الانبهار والاحترام، فإنه لم يشهدها قطعاً. المؤكد أن ويسمانس كان معتنقاً لمعتقد جديد، لكن ليس على ضوء بِيغِي أو كُلُودِيل. أطروحتي، هذا ما فهمته اللحظة، لن تفيدني كثيراً؛ والأمر كذلك بالنسبة لتصريحات ويسمانس نفسه.

نحو العاشرة صباحاً، قدّرت أنها الساعة المناسبة للطرق على باب الرقم ٥، زقاق ليزارين؛ استقبلني رئيس الخدم لليوم السابق مبتسماً، مرتدياً لباسه الأبيض ذا الياقة الماوية. أخبرني أن البروفيسور رديجير كان غائباً، وأني نسيت غرضاً ما. أحضر لي حقيبتي Adidas في أقل من ثلاثين ثانية، المؤكد أنه وضعها جانباً

منذ الساعات الأولى؛ كان لبقاً، فعالاً ومتكتماً، بمعنى ما، كان يعجبني أكثر من زوجات رديجير. لا بد أنه كان ينجز الإجراءات الإدارية في لمح البصر، بإشارة من إصبع.

وأنا نازل عبر زقاق كاترفاج، وجدتني دون سعي مني أمام المسجد الأكبر بباريس. لم تذهب خواطري نحو خالق محتمل للكون، وإنما أسفل من ذلك بما يكفي نحو سْتِيف: رغم كل شيء كان من الجلي أن مستوى التعليم قد انحط، حدثت نفسي. لم تكن لدي تماماً شهرة واحد مثل جينياك؛ لكن مهما يكن، إن عزمتُ على العودة إلى المضمار، أستطيع أن أكون موقناً بأني سأحظى باستقبال طيّب.

وخلافاً للمتوقع فإني بوعي تام واصلت الطريق عبر زقاق دوبنتون في اتجاه السوربون - باريس الثالثة. لم تكن لدي نية في الدخول، فحسب التسكع أمام البوابات؛ لكن ندّت عني إيماءة فرح حقيقية عند التعرف على الحارس السينغالي. هو أيضاً كان وجهه يتوهج سروراً: «سعيد بلقائكم، سيدي! جميل أنكم عدتم! . . .» لم تطاوعني نفسي على إحباطه ودخلت الساحة الرئيسة مثلما دعاني إلى ذلك. مهما يكن فقد أمضيت خمس عشرة سنة من حياتي في هذه الكلية، وقد سرّني التعرف على شخص واحد، على الأقل. تساءلتُ إن كان قد اعتنق الدين الجديد، هو الآخر، لتوظيفه مرة أخرى؛ لكن ربما كان مسلماً في الأصل، فبعض السينغاليين هم كذلك، هذا ما شعرت به حينذاك على الأقل.

تجولت مدة ربع ساعة تحت أقواس الدعامات المعدنية، وقد فاجأني حنيني قليلاً، مع إدراكي أن المحيط كان قبيحاً حقاً، تلك

البنايات الشوهاء تم تشييدها خلال أسوأ مراحل الحداثة، لكن الحنين ليس شعوراً جمالياً، كما أنه لا يرتبط بتذكر سعادة ما، إننا نَحِن إلى مكان معيَّن بكل بساطة لأننا أقمنا فيه، على نحو حسن أو سيّئ، لا يهم، لأن الماضي دائماً جميل، والمستقبل جميل أيضاً، والحاضر وحده هو ما يؤلم، هو ما نحمله معنا مثل دمَّل من المعاناة يرافقنا بين حدَّين لانهاية لهما من الرّغد الهنيء.

شيئاً فشيئاً، من كثرة المشيء بين الدعامات المعدنية، انمحى حنيني، بل إني توقفت تماماً عن التفكير. كنت أفكر قليلاً في مريم، على نحو وجيز لكن مؤلم جداً، وأنا أمر قبالة حانة الطبقة السفلية. كانت الطالبات الآن، بالطبع، محجبات، عموماً محجبات بالأبيض، ويتجولن مثنى وثلاث تحت الأقواس، ذلك يذكر قليلاً بإقامة جبرية للراهبات، الحاصل أن المرء يشعر بوجود مواظبة لا يمكن إنكارها. تساءلت عما قد يحصل من ذلك لو أنه وقع في الفضاء الأقدم بالسوربون - باريس الرابعة، وهل سوف يشعر المرء أنه عاد إلى زمن أبيلار وهِلُويز.

كان كتاب عشرة أسئلة حول الإسلام كتاباً بسيطاً بالفعل، نُظِّم بفعالية كبيرة. الفصل الأول، وهو إجابة عن سؤال «ما هي عقيدتنا؟»، لم يضف إلى ما أعلمه شيئاً تقريباً. وقد حوى باختصار ما قاله لي رديجير في اليوم السابق، خلال الظهيرة التي أمضيتها ببيته: عظمة الكون وانسجامه، كمال القصد، إلخ. ويليه بسطٌ وجيز لتعاقبِ الأنبياء، ختمه محمد.

ومثلما هو حال جل البشر دون شك، قفزت عن الفصول المخصصة للواجبات الدينية، لأركان الإسلام، والصوم، كي أصل مباشرة إلى الفصل السابع: «لماذا تعدد الزوجات؟». كانت الحجج في حقيقة الأمر فريدة: حتى تتحقق مقاصده العليا، حسب ما عرضه رديجير، فإن خالق الكون، في ما يخص الكون الجامد، يفعل ذلك عبر قوانين الهندسة (المؤكد أنها هندسة غير أوقليدية؛ هندسة غير تواصلية أيضاً؛ لكن الحاصل أنها هندسة). في ما يخص الكائنات الحية، خلافاً لذلك، فإن مقاصد الخالق تتجلى عبر الانتقاء الطبيعي: إذ به تبلغ المخلوقات الحية مبلغها من الجمال والحيوية والقوة. وعند جميع الأنواع الحيوانية،

والإنسان جزء منها، فإن القانون كان هو نفسه: بعض الأفراد فقط كان مدعواً لنقل بذرته، وإنسال الجيل المقبل، الذي بدوره يتعلق عدد لا نهاية له من الأجيال. وفي حال الثدييات، بالنظر إلى مدة مخاض الإناث، التي ينبغي ربطها بقدرة الإنجاب اللامحدودة تقريباً عند الذكور، فإن الضغط الانتقائي يمس قبل كل شيء الذكور. إن انعدام المساواة بين الذكور - إذا ما أتيح للبعض إمتاع إناث كثيرة، فإنه ينبغي حرمان البعض الآخر منه ضرورة - وبالتالي لا يتوجب إذاك اعتباره بمثابة أثر عكسي لتعدد الزوجات، وإنما بوصفه غايته الفعلية حقاً وحقيقة. هكذا كان يُحدَّد مصير النوع.

قادته هذه الاعتبارات العجيبة مباشرة إلى الفصل الثامن، وهو فصل توفيقي أكثر، خُصِّص لموضوع «علم البيئة والإسلام»، الذي يسمح له مرحلياً بدراسة مسألة الطعام الحلال، والذي يشبهه بنوع من الطعام العضوي المحسَّن. أما الفصل التاسع والعاشر، اللذان أفردهما للاقتصاد وللمؤسسات السياسية، فقد ظهرا وكأنهما وضعا عمداً حتى يؤديا إلى ترشيح محمد بن عباس.

في هذا المؤلف الموجه إلى جمهور عريض جداً، والذي بلغه، كان رديجير يُكثر من المحاباة تجاه جمهور ذي نزعة إنسية، ولم يكن يفلت الفرصة لعقد مقارنة بين الإسلام والحضارات، الرعوية والوحشية، التي سبقته. وهكذا كان يبيِّن أن الإسلام لم يبتدع تعدد الزوجات، بل قد ساهم بالأحرى في تنظيم العمل به؛ وبأن الإسلام لم يكن مصدراً للرجم، أو ختان الإناث؛ وأن الرسول محمّد اعتبر فك الرّقاب أمراً محموداً، وبأنه حينما أظهر أن البشر جميعهم سواسية أمام خالقهم، فهو بذلك قد قضى على

كل شكل من أشكال التفريق العنصري في البلدان التي كانت له السيادة عليها.

كنت أعرف كل هذه الحجج، لقد سمعتها ألف مرة؛ وهذا لم يمنع من أنها حجج صحيحة. لكن ما أثارني خلال لقائنا، وما أثارني أكثر في كتابه، هو ذلك الكلام السلس، الذي يقرّب رديجير حتمياً من الحقل السياسي. لم نتحدث بتاتاً في السياسة، خلال تلك الظهيرة في البيت الكائن بزقاق ليزارين؛ لكنني لم أندهش قطعاً، أسبوعاً بعد ذلك، عندما علمت أنه تم تعيينه، بفضل تعديل وزاري صغير، بمنصب سكرتير الدولة لدى الجامعات، الذي استُحدِث بالمناسبة.

قبل ذلك سنحت لي فرصة ملاحظة أنه لم يتحرّ بتاتاً الحيطة في المقالات التي نشرها في مجلات خاصة جداً مثل مجلة الدراسات الفلسطينية ومجلة الأمة. إن انعدام فضول الصحافيين كان بحق نعمة بالنسبة للمثقفين، لأن كل ذلك صار متوفراً بسهولة على الإنترنت اليوم، وبدا أن استخراج بعض من تلك المقالات كان سوف يخلق له بعض المتاعب؛ لكن بعدَ كل شيء ربما كنتُ مخطئاً، فالكثير من المثقفين خلال القرن العشرين قام بدعم ستالين، ومَاوْ أو بُول بُوت دون أن تتم معاتبتهم على ذلك أبداً؛ إذ ليس مطلوباً من المثقف في فرنسا أن يكون مسؤولاً، ذلك لم يكن من طبعه.

في مقال نشرته الأمة، حيث يطرح سؤال معرفة إذا ما كان الإسلام مدعوا ليَسُودَ العالم، يجيب رديجير في آخر الأمر نعَماً. ولا يكاد يعود إلى حال الحضارات الغربية، ما دام يبدو له أمر

نهايتها محسوماً (إذ بقدر ما وجب على الفردانية اللبرالية الانتصار بما أنها اكتفت بتذويب بنياتها الوسطى ألا وهي الأوطان والتجمعات الحِرفية، والطوائف، فبالقدر نفسه، حينما هاجمت تلك البِنية القصوى ألا وهي الأسرة، وبالتالي النمو الديمغرافي، فإنها وقَّعت على فشلها النهائي؛ وعليه جاء وقت الإسلام، منطقياً). لقد كان مُسهِباً في الحديث عن حال الهند والصين: لو أن الهند والصين حافظتا على حضاراتهما التقليدية، هذا ما كتبه، لكان في مقدورهما، في ابتعادهما عن التوحيدية، الإفلات من سطوة الإسلام؛ لكن منذ أن استسلمتا لعدوى القِيم الغربية، فإن نهايتهما صارت بدورها محسومة: كان يُفصّل السيرورة، ويقدم روزنامة استباقية. والمقال، الواضح والموثّق، يظهر تأثير غينُون، وتميزه الأساسي بين الحضارات التقليدية، باعتبارها في مجملها، والحضارة الحديثة.

في مقال آخر، كان يعلن صراحة تأييده للتقسيم غير العادل للثروات. إذا كان من الواجب القضاء على البؤس المحض في مجتمع مسلم أصيل (اللجوء إلى الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام الخمسة)، فإن على هذا المجتمع مع ذلك الحفاظ على فارق شاسع بين الشريحة العريضة من السكان، التي تعيش في فقر مقبول، وأقلية صغيرة جداً من الأفراد الأغنياء بشكل باذخ، بما فيه الكفاية لتبذير الأموال بإسراف وجنون، هذه الأقلية التي تضمن بقاء الترف والفنون. هذا الموقف الأرستقراطي يأتي مباشرة هذه المرة من نيتشه؛ لقد ظل رديجير، في العمق، وفياً لمفكري فترة شبابه على نحو مثير.

كما كان نيتشوياً عداؤه الساخر والجارح المنصب على

المسيحية، التي تستند فحسب في رأيه إلى شخصية يسوع المنحطة والهامشية. وكتب أيضاً أن مؤسس المسيحية أعجبته رفقة النساء، وكان ذلك محسوساً. «إذا كان الإسلام يزدري المسيحية» مقتبساً ومردداً قول مؤلّف المسيح الدّجّال، «فإن له ألف سبب لذلك؛ الشرط الأول للإسلام هو أن له رجالاً...». إن فكرة ألوهية المسيح، يضيف رديجير، كانت بمثابة الخطأ الأساسي الذي يقود حتمياً إلى النزعة الإنسية وإلى «حقوق الإنسان». هذا أيضا سبق لنيتشه قوله، وبكلمات أشد صلابة، مثلما أنه آمن دون شك بفكرة أن مهمة الإسلام تمثلت في تطهير العالم بتخليصه من مذهب الحلول والاتحاد، ذلك المذهب المدمِّر.

وأنا سائر على درب الشيخوخة، كنتُ بنفسي أدنو من نيتشه، مثلما أن ذلك حتمي دون شك عندما تكون لدينا مشاكل في السّباكة. بل أحسست أني مهتم بإلُوهِيم، مبدع الكواكب المتعال، أكثر من اهتمامي بابنه الذي لا طعم له. لقد أفرط يسوع في حبه للبشر، تلك هي المشكلة؛ أن يستسلم للصّلب من أجلهم يدل على الأقل عن خطأ في الذوق، مثلما قد تقول العاهرة العجوز. وبقية أعماله لا تدل كذلك على قدرة كبيرة على التمييز، مثلاً كما هو شأن العفو عن المرأة الزانية، بحجج من قبيل «من لم يخطئ»، إلخ. لم يكن الأمر رغم ذلك معقداً، كان يكفي النداء على طفل يبلغ السابعة - لكان رماها، بأول حجر، ذاك الصبي الملعون.

كان رديجير يكتب بأسلوب حسن جداً، كان واضحاً ومركّباً، مع شيء من الفكاهة أحياناً، مثلاً عندما يسخر من أحد زملائه، لا

شك أنه مثقف مسلم منافس، الذي وظف في مقال مقولة أئمة ٢,٠، الذين ابتغوا لأنفسهم مهمة هدي الشباب الفرنسي من أبناء المهاجرين إلى الإسلام. وكتب مصححاً، الآن الحري استعمال مقولة أئمة ٣,٠: أولاء الذين يهدون إلى الإسلام الشباب الفرنسي النشأة - والفكاهة عند رديجير لا تمتد أبدا أكثر من الحد؛ فالنظرة الجادة كانت تلي ذلك بسرعة. إلا أنه كان يخص زملاءه الإسلامويين اليساريين بانتقاداته الساخرة. كما كتب أن الإسلاموية اليسارية كانت محاولة يائسة من الماركسيين الذين انفرط عقدهم، وتعفنوا، وكانوا في حال موت سريري، للخروج من مزابل التاريخ عبر التشبث بقوى الإسلام الصاعدة. على الصعيد المفهومي، يكتب مواصلاً، فإنهم كانوا مدعاة للضحك شأن «أتباع نيتشه من اليسار» الذين ذاع صيتهم. قطعاً كان نيتشه مستحوذاً عليه؛ ومع ذلك وقد أرهقتني بسرعة مقالاته المستوحاة من نيتشه - لا شك أني أفرطت في قراءة نيتشه بدوري، كنت أعرفه وأفهمه بالتمام والكمال، لكن لم تعد له القدرة على أن يسحرني. وكنت على نحو عجيب منجذباً أكثر بعزفه على وتر غينون - صحيح أن قراءة أعمال غينُون الكاملة أمر منفر بما فيه الكفاية، وأن رديجير يمنحنا منه صيغة في المتناول، صيغة مخفَّفة. كنت أستحب على الأخص مقالاً له بعنوان «هندسة الصلة»، المنشور في مجلة الدراسات التقليدية. وفيه يتناول من جديد فشل الشيوعية - التي اعتُبرت، بعد كل شيء، محاولة أولى للصراع ضد الفردانية الليبرالية - للتأكيد على أن تروتسكي كان محقاً، في نهاية المطاف، في خلافه مع ستالين: ليس في وسع الشيوعية أن تنتصر ما لم تكن عالمية. وقد حذر من أن القاعدة

نفسها تسري على الإسلام: فإما يكون كونياً أو لا يكون. لكن تمثل الجانب الأساسي من المقال في تأمل عجيب، فيه شيء من الكِيتْش على طريقة سبينوزا، ومن الحواشي وكل ما يرافقه، حول نظرية رسم البيانات. وقد سعى المقال إلى إظهار أن الدين وحده ما يستطيع خلق علاقة تامة بين الأفراد. لو نظرنا إلى رسم بياني يخص صلةً معينة، أي أفراد (نقط) تجمعهم علاقات شخصية، نجد من المستحيل إنشاء رسم بياني مستوٍ يجمع كل الأفراد فيما بينهم. الحل الوحيد هو سلك مستوى أعلى، يضم نقطة فريدة اسمها الإله، به سوف يتم ربط مجموع الأفراد، المتصلين فيما بينهم، بهذه الوساطة.

كانت قراءة كل ذلك رائعة جداً؛ وفي الآن نفسه، على المستوى الهندسي، بدت لي البرهنة زائفة؛ لكن الحاصل أنها أبعدتني عن مشاكل أنابيب الصرف الصحي التي لدي. غير هذا، فإن حياتي الفكرية كانت متوقفة: كنت أحرز تقدماً في وضع ثبت للحواشي، لكن العجز ظل ملازماً لي عند كتابة التمهيد. ومن العجيب أني عثرت عند بحثٍ في الإنترنت عن ويسمانس على واحد من أشد مقالات رديجير إثارة، والذي نشر هذه المرة في المجلة الأوروبية. وفيه تم الاستشهاد بويسمانس عرَضاً فقط، بوصفه مؤلفاً يتجلى عنده بوضوح كبير مأزق النزعة الطبيعية والنزعة المادية؛ لكن المقال في مجمله كان دعوة مستترة لرفاقه القدماء التقليدانيين والمتعصبين للهوية الواحدة. ويكتب، مدافعاً بشدَّة، أن عداء لا مبرر له تجاه الإسلام يمنعهم من الإقرار بهذه البديهية: لقد كانوا، من حيث الجوهر، على اتفاق تام مع المسلمين. حول رفض الإلحاد والنزعة الإنسية، حول خضوع

المرأة الملزم لها، حول العودة إلى النظام الأبوي: ومعركتهم كانت بالضبط واحدة، من كل الزوايا. وهذه المعركة الضرورية لإرساء مرحلة حضارية عضوية جديدة لم يعد في الإمكان اليوم خوضها باسم المسيحية؛ بل كان الإسلام، الدين الشَّبهي، الأقرب عهداً، والأشد بساطة وصواباً (إذ لماذا مثلاً اعتنق غينون الإسلام؟ لقد كان غينون قبل كل شيء مفكراً علمياً، واختار الإسلام بوصفه عالِماً، من باب تدبير المفاهيم؛ ومن أجل تجنب بعض المعتقدات غير العقلانية والهامشية، مثل الحضور الفعلي في القربان الأقدس)، الإسلام إذاً هو الذي حمل اليوم اللواء. ومن فرط تودد التقدميين وتلطفهم وتملقهم المخزي، أصبحت الكنيسة الكاثوليكية عاجزة عن مناهضة انحطاط الطبائع. ورفض الزواج المثلي بوضوح وحزم، والحق في الإجهاض وعمل النساء. كان من الواجب الإقرار بالأمر الواقع: بعدما وصلت إلى درجة من التفكك المنفِّر، لم يعد في وسع أوروبا إنقاذ نفسها بنفسها - مثلما لم تقدر على ذلك روما القديمة في القرن الخامس للميلاد. التدفق الهائل للسكان المهاجرين الذين يحملون ثقافة تقليدية ما تزال موسومة بتراتبيات طبيعية، خضوع المرأة، والاحترام الواجب للأسلاف، كان يشكل فرصة تاريخية لإعادة تسليح أوروبا أخلاقياً وعائلياً، ويفتح الآفاق نحو عصر ذهبي جديد في وجه القارة العجوز. كان هؤلاء السكان مسيحيين أحياناً؛ لكن وجب الإقرار أنهم كانوا في الأغلب مسلمين.

وكان رديجير هو المبادر إلى الإقرار بأن المسيحية القروسطية شكلت حضارة كبيرة، سوف تظل منجزاتها الفنية متوهجة أبداً في

ذاكرة البشر؛ لكن تراجعت شيئاً فشيئاً، لا بد أنها تعايشت مع العقلانية، وتخلت عن إخضاع السلطة الدنيوية، وهكذا أفل نورها شيئاً فشيئاً، ولأي سبب تم ذلك؟ في العمق، كان ذلك لغزاً؛ هكذا كانت مشيئة الرب.

بعد ذلك بقليل حصلت على قاموس العامية الحديث لصاحبة رِيغُو، الصادر عن دار النشر أولندورف عام ١٨٨١، كنتُ أرسلت في طلبه منذ مدة طويلة، والذي ساعدني في توضيح بعض المتشابهات. ومثلما ذهب إلى ذلك ظني، فإن لفظ "claquedent" لم يكن من نحت ويسمانس، بل كان يدل على دار بِغاء؛ وتدل كلمة "clapier" بصفة عامة على منزل للبِغاء. وتكاد كل علاقات ويسمانس الجنسية قد تمت مع بغايا، وكانت مراسلاته مع أريج برانس شاملة بخصوص بيوت البِغاء الأوروبية. وبتصفح تلك المراسلات، أحسست فجاءة بأنه يتحتم عليَّ الذهاب إلى بروكسيل. لم يكن لدي بخصوص ذلك سبب واضح. بالتأكيد أن أعمال ويسمانس نشرت في بروكسيل، لكن في حقيقة الأمر كل الكتاب البارزين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر توجب عليهم في وقت ما، للإفلات من الرقابة، اللجوء إلى خدمات ناشر بلجيكي. ويسمانس مثل البقية، ولم تبد لي هذه الرحلة لازمة إبَّان كتابة أطروحتي؛ وذهبت إلى هناك في وقت لاحق بعد سنوات معدودة، وفي الأصل من أجل بودلير. وما أثارني على الأخص هو الوسخ والحزن المخيم على المدينة،

وكذلك الحقد المحسوس بين الجاليات، أكثر مما في باريس أو لندن: في بروكسيل نشعر أكثر مما في أية عاصمة أوروبية غيرها أننا على شفير الحرب الأهلية.

مؤخراً، كان الحزب المسلم في بلجيكا قد وصل تواً إلى السلطة. واعتبر الحدث بصفة عامة حدثاً مهماً، من منظور التوازن السياسي الأوروبي. بالطبع، سبق لأحزاب مسلمة وطنية المشاركة في تحالفات حكومية في إنجلترا وهولندا وألمانيا؛ لكن كانت بلجيكا ثاني بلد، بعد فرنسا، وجد فيه الحزب الإسلامي نفسه في موقف أغلبية. هذا الفشل الذريع لأحزاب اليمين الأوروبية كان له في الحالة البلجيكية تفسير بسيط: بينما لم يفلح الحزبان الوطنيان، الوَلُوني والفلاماني، واللذان يعتبران بفارق كبير أول تشكيل سياسي كلٌّ في جهته، في التفاهم أبداً ولا حتى الانخراط حقّاً في حوار، استطاع الحزبان الإسلاميان الفلاماني والولوني، بالاستناد إلى دين مشترك، الوصول بسهولة إلى اتفاق حول الحكم.

وعلى الفور، تم استقبال انتصار الحزب الإسلامي في بلجيكا برسالة ترحيب حارة من محمد بن عباس؛ هناك بعض القواسم المشتركة في سيرة حياة أمينه العام، ريمون ستُفْنونْس، مع سيرة حياة رديجير؛ لقد كان ينتمي في السابق إلى الحركة المتعصبة للهوية الواحدة - وكان إطارا مهمّاً فيها - دون أن يورط نفسه مع فصائلها الفاشية - الجديدة علناً - قبل أن يعتنق الإسلام.

كانت خدمات المطعم في طالبس Thalys تقدم الآن خياراً بين قائمة تقليدية وقائمة حلال. ذلك أول تغير ملحوظ - كما كان

الوحيد: كانت الأزقة بالقدر نفسه من الوسخ دائماً، وحافظ فندق متروبول على قسط كبير من عظمته، مع أن حانته كانت مغلقة. خرجتُ مجدداً نحو الساعة السابعة مساء، وكان الجو أشد برودة مما هو عليه في باريس، والأرصفة يغطيها ثلج ضارب إلى السواد. وفي مطعم بزقاق لامونطان أوزيرب بوتاجير، وأنا متردد بين حسوة واترزوي بالدجاج وأنقليس بالخضر، تيقنت فجأة من أني أفهم تماماً ويسمانس، أفضل مما فهم هو نفسه، ومن أن في وسعي الآن كتابة مقدمتي، وكان لزاماً علي العودة إلى الفندق لتدوين بعض الأفكار، خرجت من المطعم دون أن أطلب شيئاً. وكانت خدمة الغرف تقترح حسوة واترزوي بالدجاج، وقد حسم ذلك المسألة نهائياً. لعله كان سوف يبدو من الخطأ الإفراط في الاهتمام بـ«حفلات العهر» و«الليالي المجون» التي يذكرها ويسمانس بتساهل، كان هناك على الأخص غُرَّة طبيعوية، صورة مسكوكة تنتمي لذلك العصر، مرتبطة أيضاً بضرورة اختلاق الفضائح، وصدم البرجوازي الصغير، وفي النهاية بخطة حياة مهنية؛ كما لم يكن من وزن للتعارض الذي كان يقيمه بين الشهوات الجسدية والمظاهر الصارمة للحياة الرهبانية. لم تكن العفة مشكلة، ولم يحدث أبداً أن كانت كذلك، لا بالنسبة لويسمانس أو لأي شخص غيره، وقد تأكد لي ذلك خلال مقامي الوجيز في ليغوجي. لو أخضعنا الإنسان لشهوات جنسية (بلغتْ مبلغها من التعميم، الملابس ذات الصدور المقوّرة، والجُبَب القصيرة جداً، وتلك عُملة رائجة على الدوام، **tetas y culo**[1]

---

(١) بالإسبانية في الأصل: ثُدِيّ وأرداف.

مثلما يعبر عن ذلك الإسبان ببلاغة) فسوف يشعر برغبات جنسية؛ لو ألغينا تلك الشهوات، فسوف يكف عن الشعور بتلك الرغبات، وفي غضون أشهر معدودة، وأحياناً أسابيع معدودة، سيفقد حتى ذكرى الحياة الجنسية. وفي حقيقة الأمر لم يسبق أبداً لذلك أن كان سبباً في أدنى مشكلة للرهبان، كما أني بنفسي، منذ أن عمل النظام الإسلامي الجديد على تحويل اللباس النسوي إلى مزيد من الحشمة، شعرت شيئاً فشيئاً بِسُكون شهواتي، كنت أقضي أحياناً أياماً كاملة دون التفكير فيها. ربما كان وضع النساء مغايراً بعض الشيء، لأن الغلمة عند النساء منتشرة أكثر وبالتالي يصعب قهرها، لكن الحاصل أني لم أكن أملك من الوقت ما يكفي للدخول في تفاصيل خارجة عن الموضوع؛ دوَّنتُ أفكاراً بحَمِيَّة، ولما أنهيتُ حسوتي الواترزوي طلبتُ طبقاً من الجبن، لم يكن فحسب للجنس عند ويسمانس المكانة التي افترضها فيه، بل حتى الموت في آخر المطاف، كما لم يشغله الهلع الوجودي، إن ما أثاره بشده في لوحة صلب غرانوالد المشهورة، ليس تمثيل احتضار المسيح، وإنما عذابه الجسدي بحق وحقيق، وفي هذا أيضاً كان ويسمانس يشبه تماماً باقي البشر، إذ لا يبالون تقريباً بموتهم الشخصي، همهم الحقيقي، هاجسهم الحق، هو الإفلات قدر الإمكان من العذاب الجسدي. وحتى في مجال النقد الفني، كانت المواقف التي عبر عنها ويسمانس مجرد أغاليط. لقد انحاز بشدة إلى الانطباعيين في صدامهم مع النزعة الأكاديمية الرائجة في عصرهم، حيث كتب صفحات كلها إعجاب عن رسّامين مثل غوستاف مورو أو أودِيلون رُدون؛ لكنه لم يكن يرتبط هو بنفسه، في رواياته الشخصية، بالانطباعية أو الرمزية، وإنما بتقليد

تصويري أشد قِدَما بكثير، التقليد الموروث عن المعلّمين الفلامانيين. إن رؤى المنام في رواية المنبوذ، التي كان في وسعها أن تذكرنا فعلا ببعض غرائب الرسم الرمزي، كانت في آخر المطاف فاشلة، وفي كل الأحوال لا تترك ذكرى حيَّة مثل توصيفاته الحارّة، الحميمة لموائد الطعام عند آل كاري في رواية هنالك، أدركت حينها أني نسيت رواية هنالك في باريس، لذا كان لزاماً علي العودة، لجأت إلى الإنترنت، أول طاليس كان سينطلق على الساعة الخامسة، في السابعة صباحاً وصلتُ إلى بيتي وعثرت على الفقرات التي كان يصف فيها مطبخ «ماما كاري»، مثلما كان يناديها، الموضوع الحقيقي الوحيد عند ويسمانس كان هو السعادة البرجوازية الصغرى، سعادة برجوازية صغرى يشق على العازب الظفر بها، مع أنها لم تكن سعادة البرجوازية الكبرى، فالمطبخ المحتفى به في هنالك هو بالحري مطبخ نستطيع نعته بمطبخ بيت زوجية شريف، كما أنه ليس مطبخ الأرستقراطية، وكان يحتقر دوماً «الحمقاوات ذوات الأصول النبيلة» اللواتي انتقدهن بحدة في رواية السادن. إن ما كان يمثل السعادة في نظره بحق، هو وجبة طعام تعمها الفرحة بين فنانين وأصدقاء، قِدْر بمرق الفجل، مع نبيذ «موثوق به»، ثم كحول مصنوع من البرقوق، وشيء من التبغ، في ركن قرب الموقد بينما زفزفة الريح الشتوية تضرب أبراج سانْ سُولبِيس. لقد حرمت الحياة ويسمانس من تلك الملذّات البسيطة، ويلزم المرء أن يكون قاسياً وفاقداً للإحساس شأن بُلْوا للتعجب من رؤيته يبكي عام ١٨٩٥ إبَّان وفاة آنا مُونيي، علاقته النسائية الوحيدة الدائمة، المرأة الوحيدة التي استطاع معها في ظرف وجيز أن يعيش «حياة

زوجية»، قبل أن يرغم المرض العصبي آنا، الذي لم يكن له علاج ذلك الوقت، على لزوم الحجر الصحي بمستشفى سانْت آن.

خلال النهار، خرجتُ لاقتناء خمس علب سجائر من الحجم الكبير، ثم عدتُ من جديد إلى نشرة المموِن اللبناني، وبعد ذلك بأسبوعين كنت قد أنهيتُ مقدمتي. هبَّ ضغط جوي قادم من جزر الآصور على فرنسا، كان ثمة نفحة ما رطبة وربيعية في الأجواء، مثل عذوبة مُريبة. العام الماضي أيضاً، في مثل هذه الظروف المناخية، كان في الوسع مشاهدة ظهور أول الجُبب القصيرة. بعد شارع شْوازِي واصلت السير في شارع لِيغُوبْلان ثم زقاق مُونْج. في مقهى على مقربة من معهد العالم العربي، أعدت قراءة زهاء أربعين ورقة. كانت هناك تفاصيل في الترقيم يجب ضبطها، وبعض المراجع يجب تصحيحها، لكنِ مهما كان، لم يكن ثمة أي شك: كان ذلك أحسن ما قمت به؛ وذلك أيضاً، أفضل نص، غير مسبوق، كُتِب عن ويسمانس.

أويت إلى منزلي مشياً بتؤدة، مثل شيخ مُسِنّ، وأنا أدرك بالتدرج، هذه المرة، أنها كانت حقاً نهاية حياتي الفكرية؛ وأنها كانت كذلك نهاية علاقتي الطويلة الأمد، الطويلة جداً مع جوريس كارل ويسمانس.

لم أكن بالطبع عازماً على إخبار باستيان لاكو؛ كنتُ أعلم أنه يلزمه على الأقل سنة ربما سنتان، قبل الاهتمام بإنهاء العملية؛ كنت مقبلاً على امتلاك الوقت الكافي لتدقيق حواشي أسفل الصفحات، الحاصل أني دخلت مرحلة ممتعة جداً من حياتي.

ممتعة لا أكثر، قلت مخففاً حماستي وأنا أفتح صندوق رسائلي، للمرة الأولى منذ عودتي من بروكسيل؛ تبقى المشاكل الإدارية، والإدارة «لا تنام أبداً».

حينذاك، لم أجد في نفسي من الشجاعة ما يكفي لفتح أي من المغلفات؛ لقد كنت مدة أسبوعين نوعاً ما أسبح في عوالم المثل، أقصد أني أبدعتُ حسب مستواي المتواضع؛ وقد بدا لي من الصعب شيئاً ما العودة من حينه إلى وضعي بصفتي من رعايا الإدارة العاديين. كان هناك مغلف أوسط، مرسَل من جامعة باريس الرابعة - السوربون. تعجَّبت في سري.

زاد عجبي حينما اطلعت على مضمونه: كنت مدعواً، لحضور المراسيم المرافقة لتنصيب جان فرانسوا لوازلور أستاذاً جامعياً، والتي ستجري وقائعها في اليوم الموالي. سيكون هناك

استقبال رسمي في مدرج ريشليو، وإلقاء خطب، ثم حفل كوكتيل في قاعة مجاورة خصصت لذلك الغرض.

كنت أذكر جيداً لوازلور، هو مَن أدخلني إلى يومية أشياع القرن التاسع عشر، سنوات كثيرة من ذي قبل. لقد ولج الحياة المهنية الجامعية بعد أطروحة فريدة خصصت لأشعار لوكونت دو لِيل الأخيرة. باعتباره رفقة هيرِديا رائدا للشعراء البارْناسِيِّن، فقد كان لوكونت دو ليل محتقراً بهذه الصفة عموماً، وينظر إليه على أنه «حِرَفِي صادق تنقصه العبقرية»، حتى نستعير كلام مؤلفي الأنطولوجيات. لكنه رغم ذلك، وبفعل ما يشبه الأزمة الباطنية - الكونية، كتب في آخر أيامه بعض الأشعار العجيبة، لا تشبه بتاتاً ما كتبه من قبل، ولا ما كان يُكتَب في زمانه، لم تشبه في حقيقة الأمر أدنى شيء، والتي في وسعنا فقط القول بصددها عند الوهلة الأولى بأنها كانت خرقاء بالكامل. ولقد كان لِلوازلور الفضل أولاً في نفض الغبار عنها، وثانياً في أنه أفلح في شرحها أكثر شيئاً ما، دون أن يفلح مع ذلك في أن يجد لها مكاناً ضمن شجرة أنساب أدبية حقيقية - إذ حسبه كان ينبغي بالحري تقريبها من بعض الظواهر الفكرية المعاصرة للبَّرناسي الآفل، مثل الثِّيُوصوفيا (الحكمة اللاهوتية) والحركة الروحانية. ولقد اكتسب على هذا النحو، في ذلك المجال الذي لا منافس له فيه، بعضاً من الشهرة - دون القدرة على ادعاء المكانة الدولية التي يتمتع بها جِبْنْياك مثلاً، فقد كان يُدعى بانتظام لتقديم محاضرات في أكسفورد وسان أندروز.

وعلى المستوى الشخصي، كان لوازلور يطابق على نحو مثير جداً موضوع دراساته؛ لم يسبق لي أبداً اللقاء بشخص يُذكِّر إلى

ذلك الحد بشخصية العالم كُوسِبنِيس: شعر طويل، رمادي ووسخ، نظارتي بصر عظيمتان، بِذل غير متناسقة، ومن شدة ما هي مهرودة فقد كان يبدو دوماً مقصراً إلى حد بعيد في نظافته، ويُوحي من خلال ذلك بشيء من الاحترام المشوب بالشفقة. لم تكن لديه بالتأكيد نية تقمص شخصية: لقد كان بكل بساطة هكذا، ولم يكن في وسعه أن يكون غير ذلك؛ ثم إنه كان الرجل الأشد لطفاً، والأشد حِلما في الدنيا، ليس فيه غرور على الإطلاق. لطالما أرعبه التعليم في حد ذاته، الذي يستدعي رغم كل شيء شكلاً معيَّنا من الاتصال ببني البشر لهم طباع مختلفة؛ كيف أفلح رديجير في إقناعه؟ أجل، كنتُ مقبلاً على الذهاب إلى كوكتيل على الأقل؛ كان يدفعني الفضول لمعرفة ذلك.

لأنها تتمتع بطابع تاريخي، على ضآلته، وعنوان بديع حقاً، فإن قاعات الاستقبال بالسوربون لم تُستعمل على عهدي بتاتاً في استقبالات جامعية، بل كان يتم كراؤها في الغالب، مقابل سعر لا يليق، لعروض الموضة وحفلات المشاهير من الناس؛ ربما لم يكن ذلك لائقاً، لكنه كان مفيداً جداً لتغطية نفقات التجهيز. لقد وضع الملّاك السعوديون الجدد نظاماً جيداً لكل ذلك، واستعاد المكان، بقيادتهم بعض الهيبة الأكاديمية. عندما دخلت القاعة الأولى، وقعت عيني من جديد بفرح عارم على لافتات الممون اللبناني الذي رافقني فترة كتابة مقدمتي كلها. كنت حينها أعرف القائمة عن ظهر قلب، وطلبت بَحزم طعامي. كان الحضور يتألف من الخليط المعتاد من الجامعيين الفرنسيين والأعيان العرب؛ لكن كان ثمة هذه المرة الكثير من الفرنسيين، وقد شعرتُ أن كل

المدرِّسين حضروا. وذلك أمر معقول بما فيه الكفاية: الامتثال لحكم النظام السعودي الجديد كان ما يزال يعتبر في نظر الكثير من الناس كأنه فعل مشين، فعل خيانة؛ في اجتماعهم ببعضهم كانوا يظهرون أنه لهم عدد وعدة، يشجعون بعضهم، وكانت غبطتهم عظيمة حينما تسنح لهم فرصة استقبال زميل عمل جديد.

حالَما قُدِّمت لي مشهيات المزة، وجدتني وجهاً لوجه مع لوازلور. لقد تبدَّل: رغم أنه لم يكن أنيقاً على الإطلاق، فإن مظهره الخارجي كان يشي بتقدم واضح. شعره، الطويل والوسخ دائماً، كاد يكون ممشوطاً؛ المعطف وبنطال بذلته كان لهما تقريباً اللون نفسه، ولم تزينهما أية لطخة دسم، ولا أدنى حَرَق سيجارة؛ وكان في الوسع الإحساس أن يداً أنثوية قد أخذت تتصرف، ذاك على الأقل هو انطباعي.

«أي نعم...» قال مؤكداً دون أن أسأله شيئاً، «لقد أقدمتُ على المخاطرة. عجيب، لم يسبق أن فكرت في ذلك من قبل، وفي آخر المطاف، إنه أمر رائع جداً. أنا سعيد بلقائك، في حقيقة الأمر. وأنت، كيف هي أحوالك؟

- تعني أنك تزوجت؟»، كنتُ في حاجة إلى تأكيد.

- أجل، أجل، تزوجتُ. هو ذاك. غريب في الأصل، جسد واحد أليس كذلك، لكن جميل جداً. وأنت، كيف هي أحوالك؟»

كان في وسعه أيضاً إخباري بأنه أصبح مدمناً على المخدرات، أو متعصباً للرياضات الشتوية، لم يعد شيء يثير استغرابي حقيقة بخصوص لوازلور؛ لكن مع ذلك صدمني الأمر، ورددتُ بغباء، وعيني ثابتة على شريط جوقة الشرف الذي كان يزيِّن سترته الزرقاء الكدرة المثيرة للاشمئزاز: «متزوج؟ بمعية

امرأة؟» لعلي كنت أتصور أنه متبتل، وقد بلغ الستين من عمره؛ كان ذلك ممكناً، بعد كل شيء.

«أجل، أجل، امرأة، لقد عثروا لي عليها» قال مؤكداً وهو يهز رأسه بشدة. «طالبة في السنة الثانية.»

أخرسني الخبر، حينذاك بادره بالكلام زميل، شيخ مسن غريب الأطوار مثله، لكن مع ذلك أنظف منه - بدا لي أنه مختص في القرن السابع عشر، خبير في الكُتَّاب الهزليين، ومؤلف كِتاب عن سْكارون. بعد ذلك الحين بقليل، رأيت رديجير وسط جماعة صغيرة، في الطرف الأقصى من المجلس الرَّحب حيث التأم الحفل. في الآونة الأخيرة، ولأني كنت منغمساً في مقدمتي، لم يخطر ببالي كثيراً، وأدركت أني كنت مسروراً للقائه من جديد. رحَّب بي من جانبه بحرارة. يلزمني الآن مناداته بعبارة «معالي الوزير»، قلت ممازحاً. «كيف هي حال السياسة؟ هل هي شاقة حقاً؟» سألت بجدية أكثر.

- أجل. ما يُحكى عنها لا مبالغة فيه بتاتاً. كنتُ معتاداً على الصراعات من أجل السلطة في سياق جامعي؛ لكن هنا الأمر يفوق ذلك درجة. ومع قول ذلك، فابن عباس بحق شخص رائع؛ أفتخر بالعمل معه.»

تذكرت حينذاك تَانُور، والتشبيه الذي عقده بين أغسطس، ذاك المساء حيث تعشينا معاً في منزله بمنطقة اللُّو؛ ظهر أن التشبيه حاز استحسان رديجير، ودفعه للتفكير. قال لي إن المفاوضات مع لبنان ومصر تسير على نحو حسن؛ كما جرت اتصالات أولية مع ليبيا وسوريا، هناك حيث قام بن عباس بإحياء صداقات شخصية مع الإخوان المسلمين المحليين. في الواقع،

كان يسعى بكل بساطة إلى أن يقوم في أقل من جَيْل بالوسائل الدبلوماسية فقط، بما تطلب إنجازه من الإمبراطورية الرومانية قروناً من الزمان - وأن يضيف إليها علاوة على ذلك، الأراضي الشاسعة في أوروبا الشمالية الممتدة حتى إستونيا، والبلدان الاسكندنافية وإيرلندا. وفضلاً عن ذلك كان يمتلك حس الرمز، ويستعد لإيداع مقترح موجَّه للاتحاد الأوروبي هدفه نقل مقر اللجنة إلى روما، ومقر البرلمان إلى أثينا. «قِلَّةٌ هم بُناةُ الإمبراطوريات...» قال رديجير مستغرقاً في التأمل. «إنها صنعة صعبة تلك المتمثلة في جمع شمل أوطان يفرقها الدين واللغة، وجعلها تنخرط في مشروع سياسي مشترك. ما خلا الإمبراطورية الرومانية لا أرى سوى الإمبراطورية العثمانية، على نطاق محدود أكثر. لا ريب أن نابليون كانت ستنطبق عليه الصفات اللازمة - تدبيره للقضية الإسرائيلية رائع، كما أنه أبان خلال الحملة على مصر أنه قادر تماماً على التعامل أيضاً مع الإسلام. بن عباس، أجل... ممكن أنه من الطينة نفسها...».

حرَّكت رأسي بحماس، رغم أن فهمي يقصر قليلاً على الإحالة إلى الإمبراطورية العثمانية، لكن كنت أشعر أني مرتاح في هذا الجو اللطيف، الطَّافي، الجو الذي عمَّ الحديث المتأدب بين أشخاص متعلمين. وبقوة الأشياء، وصلنا بعد ذلك إلى الحديث عن مقدمتي؛ كان من الصعب علي الابتعاد عن ذلك العمل حول ويسمانس الذي شغلني لأعوام بدرجة تقل أو تكثر، على نحو متكتم - لأن حياتي، في نهاية الأمر، لم يكن لها هدف غيره، قلتُ بشيء من الأسى، دون أن أسر لمحدثي بذلك، إذ كان ذلك مبالغاً فيه شيئاً ما، لكن لا يعني أن ذلك لم يكن صحيحاً. ثم إنه

كان ينصت إلي باهتمام، ولم تبد عليه أدنى أمارة ضجر. مرَّ نادل، وسقانا من جديد.

«لقد قرأت كتابك أيضاً، قلتُ له.

- آه. . . أنا مسرور إذ أخذت من وقتك للقيام بذلك. بالنسبة لي، لم يكن من المألوف عندي تمرين تيسير المعرفة ذاك الصغير. آمل أن ذلك كان واضحاً في رأيك.

- أجل، واضح جداً في مجمله. أقصد، لقد حضرتني بعض الأسئلة رغم ذلك.»

مشينا بضع خطوات صوب فتحةِ نافذة، لم تكن بالقدر المهم لكنها كافية حتى نبتعد عن تيار الضيوف الجارف الذين كانوا يجولون بين أطراف القاعة الفسيحة. عند الملتقى، نميز الأعمدة وقبة الكنيسة التي أمر ريشليوه ببنائها، وهي تسبح في ضوء أبيض وخافت؛ أذكر أن جمجمته كانت محفوظة هناك. «ريشليوه رجل دولة عظيم أيضا. . . » قلتُ دون تفكير في ذلك حقاً، لكن رديجير تابع من فوره: «أجل، أتفق معه جداً، رائع ما قدمه ريشليوه لفرنسا. كان ملوك فرنسا دون المستوى أحياناً، إن مصادفات علم الوراثة هي التي تريد ذلك؛ لكن ليس في وسع الوزراء الكبار أن يكونوا بالمثل، بأي حال من الأحوال. العجيب، هو أننا نعيش الآن الديمقراطية، وأن البون ما يزال شاسعاً بالقدر نفسه. لقد أخبرتك بكل فضائل بن عباس؛ لكن بايْرو، خلافاً لذلك هو امرؤ معتوه، حيوان سياسي لا وزن له، ولا يصلح سوى للتباهي بهيئته في وسائل الإعلام؛ لحسن الحظ أن بن عباس هو من يمتلك السلطة كلها، عملياً. سوف تقول إني

مأخوذ حذ الاستحواذ بابن عباس، لكن ريشليوه نفسه يرجعني إليه: لأن ابن عباس يستعد، مثل ريشليوه، لتقديم خدمات جُلَى للغة الفرنسية. مع انضمام البلدان العربية، فإن التوازن اللغوي الأوروبي سوف ينتقل لصالح فرنسا. عاجلاً أو آجلاً، وسترى بعينك، سوف يتم وضع مشروع موجَّه يفرض الفرنسية، بالتساوي مع الإنجليزية، باعتبارها لغة عمل المؤسسات الأوروبية. لكن لا حديث لي إلا عن السياسة، المعذرة... لقد كنتَ تقول إن لديك أسئلة حول كتابي؟

- وعليه...»، استأنفت الكلام بعد صمت موصول، «إن الأمر محرج شيئاً ما، لكني بطبيعة الحال قرأت الفصل حول تعدد الزوجات، وكما ترى يصعب علي قليلاً اعتبار نفسي ذَكَراً مهيمناً. فكرتُ في ذلك هذا المساء وأنا أصل إلى الحفل، لما رأيتُ لوازلور. بصراحة، أساتذة الجامعة...

- ها هنا، يمكن أن أقول لك ذلك بوضوح: أنت مخطئ. الانتقاء الطبيعي مبدأ كوني، ينطبق على كل الكائنات الحيَّة، لكنه يتخذ أشكالاً مختلفة. بل إنه موجود حتى عند النباتات؛ لكنه في هذه الحال يرتبط بالوصول إلى العناصر المغذية للتربة، إلى الماء، إلى نور الشمس... أما الإنسان، فهو حيوان، هذا مفهوم؛ لكنه ليس كلب مرعى ولا هو ظبي. إن ما يضمن له موقعه المهيمن في الطبيعة، ليست مخالبه، ولا أسنانه ولا سرعته في العدو؛ بل هو ذكاؤه بِحقّ. إذاً، أقول لك ذلك بجدية تامة: ليس هناك حرج في أن يُصنَّف أساتذة الجامعة ضمن الذكور المهيمِنين».

ابتسم من جديد. «كما تعلم... إبان الظهيرة التي قضينا معاً

في منزلي، دار كلامنا حول الميتافيزيقا، خلق الكون، إلخ. أدرك جيداً أن ليس هذا ما يهم بني البشر حقاً، بصفة عامة؛ لكن المواضيع الحقيقية، مثلما قلتَ، هي المواضيع التي يتحرج بشدة من تناولها. حتى الآن أيضاً ما نزال نتحدث عن الانتقاء الطبيعي، ونسعى أن يظل حديثنا في مستوى عال بشكل معقول. من الصعب بداهة أن نسأل مباشرة: كيف سيكون جزائي؟ ما عدد النساء الذي سيكون من حقي؟

- بخصوص الجزاء، أنا على علم مسبق تقريباً.

- وعليه، في المجمل، عدد النساء يتبع ذلك. إن القانون الإسلامي يفرض أنْ تعامل الزوجات بالعدل، مما يفرض أصلاً بعض القيود، ولو في ما يخص السكن. في حالتك، أظن أنك تستطيع امتلاك ثلاث زوجات دون عناء كبير - وبالطبع، أنت غير مكره على ذلك بتاتاً.»

كان ذلك يدعو طبعاً للتأمل؛ لكن كان لدي سؤال آخر، محرج أكثر من سابقه؛ ألقيت نظرة خاطفة حولي للتأكد من أن لا أحد يستطيع سماعنا، ثم واصلت كلامي.

«هناك أيضاً... أقصد أن الأمر دقيق حقاً... لنقل إن للباس الإسلامي محاسنه، المناخ العام السائد في المجتمع أصبح هادئاً أكثر، لكنه مع ذلك يغطي الجسم بشدة، أعني. حينما يكون مطلوباً منا الاختيار، قد يطرح ذلك بعض المشاكل...»

انفرجت ابتسامة رديجير أكثر. «لا تشعر بالحرج من الحديث عن ذلك، حقاً! لن تعتبر رجلاً إذا لم يكن لك هذا النوع من

المشاغل. . . لكني سأطرح عليك سؤالاً قد يبدو لك مفاجئاً: هل لديك حقا الرغبة في الاختيار؟

- طيب. . . نعم. يبدو لي أن نعم.

- أليس ذلك بمثابة وَهْم بعض الشيء. نلاحظ أن جميع الرجال، عند وضعهم في حال الاختيار، يقدمون على الاختيارات نفسها بالضبط. مما دفع جل الحضارات، وعلى الأخص الحضارة الإسلامية، إلى ابتداع الخاطِبات. إنها مهنة مهمة جداً، تختص بها النساء اللائي لديهن تجربة كبيرة وحكمة كبيرة. لهن الحق طبعاً، بوصفهن نساء، في رؤية الفتيات الكواعب عاريات، وإجراء ما ينبغي تسميته نوعاً من التقييم، وعقد الصلة بين أجسادهن والوضع الاجتماعي لأزواج المستقبل. في حالتك، أستطيع التأكيد بأنك لن تشتكي شيئاً. . .»

سكتُّ. في الحقيقة بقيت مشدوهاً جراء ذلك.

«تابع رديجير كلامه، عَرَضاً، إذا كان النوع البشري قادراً على التطور قليلاً، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى ليونة النساء الفكرية. أما الرجل، فهو بصرامة غير قابل للتربية. حتى لو كان فيلسوفاً من فلاسفة اللغة، عالم رياضيات أو مؤلف موسيقى نسقية، فإنه لا محالة، سوف يبني اختياراته الإنجابية دائماً على معايير جسدية محضة، ومعايير لم تتبدل منذ آلاف السنين. بالطبع، من حيث النشأة، فإن النساء أيضاً تجذبهن قبل كل شيء المحاسن الجسدية؛ لكن بفضل تربية مناسبة قد نفلح في إقناعهن أن جوهر الأمر لا يكمن هناك. أصلاً، نستطيع دفعهن إلى أن يجذبهن الرجال الأثرياء - وقبل كل شيء، فإن الاغتناء يتطلب في الأصل درجة من الذكاء والحيلة أعلى من المتوسط. كما

يمكن إلى حد ما إقناعهن بالقيمة الشهوانية العالية التي يملكها أساتذة الجامعة. . .». انفرجت ابتسامته أكثر، وتساءلتُ لحظة إن لم يكن يسخر مني، لكن في الواقع كلا، لا أظن ذلك. «حسنٌ، يمكن كذلك أن نمنح الأساتذة مكافأة أعلى، وهذا يبسط الأمور مهما يكن. . .» قال خاتماً كلامه.

كان نوعاً ما يفتح أمامي الآفاق، وتساءلتُ إن لم يكن لوازلور قد استعان بخدمات خاطِبةٍ؛ لكن طرح السؤال، كان أصلاً إجابة عنه: هل أستطيع تصور زميلي السابق وهو يتعقب الطالبات؟ في حال مثل حاله، كان الزواج المتفق عليه هو الصيغة الوحيدة بداهة.

شارف الحفل على نهايته، واكتسى الليل عذوبة مدهشة؛ أويت إلى منزلي مشياً، دون أن يستغرقني التفكير رغم ذلك، وإنما أخذني الحلمُ يقظةً إلى حد ما. أن تكون حياتي الفكرية قد انتهت، فذلك أمر صار بديهياً أكثر فأكثر، الحاصل أني سوف أعيش مما يفضل لي بعد النفقات ومن مدخولي؛ لكنني أخذت أدرك - وكان ذلك أمراً جديداً حقاً - أنه سوف يطرأ على الأرجح حدث مغاير.

كانت بضعة أسابيع ستنقضي بعد حين، كأنما مُنِحتُ أجلا من باب الكياسة، فيها ستنخفض درجات الحرارة شيئاً فشيئاً، وفيها سيخيم الربيع على الناحية الباريسية؛ ثم بالطبع، سوف أهاتف رديجير.

سوف يتصنع قليلاً فرحته، على الأخص من باب اللياقة، لأنه سيحرص على أن توشح محياه الدهشة، حتى يترك لدي الانطباع بوجود حرية الاختيار؛ سوف يسُرُّه قبولي حقّاً، كنت أعرف ذلك، لكن في العمق كان يعتبره أمراً محسوماً، لا ريب منذ أمد بعيد، على الأرجح منذ الظهيرة التي قضيتها في منزله بزقاق ليزارين - لم أسْعَ حينها قطعاً إلى إخفاء تأثير محاسن عائشة الجسدية عليَّ، ولا فطائر مليكة الساخنة الصغيرة.

كانت النساء المسلمات مخلصات ومستسلمات، يمكن لي أن أعول على ذلك، لقد تمت تربيتهن لهذا الغرض، ولتوفير المتعة، في الأصل ذاك يكفي؛ أما عن المطبخ، فإني لا أبالي به كثيراً، كنتُ أقل حرصاً من ويسمانس في هذا الشأن، لكن في جميع الأحوال، فقد كنَّ تحصل على تربية ملائمة، ولا بد أنه كان من النادر جداً ألا نفلح في جعلهن ربَّات بيوت مقبولة على الأقل.

سوف يكون حفل اعتناق الإسلام، في حد ذاته بسيطاً جداً؛ ستجري وقائعه على الأرجح في المسجد الأكبر بباريس، وكان ذلك مريحاً للجميع. ونظراً لأهميتي النسبية، سوف يكون القيدوم حاضراً، أو على الأقل واحد من مساعديه المقربين. سوف يكون هناك رديجير كذلك، بالطبع. لم يكن عدد الحضور مقيَّداً؛ سوف يكون هناك أيضاً دون شك بعض المصلين المألوفين، لأن المسجد لا يغلق أبوابه للمناسبة، لأن تلك شهادة وجب علي إعلانها أمام إخواني المسلمين الجدد، هم أسواء معي أمام الله.

في الصبيحة، سوف يفتح الحمَّام خصيصاً لأجلي، فهو في العادة مغلق في وجه الرجال؛ برداء الحمام سوف أعبر أروقة طويلة، ذات أعمدة تعلوها أقواس، وجدران تزخرفها فسيفساء بلغت مبلغها من الرّقّة، وفي قاعة أصغر مزخرفة هي الأخرى بفسيفساء ناصعة يغمرها ضوء مائل إلى الزرقة، سوف أترك الماء الدافئ ينساب طويلاً، طويلاً جداً على جسدي، إلى أن يتطهَّر جسدي، وبعدها ألبس ثيابي، سوف أكون قد جهَّزتُ ملابس جديدة؛ ثم سأدخل القاعة الكبيرة، المخصصة لهذه الشعيرة.

سوف يطبق الصمت من حولي. سوف تخطر ببالي صور مجموعاتٍ متراكمة من المجرّات ونجوم عظيمة مستعرة وكواكب سديمية لولبية؛ وصور منابع مياه أيضاً، وصحارى معدنية لم تطأها قدم إنسان، وغابات عظيمة تكاد تكون عذراء؛ رويداً رويداً، سوف أستبطن عظمة النظام الكوني. ثم، بصوت هادئ، سوف أنطق العبارة التالية، التي أكون قد حفظتها في صوتها الأصل:

« Ach-Hadou ane lâ ilâha illa lahou wa ach-hadou anna

Mouhamadane rassouloullahi » التي تعني بالضبط: «أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه». ثم سيكون الختام؛ ومن ذلك الحين أصبح مسلماً.

سوف يمتد حفل الاستقبال في السوربون أطول من ذلك. لقد كان رديجير يتجه أكثر فأكثر نحو الحياة المهنية السياسية، وقد تم تعيينه من عهد قريب وزيراً للشؤون الخارجية، ولم يعد يجد الكثير من الوقت ليخص به منصبه كرئيس جامعة؛ ومع ذلك، سوف يحرص على أن يلقي بنفسه خطاب تنصيبي (كنت أعلم، بل متأكداً من أنه سوف يهيّئ خطاباً رائعاً، ومن أنه سوف يكون مسروراً بإلقائه). سوف يحضر كل زملائي في العمل - لأن خبر إشرافي على طبعة لابلياد شاع بين الأوساط الجامعية، وباتوا الآن جميعاً على علم بها، وبالتأكيد لم أكن واحداً من المعارف التي يجب تجاهلها؛ وسوف يلبس الجميع الحُلَل، إذ أحْيَت السلطات السعودية ارتداء لباس الاحتفال ذاك.

والمؤكد أني سوف أخص مريم بآخر خاطرة قبل خطابي الجوابي (الذي سيكون موجزاً جداً وفق التقاليد). كانت مقبلة على عيش حياتها الخاصة، عرفتُ ذلك، في ظروف أشد صعوبة من ظروفي. وسوف أتمنى بصدق أن تكون حياتها سعيدة - ولو أني لم أكن أظن ذلك كثيراً.

سوف يعم الحبور حفل الكوكتيل، الذي سيمتد حتى وقت متأخر جداً من الليل.

بعد أشهر معدودة من ذلك، سوف يتم استئناف الدروس،

وبالطبع ستحضر الطالبات - الظريفة، المحجبة، الخفرة. لا أدري كيف تجري الأخبار عن سمعة الأساتذة بين الطالبات، لكنها تجري دوماً، وذلك أمر محتوم، ولا أظن أن الأمور تبدلت بشكل محسوس. كل واحدة من تلك الفتيات، مهما كانت ظريفة، سوف تغمرها السعادة والفخر لأن اختياري وقع عليها، وشرفتها باقتسام مضجعي. سوف تكون تلك الفتيات جديرات بأن يحببن المرء؛ وسوف أفلح من جانبي في حبِّهن.

مثلما جرت الأمور مع والدي على هذا النحو تقريباً، قبل أعوام معدودة، فإن فرصة جديدة سوف تكون سانحة لي؛ ستكون فرصة لأجل حياة ثانية، لا تمتّ كثيراً بصلة إلى حياتي السابقة.

لن تأخذني الحسرة على شيء.

هذا الكتاب

خلال كل سنوات فترة شبابي الحزينة، ظلَّ ويسمانس بالنسبة إليَّ رفيقاً، صديقاً وفيّاً؛ لم يساورني شك أبداً، لم يحدث أبداً أن أغراني هجره ولا أن ولّيتُ وجهي شطر موضوع غيره؛ ثم، ذات ظهيرة من شهر حزيران/يونيو ٢٠٠٧، بعد أن انتظرتُ طويلاً، وماطلتُ كثيراً، بل أكثر مما هو مقبول، دافعتُ بين يدي لجنة تحكيم جامعة باريس الرابعة - السوربون عن أطروحتي لنيل الدكتوراه: *جوريس كارل ويسمانس أو الخروج من النفق*. ومنذ صباح اليوم الموالي (أو ربما منذ المساء عينه، لا يسعني تأكيد الأمر، لأن ليلة مناقشتي للأطروحة كانت وحيدة وضاجَة بالكحول)، أدركتُ أن قِسماً من حياتي قد انتهى، ومن المرجّح أنه كان أفضل قسم فيها).

ISBN 978-993335328-5



